رجال حول أهل البيت

الجزء الأول

فوزي آل سيف

مقدمة الكتاب

ليس الكتاب الذي بين يديك كتاب "رجال" بالمعنى المصطلح. أي أنه لا يبحث – فقط- أحوال الرواة من جهة تحملهم للرواية، و من جهة وثاقتهم و عدمها.. و إنما يحاول هذا الكتاب البحث عن"حياة" هؤلاء الرجال و "مواقفهم"و "إسهاماتهم" في حركة الدين والأمة. و هذا الجانب يصعب العثور عليه، عادة، فكتب التاريخ لا تتحدث عن إلاّ ما يرتبط منه بالحروب و الأحداث السياسية الكبرى.و كتب الرجال متخصصة من جهة فليست في متناول العموم لغةً وأسلوباً، و من جهة أخرى فإنها تنظر إلى هذه الشخصية أو تلك من زاوية روايتها للحديث.. و صدقها أو عدمه.. فلا تسجل " مواقف" و لاترصد تاريخاً، إلاّ نادراً.

لذلك غابت مواقف هؤلاء الأبطال، و سيرة حياتهم –في الغالب- عن حاضر الأمة.

و هذا الكتاب الذي يتحدث عن مواقف (٦٥) رجلاً من رجال الإسلام في مختلف أدواره، مساهمة.أرجو لها أن تنفع المؤمنين في معرفة أولئك الرجال وفي الاقتداء بسيرتهم.

فوزي آل سيف

٢٨/محرم /١٤١٤ للهجرة

المقدمة

(١)

من نعم الله على الإنسان أن عرّفه المنازل التي يستطيع الوصول إليها، والدرجات التي يمكنه الارتقاء إليها.

ولولا ذلك..لأصبح الإنسان رهين الحمأ المحموم، يتثاقل إلى الأرض ويتقلب في شهواته مرتـــداً إلى دركات الهوى و(أسفل سافلين).

تلك المنازل والدرجات التي وصل إليها الإنسان كان أفضل من ملائكة الله الذين (لايعصون الله مـــا أمرهم ويفعلون ما يؤمرون).

و لم تكن هذه المعرفة مقتصرة على إرشاد الكتب السماوية، بل إضافةً إليها، ودائماً، كان هناك من يطبقها، ويجسدها فيغدو النموذج الحي الذي تصنعه تلك الرسالات، وهكذا كان دائماً ثنائي الكتاب – الرسول (والإمام)جوهر الحركة التاريخية.

هكذا كانت الكتب السماوية والأنبياء والمرسلون يخلقون من الأشخاص "معاجز" ومن العاديين من الناس منازل ودرجات.

وبهؤلاء تجسدت القيم في بشر فحلت بذلك مشكلتين:

أولاهما: توهم البعض مثالية القيم الإلهية وخياليتها وإنها لم تأت لكي تتحول إلى واقع، بل تبقى طموحاً محلقاً في سماء التجريد، لا تناله يد التجسيد والواقعية بحال، وبهذا تفرغ القيم والفـــضائل مـــن محتـــوى الالتزام، لتبقى ضمن إطار الفكر والمثال.

إنها على هذا الأساس –غير قابلة للتطبيق، ومادامت كذلك فلا يصح المطالبة بها على أســـاس أنهـــا برامج ملزمة.

والأخرى:أن هذه الشخصيات التي جسدت القيم وقفت سداً أمام الاستسلام للواقع والانهيار أمام ضغوطه. وربما لو لم تكن هذه الشخصيات تجسد القيم والفضائل كان المؤمـــل أن يغـــدو الخاضـــعون للشهوات والزاحفون على التراب هم النماذج المعقولة القابلة للإتباع، وأصحاب القيم يبقون في دائـــرة الشاذ النادر الذي لا يعبأ به، فتصبح سيرهم مثار تعجب وحياتهم محور تساؤل.

لكن وجود هذه الشخصيات –والتي لم تكن قليلةً بحمد الله- وضع سداً أمام الانهيار والاســـتجابة للضغوط الشخصية والاجتماعية والسياسية فأصبح مجسدو القيم هم الأصل، وسواهم الاستثناء الـــشاذ، حتى وإن كان أولئك قلة بالنسبة لكثرة هؤلاء.وأصبح أهل الحق هم جماعة الأمة وإن قلوا.

(٢)

من الرجال من لا يثبت كونه كذلك، غير قدرته على الانجاب ، ولو عدمت ذلك لكان بعيداً عـــن الرجولة.

وهناك رجال.."رجال".

رجال في وعيهم، ورجال في مواقفهم، ورجال في جهادهم. من صفاقم تنتزع صفات الرجولـــة و تعرف، بكلماقم تتحرك العزائم الميتة.

و بين أيدينا باقة عطرة من سيرة هؤلاء الرجال، سيرة بعضهم. تبث في الجو رائحـــة أشـــباههم و نظائرهم تماماً كما تستدل على رائحة الورد المحمدي برائحة واحدة منه.

هؤلاء "الرجال" اختاروا أن يكونوا "حول أهل البيت " في وقت تسابق غيرهم ليدوروا، حول أهل القصر و السلطة، و أهل الدينار و الدنيا .. اختار "رجالنا " أن يكونوا حول "أهـــل البيـــت " و هـــم يعلمون ما الذي يكلفهم ذلك و لا يختلف فيه أن يكونوا في زمان معاوية أو المنصور أو المتوكل.

التفوا "حول" أهل البيت الذين اذهب الله عنهم الرجس و طهّرهم تطهيراً، فراشات محبة و ولاء تهفوا إلى أنوار قدس و معرفة.

لم يكن هذا الالتفاف حول أهل البيت عليهم السلام وسام تفاخر و علامة مباهاة، بـــل عرفـــوه مسؤولية، و رسالة ذلك أنه كان يجب عليهم الارتفاع إلى مستوى الأتباع لأهل البيت و هو –لعمري- مترل متعال ..

(٣)

القدوات.. الرجال..

هم خلاصة قصص القرآن و تجارب الأمم، ذلك أننا نجد محور هذه القصص –عـــادة- الأنبيـــاء و المرسلين، و ما صنع المصلحون في مجتمعاتهم. و كأن القرآن بذلك يريد أن يعرّفنا على مواضع القدوة و التآسي. بل دعانا إلى ذلك.

(لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة) و بالرغم من أن كثيراً من فلاسفة البشر قد انتبـــهوا إلى الدور الذي يلعبه الرجال الأبطال في نفوس الناس –معاصريهم و المتأخرين-حـــتى شـــطّ بعـــضهم إلى تلخيص كل تاريخ الأمة في حياة البطل، إلاّ أنّهم غفلوا عن ناحية- أشار القرآن إليها ــ.

تلك أنهم لم يتصوروا إمكانية تكرار البطل، لأنه يأتي من خلال ظروف خاصة به.. بينما أشار القرآن من خلال عرضه لسير الأنبياء و الأولياء ، إلى ضرورة أتباعهم ، ودعى إلى الاقتداء بهم.هذا مع ملاحظة "أنكم لا تقدرون على ذلك" كما يقول أمير المؤمنين عليه السلام ،فإضافة إلى الظروف الموضوعية "زماناً

و مكاناً" و التي ترافق صعود البطل مما لا يتكرر وجودها في كل وقت ، إضافة لذلك فإن هناك عـــاملاً أساسياً يجعل تكرار البطل "كاملا" غير ممكن، ما نعتقده في الأنبياء و الأوصياء من أن الله قد أعطـــاهم ميزات استثنائية تبعاً لما حملهم من مسؤوليات استثنائية كذلك.

و لكن هذا لا يسقط عن الكاهل حمل المسؤولية في الاقتداء "و لكن أعينوني بورع و اجتهاد".

ضمن هذه النظرة تحرك أولئك"الرجال" في طريق أهل البيت حتى صار سلمان "منا أهل البيـــت " و صار مالك لأمير المؤمنين عليه السلام كما كان هو لرسول الله صلى الله عليه و آله وسلم و حتى مـــع تغير الظروف يصبح يونس بن عبد الرحمان في زمانه (أي حدود سنة ٢٤٠هـ) كسلمان في زمانه كمـــا يقول الإمام الرضا عليه السلام .

(٤)

اليوم.. حيث تصدر الثقافة لمجتمعاتنا مع علب الشوكولا، و حيث يتناول شبابنا "وجبة" الأفلام الأجنبية يومياً، و يغمضون أعينهم آخر دقائق اليقظة على أبطالها . و ترى البعض من هؤلاء الشباب يحفظـــون جيداً أسماء الممثلين و أدوارهم . كما يحفظون أسماء "أبطال" الرياضة ، و يـــستطيعون التنبـــؤ بنتـــائج الدورات الرياضية و الفائز فيها.

إن ما يحدث لا يقع في إطار الصدفة و الانفاق، إنّما يؤديه دوراً مرسوماً له.ذلك أن خلـــق مـــشاعر مزيفة للفرد من الحب والكراهية . والفرح والألم، كفيل بأن يغطي المشاعر الحقيقية. ويمتصها موجهـــاً إياها في غير مواقعها.

فإذا كان يشعر بالألم ، فلم يكون ذلك لسوء أحوال مجتمعه السياسية والدينية والثقافية؟! ليستفرغ ذلك الشعور في البكاء من نهاية قصة الحب في الفيلم!!.

وإذا كان يعجب بالبطولة ،فلم ينظر إلى تاريخ الإسلام حيث بطولة السيف وشجاعة الموقف؟! لتكن البطولة في نظره ممثلة في الرجل الأبيض وهو يطارد بسلاحه الأوتوماتيكي جموع العزل من الهنود الحمر والزنوج السود!!.

ليستلهم البطولة من رعاة البقر، ومن ضخامة العضلات وإن كانت القيم بائسة!.

وهكذا إذا أراد مثلاً أعلى في الحياة ،إذ لابد للشاب أن يحاكي غيره، فلِم يحاكي حمزة أو جعفـــر؟! دعه يقلد " نجوم " الرياضة، ويلبس ملابسهم، أو المغنين ويمشط شعره على طريقتهم!.

لقد صدروا لنا ثقافتهم ، وطريقة حياتهم ، من خلال أبطالهم والطفل العربي المسلم اليوم يحفظ أسماءهم قبل أن يحفظ جدول الضرب، فضلاً عن أصول الدين!!.

ولذا فإن العودة إلى الذات ،وإلى بطولات الأمة ، يضع العربة في موقعها الصحيح.

(٥)

"حول أهل البيت"

لو تتبعت في التاريخ ، الذين كانوا حول أهل البيت والذين كانوا حول أعـــدائهم..تجـــد حـــول أعدائهم، من اتقنوا فن المديح الكاذب من شعراء سوقة ، ومتملقين مرتزقة. وتجد أيضاً الأنصار الفسقة، والعلماء الذين اشتروا بآيات الله ثمناً قليلاً ، وأخيراً الجلادون والوزراء الذين يمثلهم عمرو بـــن العـــاص بقوله لمعاوية:لو أطعت الله كما أطعتك وجبت لي الجنة.

وفي المقابل تجد أهل البيت ألسنة الحق وتراجم الصدق من شعراء العقيدة الذين حملوا أرواحهم على راحاتهم وانطلقوا معلنين موقف الرساليين، فكانت حياتهم ثمناً لكلماتهم ، وتجد أيضاً الرجال الذين آووا ونصروا حين خذل غيرهم ، وأعطوا الله من أنفسهم حتى يرضى-ولسان حالهم قول زهير بن القـــين: اللهم إنك تعلم أنه لو كان رضاك في لأن أضع ضبة سيفي في بطني حتى يخرج من ظهري لفعلت.

و"علماء حلماء أبرار أتقياء" لخصوا في أنفسهم مقومات الاتباع والاقتداء بأهل البيت، فإذا قلبـــت صفحات التاريخ تجد التفوق والتميز شعاراً لهم .. تجد " الكميت" ولا أحد يسبقه في مضمار شـــعره ، والسيد الحميري، سيد الشعراء ، وآخرون ، حتى لقد قال القائل : وهل الشعر إلاّ عند الـــشيعة ؟ وفي مساحات العقيدة، وقفوا سدً منيعاً أمام نفوذ الثقافات الفاسدة إلى دين الله، نظراء هشام بن الحكم ، و زرارة بن أعين وغيرهم.

وميادين الحرب .. هل كانت تزين بغيرهم؟! هل غير حمزة كان فارسها، وهل كان إلاّ قيس بـــن سعد قد سود على معاوية نهار يومه؟!.

وفي العلم الطبيعي .. من مثل جابر بن حيان خرّيت كيميائها؟! وعلوم اللغة والعروض . هل مثل الخليل العروضي؟أو ابن السكيت الكوفي.. ونظرائهم وأمثالهم؟!.

و لم يكن كل ذلك ، إلاّ نفحة عرف من بستان أهل البيت عليهم السلام .. أولئك الذين يتـــصور الشاعر أبو فراس جزءاً من المسافة بين سلوك أهل البيت وأعدائهم في رائعته الميمية:

خلّوا الفخار لعلاّمين إن سئلوا ... يوم السؤال وعمالين إذ علموا

لا يغضبون لغير الله إن غضبوا ... ولايضيعون حكم الله إن حكموا

تبدو التلاوة من أبياتهم سحراً ... ومن بيوتكم المزمار والنغم

الركن والبيت والأستار منزلهم ... وزمزم والصفا والحجر والحرم

(٦)

لن تجد على هذه الصفحات تاريخ سلطان، ولا حديثاً عن فتوحات ولن يمرّ البلاط ورجالــه إلاّ للضرورة..

لكنك ستجد"رجالاً" قد تجهل بعضهم –عزيزي القارىء- وستتعجب حين لا تجد آخــرين مــن "الصحابة" ومن" التابعين" إذ بالإضافة إلى أن خطة الكتاب ليست تسجيل "كل" أولئك فهذا يطلب في المطولات.. فإنك تجد في هؤلاء –وأمثالهم- حضارة الإسلام، ولب المجتمع الإيماني تجد فيهم : الــوعي العميق ، و الإيمان الثابت ،و التضحية من أجل المبدأ،و تجد همّ الجماعة، و تقديس الحق.
هؤلاء و إن كانوا مجهولين في أدوارهم و أهميتهم ، بينما ارتقى منبر الرسول صلى الله عليه وآله وســلّم من يرى الحاكم الأموي أفضل من الرسول..
يبقى هؤلاء المجهولون في الأرض المبعدون عن المواقع المهمّة في المجتمع، المشردون و المقتولون –أحيانــاً- يبقون "يزهرون لأهل الأرض كما تزهر النجوم لأهل الأرض".

(٧)

"رجال " ظلموا مرتين:

الأولى :أثناء حياتهم ، عندما جردّ عليهم أعداؤهم سيف البغي والعدوان فاستأصلوهم" لأنهم كانوا على هذا الأمر" فأنت تلتقي بسعيد بن جبير في هذا المجال ، وبدعبل الخز اعي ، أو حرموهم من مواقع لا تصلح إلاّ لهم ، كما ترى في حياة خالد بن سعيد بن العاص ، وسلّطوا عليهم سيف التفسيق والتكفير كما تجد في نهاية أمر مالك بن نويرة، وهكذا.

وأخرى: مظلوميتهم بعد وفاتهم .. وكان روّاد هذه الظلاّمة، المؤرخون والرجاليون، والمحــدثون إذ أن هؤلاء تتبعوا أولياء أهل البيت وشيعتم ، فأسقطوهم- أو هكذا حاولوا – من الاعتبار، فلا تــسمع بمنقصة إلاّ ونسبوها لهم.. وكأنهم تأسفوا أن لم يكونوا معاصرين لهم ليــصفوا أشخاصــهم ، فتتبعــوا بالاغتيال شخصياتهم .

وبهذا حوّل هؤلاء المؤرخون السلطويون الولاء لأهل البيت ، والمشايعة لهم ، والاقتداء بمنهجهم إلى " تهمة " وقد كانت أيام الحكومات الظالمة معارضة سياسية ، فسبق هؤلاء الرجاليون أولئك الظلمة في هذا الأمر ، ولم يكن أولئك يطمعون فيما صنعه هؤلاء.

ها نحن اليوم نشهد جرح هذا الراوي أو ذاك لا لشيء إلاّ لأنه شيعة لأهل البيت علــيهم الــسلام فهاهو ابن حجر العسقلاني يرى (!) أن من أسباب الطعن في الراوي .. التشيع !! والذهبي يعــد زرارة بن أعين وهو من حواريي الصادقين عليهما السلام ومن أبطال الفقه والحديث، يعــده الــذهبي" مــن

الضعفاء" !! وسبب ذلك " أنه يترفض" ! ولقد رأى اتباعه لسادات الخلق ترفضاً .. وبعد يقول ابن عقدة أنه .. حافظ العصر وكان إليه المنتهى في قوة الحفظ وكثرة الحديث.. ومُقت لتشيعه !!.

وهكذا أصبح التشيع ، وهو التطبيق الأفضل لتعاليم الإسلام ،والاتباع الأكمل لرسول الله ، أصبح عند هؤلاء تهمة سياسية .. ثم دينية!!.

وأبطالنا هؤلاء كانوا ممن ظلموا مرتين ، على يد معاصريهم من أعدائهم ، وأخرى على يد من جاء بعدهم ممن سار على خط مخالف لأهل البيت عليهم السلام .

(٨)

(يوم ندعو كل أناس بإمامهم) ، فتأتي الجموع في المحشر ، تلك فئة يقودها فرعون حيث (فاستخف قومه فأطاعوه) وتلك أخرى يقودها المال حيث (المال يعسوب المنافقين) . وتلك ثالثة يقودها الجنس إذ أن الشهوة كانت المحرّك الأساسي لها في سعيها في الحياة وكانت تجسيداً كاملاً لـ :" بئس عبد الخميصة والفرج" ، ورابعة تأتي يقودها ضب !! نعم الضب، ذلك الذي يضرب به المثل فيقال أضلّ من ضب ، بايعه عدد ممن اعتزل أمير المؤمنين عليه السلام منهم عمرو بن حريث.. وهكذا لا يأتي الناس أفراداً بل يدعون حسب انتمائهم العقيدي والاجتماعي والسياسي ، خلف راية أئمتهم وقادتهم سواء كانو طواغيت أو ضبابا ، أعياناً خارجية أو أعضاء الجسم !!.

هذه النتيجة الأخروية تابعة للمقدمة الدنيوية .. إذ" أن لكل مأموم إماماً يقتدي به ويستضيء بنور عمله " ولا يمكن أن يبقى المرء بلا إمام ، حق أو باطل .

والكثير ممن كانت نهايات أمرهم سيئة ، وعواقب حياتهم رديئة ، إنما لأنهم قصروا في معرفة الحق ، وأسلموا زمام مواقفهم إلى قادة يفقدون الكفاءة والدين .

بينما نجد أحد أسوار عظمة غيرهم من "الرجال" أنهم عينوا – بشكل دقيق- القائد الرباني فاتبعوه ، فتفجرت في قلوبهم ينابيع الحكمة بتوجيهاته ، وتبلورت الطاقات الكامنة بتعليماته ، وخرجوا بذلك من ظلمات الوهم إلى نور الحقيقة ، حتى كادوا أن يكونوا من الفقه أنبياء .

(٩)

من كانوا ؟! وما الذي ميزهم عن غيرهم ؟!

إن استعراضاً خاطفاً لما قيل فيهم، من مؤيديهم ومن مخالفيهم يجعلنا على معرفة بتلك الصفات والميزات التي انفردوا بها.

فالله سبحانه وتعالى يقول عنهم (محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً سيماهم في وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم في التوراة والإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزرّاع ليغيظ بهم الكفار).

ورسول الله صلى الله عليه آله وسلم يصفهم بأنهم : أمنة لأمته كما هو صلى الله عليه وآله وسلم أمنة لهم ، وكما يدفع به عنهم العذاب ، يدفع بهم عن أمته الوعيد.

وأمير المؤمنين يمدحهم في نهج البلاغة بخطبة مفصلة منها.. أنهم: أهل الفضائل: منطقهم الصواب وملبسهم الاقتصاد ، ومشيهم التواضع ، غضوا أبصارهم عمّا حرّم الله عليهم ووقفوا أسماعهم على العلم النافع لما نزلت منهم أنفسهم في البلاء كالتي نزلت منهم في الرخاء ، ولولا الأجل الذي كتب الله عليهم لم تستقر أرواحهم في أنفسهم طرفة عين أبداً شوقاً إلى الثواب وخوفاً من العقاب ، عظم الخالق في أعينهم فصغر ما دونه في أعينهم .

وهكذا الحسين عليه السلام حيث يصف هؤلاء بأنه لا يعلم أصحاباً أوفى ولا خيراً من أصحابه..

ولقد عرف هذه الصفات مخالفوهم وأعداؤهم ، فقد قال ذلك القرشي عنهم و هم مجتمعون حول الرسول في بدر: ليس لهم كمين و لا مدد و لكن نواضح يثرب حملت الموت الناقع، أما ترونهم خرساً لا يتكلمون يتلمظون تلمظ الأفاعي مالهم ملجأ إلاّ سيوفهم، و ما أراهم يولون حتى يقتلوا و لا يقتلون حتى يقتلوا بعددهم.

و هذا معاوية بن أبي سفيان لا يخفي غضبه من الأنصار الذين قتلوا من أصحابه الكثير، الكثير حتى أنه لا يسمع بأحد مقتول إلا و يعلم أن الأنصار قتلوه، و لا يخفي أن نساء خزاعة لو قدرت على قتاله لفعلت قبل رجالها.. و يتعجب من وفاء أصحاب أمير المؤمنين له بعد شهادته رغم الترغيب و الترهيب.."لوفاؤكم له بعد مماته أعجب من طاعتكم له في حياته".

و عندما تبرز تلك الثلّة المؤمنة في كربلاء لقتال الجاهلية الأموية، فتثخن فيهم القتل المبارزة، فينادي القائد الأموي عمرو بن الحجاج الزبيدي بالامتناع عن هذا النوع من القتال قائلا:

- ويلكم يا حمقاء أتدرون من تقاتلون؟! إنما تقاتلون فرسان المصر و أهل البصائر و قوماً مستميتين..

"إن فرسان المصر في مجتمع محارب و هو ما كانه المجتمع العربي الإسلامي في ذلك الحين تعبير يعني الشخصيات البارزة في المجتمع فقد كان التفوق في الحقل العسكري أحد أفضل السبل لتبوء مركز اجتماعي مرموق يبعث على الاحترام بل لقد كانت هذه الصفة خليقة بأن تجعل يغضون النظر عما قد يكون في الرجل من خلال معيبة في نظر المجتمع.

و "أهل البصائر" تعبير يعنى به الواعون الذين يتخذون مواقفهم عن قناعات تتصل بالمبدأ الإسلامي و لا تتصل بالاعتبارات النفعية.

و إذن فنحن أمام نوع من الشخصيات تمثل النخبة الواعية للإسلام في المجتمع الإسلامي في ذلك الحين و هي تستمد، تفردها و تفوقها من فضائلها الشخصية و من وعيها الإسلامي و التزامها بمواقفها المبدئية.." [1].

وفي موقع آخر يقول أحد رجال عمر بن سعد عندما قيل له :- ويحك أقتلتم ذرية رسول الله صلى الله عليه وآله و سلم ؟!.

فقال : ثارت علينا عصابة أيديها في مقابض سيوفها كالأسود الضارية تحطم الأسود يميناً وشمالاً وتلقي أنفسها على الموت لا تقبل الأمان ولا ترغب في المال ولا يحول حائل بينها وبين الورود على حياض المنية أو الاستيلاء على الملك فلو كففنا عنها رويداً لأتت على العسكر بحذافيره ، فما كنّا فاعلين ؟!.

وهكذا عندما يحضر المهدي العباسي حاضراً الثائر السجين وقد طعن في السن وبعد أن شتمه واتهمه بالزنا ، وهو الثائر على ظلم العباسيين مع عيسى بن زيد وكان قد قيده ، فضربه عدة مرات..وحاضر يسخر منه قائلاً :

-إنك لشديد أيّد حين قويت على شيخ مثلي تضربه ، لايقدر على المنع من نفسه ولا الانتصار لها..

وانهزم المهدي وهو الحاكم أمام هذا المنطق القوي والثبات العجيب ، ولما صرف حاضراً من مجلسه قال للربيع وزيره:

- أما ترى قلّة خوفه وشدّة قلبه؟ هكذا يكون والله أهل البصائر .

(١٠)

ولاعيب فيهم غير أن سيوفهم بهن فلول من قراع الكتائب

تلك النجوم الزاهرة لو لم تكن قرب شموس قادتهم من أهل البيت لطغى نورها على كل شيء ، فخرهم أنهم عاشوا قرب الأئمة ، وتحت ظلّهم ، فهل كان يتوقع أن ينظر الناس إلى فضائل حمزة ، وقد طلع عليهم كوكب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ؟ أم يستضيئون بنجم زرارة ونجم الصادق عليه السلام في رائعة النهار ؟.

[1] / أنصار الحسين / ١٦٨

وهكذا لا عيب فيهم (!) سوى أنهم كانوا قرب أهل البيت عليهم السلام ، فتضاءلت صفاتهم وشخصياتهم – وهي كبيرة – أمام عظمة أهل البيت .

ولو فرضنا أنهم – بهذه الشخصيات - كانوا جنب نظرائهم من سائر الناس ، لبان تفوقهم ، بل أنك اليوم وأنت تنظر إلى سيرة حياتهم ن لا تستطيع أن تضع إلى جنبهم من معاصريهم أحداً ممن لم يتأثر بمدرسة أهل البيت .

هل تجد كحمزة أسد الله وأسد رسوله؟!.

أم كصعصعة بن صوحان الخطيب المتدفق؟.

أم كسعيد بن جبير سيد الفقهاء ؟!.

أم... ؟ .

وتتبع قافلة النور.

والذي حدث أن كثير جاؤوا فتتبعوا سيرة أهل البيت عليهم السلام تلك السيرة اللامتناهية في العلم ، والصفات الأخلاقية المتميزة ، وحسناً فعلوا ، فقد ارتشفوا من حوض كوثرهم ، ما استطاعوا.

ولكن بقي في هذه الأثناء.. سيرة أصحابهم ومن كان حولهم، فقد وقعت هذه الشخصيات في حياتها تحت ظلال أهل البيت أثناء حياتهم ، وبعد وفاتهم أيضاً لم يلقوا الاهتمام المطلوب.

إن رجلاً مثل أبي حنيفة النعمان يصبح محور اهتمام فرقة غير قليلة من المسلمين –أتباعه – فتؤخذ فتواه وتشرح أفكاره ، وتؤرخ العديد من الكتب حياته بينما لا يزيد هو على مستوى أحد تلامذة مؤمن الطاق محمد بن النعمان رضوان الله عليه الذي يبقى ذكره وتاريخ حياته ضائعاً في الكتب الرجالية بين ألوف الرواة ورجال المسانيد . وأن مثل أبي يوسف يصبح قاضي القضاة في حياته وتدرس شخصيته بعديد من الكتب بعد وفاته ، بينما تجد عالماً أفضل منه هو محمد بن مسلم الطائفي ، يقصى في حياته عن مواقع الإدارة والسلطة وهذا طبيعي من أربابها، إذ الإقصاء أدنى ضرائب الانتماء الرسالي ، ويبقى مجهولاً بعد وفاته ، إلاّ من مراجعة الفقهاء والمحدثين لرواياته عن المعصومين عليهم السلام .

(١١)

سوف تجد في سيرة هؤلاء الرجال تاريخ الإسلام في مراحله المختلفة ، وليس ذلك فقط لأن هؤلاء الرجال في كنف أهل البيت ، وشهدوا معهم مشاهدهم ، ومعاركهم ، وإنما – وأيضاً – لكونهم صناع أحداث ذلك التاريخ .

فأنت تجد في سيرة أبي طالب صورة عن بداية الرسول دعوته في مكة المكرمة ، وجهاده وفي سيرة حمزة ستجد بالضرورة شرحاً عن واقعتي بدر الكبرى وأحد ، وهكذا في سيرة حذيفة بن اليمان صورة عن معركة الخندق.

وهكذا الأمر في تطور الأحداث بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فعند الحديث عن حياة مالك بن نويرة اليربوعي ستلتقي بتحليل تاريخي لما جرى بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وما فعله خالد بن الوليد ، ويكتمل ذلك التحليل بالنظر إلى سيرة خالد بن سعيد بن العاص ، ولما كان محمد ابن أبي بكر ربيب أمير المؤمنين علي عليه السلام في معمعة الثورة التي قام بها المسلمون ضد الخليفة الثالث ، كان لابد من التعرض إلى خلفيات ذلك الحدث بشكل تفصيلي ، عند الحديث عن سيرة محمد ابن أبي بكر .

وبالرغم من قصر المدة التي حكم فيها أمير المؤمنين عليه السلام ، إلا أنها كانت حبلى بالأحداث والمشاكل ومعارك التمرّد التي قام بها الناكثون والقاسطون والمارقون في الجمل وصفين والنهروان ، تلك المعارك التي بقدر ما أبرزت سوءات أعداء أمير المؤمنين ، أظهرت فداء أصحابه ، وإيثارهم، تجد تاريخاً لتلك المعارك من خلال بطولات رجالها أمثال صعصة بن صوحان العبدي.

وعندما تقرأ سيرة مسلم بن عقيل تجد فيها شرحاً لوضعية المجتمع الكوفي وكيف استطاع ابن زياد السيطرة عليه بعد أن جاء من البصرة ، كما يظهر الدور السيىء الذي مارسه الطابور الخامس الذي يعمد إلى الثورة وقد آن أوانها فيجهضها ويقضي على الجهود التي بذلت لإنجاحها .. وتتعرف من خلال ذلك على مقدمات الثورة الحسينية التي ستلتقي مع عدد من أبطالها .. تجد بينهم الحر الرياحي الذي خرج من قفص الاستعباد إلى حرية الاستشهاد ، واستطاع أن يرسم لنفسه مجداً في الخالدين ، وتجد بينهم جون مولى أبي ذرّ الغفاري ، الذي أسقط (أحرار) المعسكر الآخر نسباًو(عبيده) موقفاً أمام الحجة البالغة يوم القيامة ، وتلتقي أيضاً بحبيب بن مظاهر الأسدي الشيخ الكهل الذي يقاتل بروح الشباب وحماس الأحداث .

وأخيراً تلتقي مع قمر العشيرة أبي الفضل العباس ، وتلحظ التنوع في هؤلاء الأصحاب فمن(مولى) إلى (شيخ عشيرة) ومن (طاعن في السن) إلى (شاب هاشمي) وهكذا .. لتقرأ في حياتهم سيرة البطولة والشهادة وواقعة كربلاء.

ولا أطيل عليك عزيزي القارىء.. سأتركك تتعرف على التاريخ من خلال أبطاله .

وفي الختام :

وأخيراً لعلّك تسأل عزيزي القارىء-: على أي أساس تم انتخاب هؤلاء ؟! هل بسبب كونهم حواريين للمعصومين ؟! أو لأن أدوارهم التاريخية كانت على غاية من الأهمية ؟! أو غير ذلك ..

وفي الواقع إن الأساس لانتخابهم كان لأنهم " رجال" ولأنهم " حول أهل البيت " ثم تأتي بقية العوامل كأن يكون للشخص دور تاريخي ، سواء في ساحة المعركة ، أو ميدان العلم أو في مضمار المواقف الثورية الشجاعة ، أو في مستبق الانتماء والولاء لخط الرسالة والإمامة . وربما تجد في مجموع حياة الرجال الذين تم انتخابهم صورة ما عن حياة المعصوم الذين تحلقوا حوله .

لا يفوتني هنا أن أنبه القارئ المحترم إلى أن بعض هؤلاء الرجال ، عاصروا أكثر من معصوم وأخذوا عنه ورووا حديثه .. في تاريخنا لحياة هؤلاء كنا غير مقيدين بأن ننسبهم لحياة المعصوم الأول أو الأخير، بل ربما تحدثنا عنهم كأصحاب للمتوسط ، وإن كنا لم نهمل الفصل الأخير من حياتهم .فمثلاً عبد الله بن جعفر الطيار رأى النبي صلى الله عليه و آله و سلّم و عاش في بيت أمير المؤمنين عليه السلام و شهد مواقف الحسن عليه السلام، و قدم ابنيه في ركاب الحسين شهداء، و توفي أيام زين العابدين عليه السلام.. فهو يحسب من أصحابهم جميعاً إلا أننا أرّخنا حياته كأحد رجال الإمام الحسن عليه السلام. و هكذا الحال في زرارة بن أعين الذي تتلمذ على يد الباقر و الصادق عليهما السلام و يونس بن عبد الرحمان الذي لقي ثلاثة من الأئمة.

النبي محمد بن عبدالله المصطفى (ص)

١- حمزة بن عبد المطلب

٢- جعفر بن أبي طالب

٣- أبو طالب(عبد مناف بن عبد المطلب)

٤- حذيفة بن اليمان

٥- بلال بن رباح الحبشي

***

محمّد بن عبد الله (المصطفى)(صلى الله عليه وآله وسلم)

رسول الله: أبو القاسم

ولد رسول الله صلى الله عليه و آله و سلّم في عام الفيل أي سنة(٥٧٠) للميلاد، و قد توفي والده عبد الله قبل ولادته و توفي رسول الله صلى الله عليه و آله و سلّم سنة(١١) للهجرة.

نشأ في قبيلة بني سعد، حيث احتضنته حليمة السعدية لإرضاعه و بقي هناك لمدة خمس سنوات، عـــاد بعدها إلى مكّة، و ذهب مع أمّه آمنة لزيارة قبر والده، و في طريق العودة فقد أمّه حيث توفيت في منطقة الأبواء.

كفله جدّه عبد المطلب ، و كان يرى فيه النبي الذي سيبعث، إذ كان النبي و آباؤه على الحنيفيـــة و في الثامنة من عمر الرسول توفي جده عبد المطلب،فكفله بعدها عمه أبو طالب.

كان (محمد الأمين) يعمل في رعي الغنم، ثم عمل بالتجارة، حيث طلبت منه خديجة بنـــت خويلـــد أن يعمل بأموالها على طريقة ما يعرف اليوم بالمضاربة. و كانت تلك الرحلة التجارية له للشام مربحة كثيراً لخديجة و له.. و لما عاد غلمان خديجة، وأخبروها بما رأوا منه من كرامات، وصفات فاضلة فزاد عـــزم خديجة على الاقتران به، و أرسلت من يذكرها عنده، و تم الزواج بعدئذ. في حين في حين أنها رفضت عروض القرشيين الأغنياء.

في سن الأربعين من عمره الشريف، و حين كان يتعبد الله –على عادته– في غار حراء في مكة المكرمة، نزل عليه الوحي، بعد سلسلة مقدمات تمت لمدة طويلة، و لم يفاجأ ببعثه، كما يـــدعي الـــبعض مـــن المؤرخين، و كان نزول الأمين جبرئيل عليه بأول آيات القرآن الكريم إيذاناً ببعثه للناس جميعا.
بدأ الرسول صلى الله عليه وآله و سلم يدعو الناس في مكة المكرمة سرّاً و كان أول من آمن به خديجـــة زوجته و علي بن أبي طالب ثم كثر المؤمنون بدعوته، و استمر ذلك لمدة ثلاث سنوات.
بعد هذه السنوات أمر الرسول بالإنذار العام و الإعراض عن المشركين، فنادى في قريش بعد أن صـــعد على جبل الصفا واصباحاه. فاجتمعوا إليه، فسألهم:أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا قد دهمتكم وراء هـــذا السفح أكنتم مصدقي؟! قالوا: بلى، ما جربنا عليك كذبا..فقال: فإني لكم نذير بين يدي عذاب أليم..
و مع هذه المرحلة تصاعد الأذى و العذاب من قبل القرشيين للمؤمنين خصوصا من كان منهم لا يملك دفعاً كالعبيد و الفقراء.

شددت قريش حصارها الاقتصادي و مقاطعتها الاجتماعية للرسول و المؤمنين به بعـــدما فـــشلت في ردع المؤمنين عن الالتزام بدعوة الرسول، و فشلت في الضغط على الرســـول أو ترغيبـــه، فحوصـــر المسلمون في شعب أبي طالب، و اشتدّ بهم الضر، حتى لقد أكلوا أوراق الشجر بسبب قلة الطعام.
في السنة الثامنة للبعثة توفي أبو طالب كافل النبي و حاميه ، و بعد أشهر توفيت زوجته السيدة خديجة، فكان لتلك أعظم الأثر في نفس النبي صلى الله عليه و آله و سلم و سمي ذلك العام: عام الحزن. و بعـــد وفاة أبي طالب لم يجد النبي صلى الله عليه وآله و سلم من يحميه في مكة.فخرج إلى الطـــائف ليـــدعو أهلها. و لكنه لم يجد منهم سوى التكذيب و الأذى.
هاجر النبي صلى الله عليه وآله و سلم بعد ذلك إلى المدينة، بينما بات أمير المؤمنين على فراشه. وكـــان نائبا عنه في أداء الودائع و أخبر القرشيين أنه خارج للمدينة بعد ثلاثة أيام. و كان أعنف تحـــد تتلقـــاه قريش من قبل رجل واحد حيث سيخرج بالرغم من إرادتها.
في المدينة بدأ الرسول صلى الله عليه و آله و سلم خطواته لإنشاء المجتمع الإسلامي القوي القائم علـــى أساس الدين، فآخى بين المسلمين، و بدأ يجهز السرايا لاستنقاذ أموال المسلمين من قوافـــل قـــريش، و لتأديب الأعراب أطراف المدينة..
على أثر مطاردة سرية للمسلمين لقافلة تجارية لقريش عزمت قريش على حرب المـــسلمين، فجهـــزت جيشا قوامه قرابة الألف مقاتل، بينما جهز المسلمون جيشا قوامـــه (٣١٣) ، و اشـــتبك الجيـــشان في (بدر)، حيث كانت الغلبة لله و لرسوله، و غادر المشركون مخلفين وراءهم جثث (٧٠) قتيلا، و عـــاد المسلمون بيدهم سبعين أسيرا..

لم تبلع قريش لقمة هزيمتها، حتى عادت مرة أخرى و جمعت مقاتليها لتشتبك مع المسلمين في (أحد) و كانت رياح النصر تجري لصالح المسلمين، إلاّ أن الرماة فوق الجبل من المسلمين، عصوا أمـــر الرســـول فتركوا مواقعهم و استغل المشركون الفرصة، ونقلبت الكفة آنئذٍ ، فهزم المسلمون . وقتـــل في هـــذه المعركة عدد من خلّص أصحاب الرسول و شجعانهم .

استمرت المواجهات بين المسلمين وبين أعدائهم ، فقد قام الرسول صلى الله عليه وآلـــه وســـلم بإخراج اليهود من المدينة ، ولغرض إنهاء الوجود الإسلامي فقد تحالفت قريش مع سائر العرب ، ومـــن ورائهم اليهود ضد المسلمين ، وتحزبوا لغزو المدينة ، فكانت معركة الخندق ، التي انتهت بنصر المسلمين ، ثم كانت معركة (خيبر) التي أدّت إلى إخراج شوكة اليهود من جسم المدينة. وبعدها كانت غـــزوة مؤتة ضد جيوش الروم .

أخبر الرسول المسلمين بالاستعداد للذهاب إلى مكة ، وقد أخفى خروجه لكيلا يصل الخبر إلى أهل مكة فيتهيأوا لذلك .. وبالفعل فقد فاجأ الرسول صلى الله عليه وآله وسلم أهل مكة حيث لم يستطيعوا المواجهة ، واستطاع رسول الله أن يدخل مع المسلمين مكة سلماً ، وأن يفتحها ، ويقضي بذلك علـــى الموقع الديني للوثنية في الجزيرة العربية. وأعلن عن خطوات كانت بمثابة تفريغ قريش من عناصر مقاومتها حينما أعلن الأمان العام لأهل مكة.

بعد فتح مكة خضعت الجزيرة العربية للإسلام ، وبدأ الرسول صلى الله عليه وآله وســـلم ، يبعـــث بموفديه إلى سائر البلاد ، داعياً زعماءها إلى الإيمان برسالة الإسلام ،

في السنة العاشرة من هجرة النبي صلى الله عليه وآله وسلم وحينما كان النبي عائداً من الحج أوقـــف الجميع عند غدير خم ، ونصب (علي بن أبي طالب) ولياً للمؤمنين ،و وصياً ، وخليفة له ، وقد شهد ذلك الحدث عشرات الألوف من المسلمين الحجاج .

في السنة الحادية عشرة، لبّى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم نداء ربّه وتوفي في الثامن والعشرين من صفر ، ودفن في المدينة المنورة.

حمزة بن عبد المطلب(أبو عمارة) وأبو يعلى

توفي شهيداً بأحد سنة ٣ هـ

العمر ٥٩ سنة

" ما من يوم أشدّ على رسول الله من يوم أحد قتل فيه عمّه حمزة بن عبد المطلب أسد الله و أسد رسوله..."

الإمام السجاد عليه السلام

عاد من الصحراء ممتطياً صهوة فرسه .. يملأ العين إعجاباً والنفس إكباراً ، والقلب هيبة، هذا الكهل الشجاع الذي تتحدث قريش عن رجولته وفروسيته .

عاد ، تملأ الثقة أهابه ، وقد توشح قوسه بعد رحلة قنص له، وفي الطريق تستوقفه مولاة لبد الله بن جدعان :

- يا أبا عمارة .. يا أبا عمارة ..

لو رأيت ما لقي ابن أخيك من أبي الحكم (أبي جهل) آنفاً قبيل وجده هنا فآذاه وشتمه وبلغ منه ما يكره ، ثم انصرف عنه و لم يكلمه محمد.

تغير ت الدنيا في عينيه ، أصبح يراها حمراء من الغضب ، وزال ذلك الصفاء والانطلاق الذي عاد به من الصحراء ، استنفرت فيه مروءته كل رجولته ، لقد رأى أن تجاوز قريش بلغ حداً لا يتحمل ، وأسرع في مسيره .. كان من عادته إذا رأى جماعة من الناس يقف ويسلّم عليهم ويطايبهم بالحديث ، ولكنه هذه المرة لا يكاد يبصر من الغضب شيئاً ، أنه يبحث عن أبي جهل لتأديبه .

ودخل المسجد ، وكان أبو جهل جالساً مع نفر من قومه ، وكان وجه حمزة ينذر بما لا يسرّهم ، إلاّ أن خوفهم منه جمّدهم في أماكنهم فلم يستطع أحد منهم أن يتحرك من موضعه.

وتقدم .. وتقدم ، ودون أن يسلم وقف بحذاء أبي جهل ورفع القوس ، وأهوى بكل قوته على رأس أبي جهل ، وانبعثت الدماء من رأسه .

لم تكن تلك الضربة قد أصابت رأس أبي جهل فقط ، بل أسالت الدماء من رأس قريش . ولذلك قام من بني مخزوم من كان حاضراً ليعينوا أبا جهل وليردّوا هذه الإهانة عن قريش :

- ما نراك يا حمزة إلاّ قد صبأت ؟.

- وما يمنعني منه وقد استبان لي منه ذلك .. قال حمزة .. وأطلق قنبلته : وأن أشهد أنه رسول الله وأن الذي يقول حق فو الله لا أنزع فامنعوني إن كنتم صادقين .

نسي الجميع شجة أبي جهل ، والإهانة الكبر التي لحقت به ، وظلوا يرددون .. أحمزة يسلم ؟! صياد الأسود ، الفاتك الشجاع يصبح مع العبيد والضعفاء ؟! حمزة .. أعز رجال قريش وأكثرها فتوة يتبع ابن أخيه لينكس رأسه راكعاً وساجداً ؟!

* * *

ترى هل كان إسلامه صدفة ؟ أم مجرد موقف أنشأته الحمية ؟ وهل كان سيبقى مع جاهلية قريش لو لم يكن هذا الموقف ؟! لا أظن ذلك ، بل أعتقد بعدمه .

إن المواقف - خصوصاً العقيدية منها — لا تأتي من دون مخاض ، لكن لما كان مخاضها في داخل الضمير ، فإنه يبقى مجهولاً للآخرين ، ولكنه يستمر إلى أن يستقر على ساحل ، ويأتي ظرف خارجي في هذه الأثناء ، كالذي حدث لحمزة — فيخرج ما أضمرته نفسه ، ويكون مصدر استغراب لمن يتصوره خطوة مفاجئة .

حمزة الذي ينشأ في كنف أبيه عبد المطلب والذي كان على ملة إبراهيم وكان يقرأ الكتب ويوصي بنيه بنصرة النبي الذي سيخرج من صلبه ، حمزة الذي يعيش مع ابن أخيه محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، إذا كان من أترابه سناً ، فلا يرى منه خطلة في قول ولا زلة في فعل ، ها هو يدعو إلى عبادة الله الواحد الأحد ، وقد آمن به أخوه أبو طالب وابناه علي وجعفر فما الذي يمنعه ..

أليس هو القائل أنه حين يذهب في عمق الصحراء ، يدرك أن هذا الكون الرحيب لا يمكن أن تحيط به أصنام منحوتة من الحجر والنحاس معلقة — في جوف الكعبة .. أن الصحراء بما فيها من صفاء وسكون تمنحه القدرة على التأمل الإيماني في المبدأ والمعاد مفعماً

بالإيمان بخالق لهذا الكون أقوى وأقدر وأحكم وأكبر مما يتصوره هؤلاء الجاهليون .

من حينه توجه إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، الذي أكمل مسيرة الطمأنينة في نفسه ، فذكره ووعظه وبشره فقال :

- أشهد أنك صادق شهادة الصدق العارف فأظهر يا ابن أخي دينك فو الله أنّ لي ما أظلّته السماء وأني على ديني الأول . وأنشأ :

حمدت الله حين هدى فؤادي	إلى الإسلام والدين الحنيف
لدين جاء من رب عزيز	خبير بالعباد بهم لطيف
إذا تليت رسائله علينا	تحدر دمع ذي اللب الحصيف

رسائل جاء أحمد من هداها بآيات مبينات الحروف

وأحمد مصطفى فينا مطاع فلا تغشوه بالقول العنيف

فلا والله نسلمه لقوم ولما نقض فيهم بالسيوف

وتترك منهم قتلى تباع عليها الطير كالورد العكوف[2]

ولما أسلم حمزة عرفت قريش أن رسول الله قد عزّ وامتنع وأن حمزة سيمنعه فكفّوا عن بعض ما كانوا ينالون منه.

* * *

– ما هم إلا أكلة رأس لو بعثنا إليهم عبيدنا لأخذوهم أخذا في اليد.. و صفق أبو جهل يديه بجذل و هو ينظر إلى قلّة عدد المسلمين في بدر.. و انطلق عمير بن وهب الجمحي على فرس له ثم رجع:

– ليس لهم كمين و لا مدد..

و لكن نواضح يثرب قد حملت الموت الناقع، أما تروهم خرساً لا يتكلمون، يتلمظون تلمظ الأفاعي ما لهم ملجأ إلا سيوفهم، و ما أراهم يولون حتى يقتلوا و لا يقتلون حتى يقتلوا بعددهم فارتأوا رأيكم.

غضب أبو جهل من كلامه، و قال: كذبت و جننت.

و ذهبت أدراج الرياح محاولات عتبة بن ربيعة في منع الحرب:

– يا معشر قريش أطيعوني اليوم و اعصوني الدهر إن محمداً له إلّ و ذمّة و هو ابن عمكم فخلوه و العرب، فإن يكن صادقاً فأنتم أعلى عينا به و إن يكن كاذبا كفتكم ذؤبان العرب أمره.

و رد أبو جهل مرّة أخرى، و قد طمع أن يحوز المسلمين باليد كما قال و على يد عبيده: جبنت و انتفخ سحرك!!.

و كانت أول مواجهة عسكريّة بهذا المستوى بين المسلمين و الكفار و كان مطلع القصيدة فيها ضربة من حمزة أطنّ بها قدم الأسود المخزومي الذي "عاهد الله!" أن يشرب من الحوض أو يهدمنه أو يموت دونه!!

و قطعت هذه الضربة الهاشمية عليه الطريق، كما قطعت ساقه، و لما زحف اتبعه حمزة بأخرى كانت فيها نفسه.

المجد اليوم لبني هاشم، فسيدهم رسول الله صلى الله عليه و آله و سلّم يقود المعركة و يوجهها من عريشه، و حمزة و علي يحصدان الرؤوس.

---

[2] / سيرة ابن اسحاق / ١٧٣

كانت قريش تحتاج إلى أن ترفع من معنوياتها، فقد كانت نواضح يثرب تحمل الموت، و ها هـــو الأســـود المخزومي قد جرب حظه مع هذا الموت، و بدون ذلك فإن قريشا ستنهزم بدون قتال. لذلك برز منها كبار فرسانها:

عتبة بن ربيعة، و أخوه شيبة، و ولده الوليد بن عتبة و طلبوا المبارزة، و لما خرج إليهم ثلاثة من الأنصار- قالوا:

ما لنا بكم حاجة..

- يا محمد أخرج لنا أكفاءنا من قومنا.
- قم يا عبيدة بن الحارث، قم يا حمزة، قم يا علي.
- أكفاء كرام.

و برز لعتبة عبيدة و هو أسن الثلاثة، و لشيبة حمزة، و علي للوليد ..

فلم يمهل علي الوليد أن ضربه على رأسه حتى أوصل السيف لأضراسه. و كذلك قتل حمزة شيبة، بينمـــا اختلف عبيدة و عتبة ضربتين أثبت كل واحد منهما صاحبه.فعطف حمزة و علي على عتبة فأجهزا عليه.

و أمر الرسول بالالتحام،و أخذ كفّاً من الحصى فرماه بوجوههم قائلاً: شدوا..(فلم تقتلوهم و لكن الله قتلهم و ما رميت إذ رميت و لكن الله رمى). و كان سيف حمزة يحصد في الرؤوس..

أراد أبو جهل أخذ المسلمين باليد بواسطة عبيدة ، تصورهم أكلة رأس .. وأراد الله أن يذيقه الخـــزي على يد واحد من أضعف المسلمين لنسمع ما يقول عبد الله بن مسعود.

-انتهيت إلى أبي جهل وهو يتشحط بدمه ، فقلت : الحمد لله الذي أخزاك .. فرفع رأسه وقال : إنمـــا أخزى الله عبد ابن عبد ويلك لمن الدبرة ؟!.

قلت: لله ولرسوله.. وإني قاتلك.. و وضعت رجلي على عنقه.

فقال: ارتقيت مرتقى صعباً يا رويعي [3] الغنم أما أنه ليس شيء أشد من قتلك إياي في هذا اليـــوم ألا يكون تولى قتلي رجل من المطلبيين أو رجل من الأحلاف.

فاقتلعت بيضة كانت على رأسه فقتلته وأخذت رأسه وجئت إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقلت :

- يا رسول الله .. البشرى هذا رأس أبي جهل بن هشام فسجد لله شكراً .

[3] / تصغير راعي

وعاد المسلمون إلى المدينة فرحين بنصر الله ، وقد قتلوا سادة قريش وأسروا سبعين من مقاتليها ، وغنموا السلاح والكراع ، وغنموا خيراً من ذلك القوة المعنوية والنصر الداخلي .

بينما فرّ من استطاع من القرشيين لا يلوي على شيء.. يعثر تارة في أجساد قادته وأخرى في أذيـال خيبته ، و وصلوا إلى مكة التي أقامت عزاءً عاماً صامتاً ، فمن جهة دخل اليتم والثكل كل بيت قرشـي فكانت الهزيمة والمصيبة في كل بيت ، ومن جهة أخرى كانوا يريدون الانتقام والبكاء على القتلى والنوح من الممكن أن يمتص الغضب والثأر ، لذلك حرموا البكاء على القتلى وبدأوا يستعدون لمعركة الثأر .

وإذا كان أبو جهل مسعر الحرب الأولى ، فإن "هنداً " كانت هذه المرة ، لولب الحركة العـسكرية ، لقد قتل في بدر أبوها عتبة ، وعمها شيبة وأخوها الوليد ، وكلهم قتلوا بيد بني هاشم : عبيـدة وعلـي وحمزة .

وكان الهدف قتل واحد من الثلاثة: الرسول صلى الله عليه وآله وسلم أو حمزة ،أو علي، لهذا وعدت "وحشياً" وهو عبد أسود يقذف بالحربة على طريقة الأحباش بما لا يخطر على باله ، حريته ، وعقودها و قلائدها من الذهب .. إن قتل أحد الثلاثة .

ولعقت قريش جراحها ، ولملمت قوتها وجمعت إليها الأحابيش وخرجت في ثلاثة آلاف معهم مائتـا فرس ، ويقود هذا الجمع أبو سفيان ، بينما كان على ميمنتهم خالد بن الوليد وعلى الميسرة عكرمة ابـن أبي جهل .

بينما خرج الرسول صلى الله عليه وآله وسلم معه سبعمائة رجل.

ولما التقى الناس ودنا بعضهم من بعض قامت هند بنت عتبة (زوجة أبي سفيان) في النسوة اللاتي معها ، وأخذن الدفوف يضربن بها خلف الرجال ويحرضنهم فقالت هند فيما تقول :

نحن بنات طارق   إن تقبلوا نعانق
ونفرش النمارق   أو تدبروا نفارق
فراق غير وامق

فاقتتل الناس حتى حميت الحرب وقاتل أبو دجانة سماك بن خرشة حتى أمعن في العدو ، وحمزة وعلي بن أبي طالب في رجال من المسلمين فأنزل الله نصره وصدقهم وعده فحسوهم بالـسيف حـتى كـشفوهم وكانت الهزيمة لا يشك فيها[4] ... .

وأخذ المسلمون في أثر المشركين يضربون وجوههم وأدبارهم وأولئك ينـهزمون تـاركين سـيوفهم وخيولهم ومتاعهم . وتسابق المسلمون لجمع الغنائم ،ومالت الرماة تاركين الجبل مخلفين أوامـر الرسـول

[4] / سيرة ابن اسحاق

صلى الله عليه وآله وسلم وراء ظهورهم ، منحازين عن قائدهم عبد الله بن جبير الذي حـــاول عبثـــاً أن يثنيهم ..

ساعة .. إذ تغير الموقف واستطاع خالد بن الوليد بمن معه من الخيل أن يحتلوا مواقع المسلمين في الجبل . ويباغتوهم من الخلف وكانت فرصة كافية لجيش قريش أن يلتئموا من جديد .

وفر من المسلمين من فرّ ومنهم عثمان بن عفان حتى بلغوا " الجلعب " جبلاً بناحية الدينة فأقاموا بـــه ثلاثة أيام !! ثم رجعوا إلى رسول الله فقال لهم : لقد ذهبتم فيها عريضة [5] !!

و لم يبق مع رسول الله غير عشرة ..

كل هذا ووحشي يترقب ، فرصة تمكنه من أحد أهدافه أما الرسول : فكان محاطاً بأصحابه وأما علي فكثير الالتفاف ، بقي حمزة ، الذي كان لا يمر بأحد إلاّ قطعه بسيفه .. لنسمع منه بقية ما حدث .

" والله إني لأنظر إلى حمزة يهد الناس بسيفه ما يليق (يبقي) شيئاً مثل الجمل الأورق إذ تقدمني إليه سباع بن عبد العزى فقال له حمزة : هلّم إليّ يا ابن مقطعة البظور فضربه فكأن ما أخطأ رأسه وهـــززت حربتي حتى إذا رضيت منها ذففتها عليه حتى وقعت جبلاً في ثنته[6] حتى خرجت من بين رجليه ، وأقبـــل فقلب فأمهلته حتى إذا مات جئت إليه فأخذت حربتي وتنحيت إلى العسكر و لم يكن لي بشيء حاجة غيره [7].

كانت الهزيمة مؤلمة ، لأنها لم تكن لتحصل لولا مخالفة الرماة أوامر الرسول، وكانت مؤلمة أكثر لأنهـــا أفقدت الرسول ، أسد الله وأسد رسوله حمزة سيد الشهداء .. وماذا يضر أليس حمزة من أولئك الـــذين خلقوا للبطولة وللشهادة بالتالي ؟! أليس هو أحد المعنيين بقول الشاعر:

ولسنل على الأعقاب تدمى كلومنا   ولكن على أقدامنا تقطر الدما

كل ذلك صحيح ولكن ما فعل بجسد حمزة أثار في رسول الله غضباً حزيناً..

هاهي هند بعد أن وضعت الحرب أوزارها تتقدمها الشماتة والحقد تركض إلى مصرع حمزة يقودها وحشي، فمثلت به وجدعت أنفه وقطعت أذنيه ثم جعلت ذلك كالسوار في يديها، ثم بقـــرت بطنـــه واستخرجت كبده فلاكتها فلم تستطع أن تسيغها فلفظتها.

و لم يكن زوجها أقل حقداً منها و وحشية فقد جاء إلى مصرع حمزة وضرب برمحه بين أسنان حمزة عليه السلام قائلاً: ذق عقق.. ولما أنكر عليه ذلك من كان معه طلب منه أن يستر عليه !!.

---

[5] / المصدر / ٣٣٢

[6] / الثنة : مابين أسفل البطن والعانة

[7] / سيرة ابن اسحاق / ٣٢٩

وعاد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بعد أن صلّى على حمزة اثنتين وسبعين صـــلاة، إذ بـــدأ بالصلاة عليه ثم صاروا يأتون بالشهداء فيضعونهم إلى جانبه فيصلي عليه وعليهم.

عاد وفي قلبه نبع فياض من الحزن على حمزة، حتى قال حفيده الإمام السجاد عليه السلام بعد سنوات ما من يوم كان أشد على رسول الله من يوم أُحد قتل فيه عمه حمزة سيد الشهداء ..

ومرّ على دور الأنصار فسمع بكاء نسائهم على قتلاهن وشهدائهن وجاش الألم في قلب الرسول على حمزة قائلاً:

-لكن حمزة لا بواكي له.

ومواساة من الأنصار للرسول صلى الله عليه آله وسلم في عمه حمزة، أمروا نساءهم أن يبكين حمزة ، فكنّ يبدأن بذكر حمزة إذا أردن النياحة على شهدائهن .

ويظل وسام " أسد الله وأسد رسوله " يستبق مع وسام: " رحمة الله عليك، فإنك ما علمت وصـــولاً للرحم فعولاً للخيرات ".

٢ـ أبو عبد الله جعفر ابن أبي طالب ((الطيار))

توفي شهيداً في مؤتة سنة ٨ هـــــ

".. ورأيت جعفراً ملكاً ذا جناحين مضرجاً بالدماء مصبوغ القوادم..".

رسول الله (ص).

البهو واسع يغمر الناظر بالهيبة.. صور وأيقونات تمثل السيد المسيح وأمه العذراء (عليهما السلام) تنتشر بنظام على جدران ذلك البهو، فتزيده سكينة وهيبة.

أينما قلّبت طرفك في أرجائه تجد شكل الصليب، محفوراً على الأعمدة ومنحوتاً في الرخام ومرسوماً على خشب الساج.

ينتهي ذلك البهو إلى مقاعد يتوسطها عرش الملك ..

إننا في الحبشة، في بلاط الملك العادل النجاشي، واليوم سيشهد هذا البلاط حلقة مهمة من حلقات الصراع بين الإسلام والوثنية.

في الخارج جلبة وأصوات.. ترى من جاء؟! النجاشي؟! كلا ليس بعد فالداخلون لم يكونوا غير وزرائه والأساقفة، وبدا في الخلف رجلان يلبسان لباس الأعراب.

دفعة أخرى من الداخلين، بعد أن استقر بالأولين مجلسهم دخلوا بلا ضجيج في صفوف منتظمة، ووقفوا في أحد جوانب البهو الواسع..يقودهم رجل في الثلاثينات من العمر. مهيب الطلعة، أنور الوجه، وبالرغم من أن السفر الذي قطعه كان متعباً إلا أنه لم ينل من إشراقة وجهه. أنه جعفر ابن أبي طالب.

جاء النجاشي.. وأخذ الجميع وضع الاستعداد لاستقباله، ودخل بينما انحنى الوزراء والأساقفة تحية للملك، وتقلصت قامة عمرو بن العاص وصاحبه، وبالغا في الإ نحناء... لايهم عند عمرو أي نوع تكون الوسيلة مادامت ستوصله إلى غايته، ويتبسم بخبث قائلاً لصاحبه:

ـ سنرى كيف تنحني هذه الرقاب غداً..

ـ ألا تركعون لنبيكم؟! سأل النجاشي جعفر والمسلمين.

ـ نحن لا نركع لغير الله وحده... أجاب جعفر.

بقدر ما كان جعفر مطمئناً بنصر الله كان المسلمون السبعة والثمانون قلقين.. ذلك أنهم ما كادوا يتركون مكة مهاجرين ناجين بدينهم من فتنة قريش وببدنهم من أذاها، وما كادوا يتنفسون الصعداء في بلاد الحبشة حتى استنفرت قريش كل طاقتها لإعادة هؤلاء المهاجرين لكيلا تكون أمل المعذبين في مكة. ولذلك أرسلت قريش عمراً بن العاص داهيتها لإرجاعهم، ولم ينس هذا الأخير أن يحمل الهدايا الكثير والثمين ويوزعها على الوزراء والأساقفة ويحتفظ للملك بالهدية الكبرى.. لقد كان عمرو واثقاً أن رقاب المسلمين ستنحني غداً في القيد بعد أن تكون الهدايا قد أتت أكلها.

وكانت قلوب المهاجرين من الضعفاء في رجل طائر، إذ كلما يمر في ذاكرتهم حديث المكاوي، والسياط، والتجويع والتعطيش يزداد وجيب قلوبهم، ويتفصد العرق في الوجوه كجمر.

لذلك كان الموقف حاسماً، كلمة تزيد أو أخرى تنقص، من الممكن أن ترسل هؤلاء المهاجرين إلى الهاوية القرشية... منهم من كان يفضل مجاملة النجاشي والأساقفة في دينهم حتى تمر الغمامة السوداء بسلام، غير أن جعفراً الذي كان شبيه الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) خلقاً وأخلاقاً، لم يشأ أن

يعالج الموقف بتلك الصورة، فقد ملأ اليقين قلبه بصدق الرسول وأن الله منجز له ما وعده، ومنذ ذلك اليوم الذي أمره أبوه أبو طالب بالإيمان بالنبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، حين كان يصلي معه علي أخوه وخديجة، قائلاً: صل جناح ابن عمك..

منذ ذلك اليوم وهو يمتلئ إيماناً بأن الله سيظهر هذا الدين على الدين كله.. لذلك وجد الصدق منجاة ولم يقبل أن يتحدث بغير الواقع.. واستطاع بموقفه الشجاع أن يرد الاطمئنان إلى نفوس أولئك المهاجرين.

لم يقطع الصمت السائد إلاّ كلام عمرو بن العاص..

_ أيها الملك.. أنه قد ضوى (أوى) إلى بلدك منا غلمان سفهاء فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا في دينك وجاؤوا بدين ابتدعوه لا نعرفه نحن ولا أنت وقد بعثنا إليك فيهم أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائرهم لتردهم عليهم فهم أعلى بهم عيناً وأعلم بما عابوا عليهم وعاتبوهم فيه.

_ يا عمرو أعبيدٌ هم لكم ؟! سأل النجاشي.

_ كلا.

_ هل لكم عليهم دَين ؟! .

_ كلا..

والتفت إلى جعفر قائد مجموعة المهاجرين:-

_ ما هذا الدين الذي فارقتم فيه قومكم ولم تدخلوا في ديني ولا دين أحد من هذه الملل ؟! .

وانتصب جعفر كالسيف، وانطلق متحدثاً عن الحالة التي كانت عليها العرب، والتغيير الذي جاءت به رسالة الإسلام، وأفرغ عن معدن البلاغة الهاشمية مرتجلاً:

" كنا قوماً أهل جاهلية، نعبد الأصنام ونأكل الميتة ونأتي الفواحش وتقطع الأرحام ونسيء الجوار ويأكل القوي منّا الضعيف حتى بعث الله إلينا رسولاً منّا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من الحجارة والأوثان وأمرنا بصدق الحديث وآداء الأمانة وصلة الرحم وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم وقذف المحصنات، فصدقناه وآمنا به واتبعناه على ما جاءه من ربه فعبدنا الله وحده ولم نشرك به شيئاً وحرّمنا ما حرّم علينا، وأحللنا ما أحل لنا فغدا علينا قومنا فعذبونا وفتنونا عن ديننا ليردوننا إلى عبادة الأوثان وإلى ما كنّا عليه من الخبائث.

فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا وحالوا بيننا وبين ديننا، خرجنا إلى بلادك ورغبنا في جوارك ورجونا ألا نظلم عندك".

أخذ النجاشي وأساقفته، بل وعمرو بقدرة جعفر وبلاغته، فهو إضافة إلى سيطرته على الموقف حول ذلك المجلس إلى مكان دعوة وتبليغ لرسالة الإسلام، و لم يكن عمرو يتوقع هذه القدرة الفائقة التي سيطر بها جعفر على أحاسيس الملك، وكان يحب أن لا يستمع الملك، وكان يحب أن لا يستمع إلى كلامهم فضلاً عن الكلام الذي جاء بهم " محمد".

وتأثر النجاشي أكثر عندما أخبره جعفر أن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أمرهم بالمجيء إلى الحبشة لأن ملكها عادل ولا يظلم عنده أحد.

ــ هل معك شيء مما جاء به نبيكم؟! سأل النجاشي.

– نعم.

ــ هلّم فاتل عليّ ما جاء به.

وابتدأ جعفر يتلو في خشوع من سورة مريم .

(كهيعص * ذكر رحمة ربّك عبده زكريا* إذ نادى ربه نداءً خفيّا * قال رب إني وهن العظم مني واشتعل الرأس شيبا و لم أكن بدعائك ربي شقيا * وإني خفت الموالي من ورآئي وكانت امرأتي عاقراً فهب لي من لدنك وليّا * يرثني ويرث من آل يعقوب واجعله ربّ رضيّا * يازكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل من قبل سميا...) .

لقد كان كل شيء موظفاً لأداء التأثير المطلوب وهذا ما حدث.

فالجو كان جو دفاع مظلومين عن أنفسهم ودينهم، وجعفر بقدرته الهاشمية في الخطابة، وأخيراً انتخابه لآيات من سورة مريم كانت تدق على الوتر الحساس لدى النجاشي وأساقفته المسيحيين، فلو أن جعفر قد اختار سورة أخرى ربما لم تؤثر في نفوسهم أثر سورة مريم.. واهم من كل ذلك نفس الأثر الذي يخلفه القرآن في نفوس سامعيه، فلو كان جبلاً لرأيته خاشعاً متصدعاً ..

وخشعت القلوب، وفاضت الأعين مما عرفوا من الحق.

وقام النجاشي إعظاماً لهذا الكلام ثم التفت إلى جعفر والمسلمين معه:

ــ إن هذا والذي جاء به عيسى يصدر من مشكاة واحدة، وانطلقوا راشدين فو الله لا أسلمكم إليهما.

وتعانق المسلمون وكان عيد نصر حقيقي صنعه جعفر، واترعت نفس عمرو بحقدها، و لم يكن ليتنازل بهذه السرعة، وحاول مرة أخرى أن " يأتي النجاشي بما يستأصل خضراءهم" لكن يد الله كانت معهم، فعاد إلى قريش يعثر بأذيال خيبته، و لم يحصد غير فقدان صداقة النجاشي، وخسران هداياه للأساقفة.

وخرج جعفر والمهاجرون من ذلك المجلس لا خوف عليهم ولاهم يحزنون، واستمروا في حياتهم ينتظرون خبر النبي(صلى الله عليه وآله وسلم).

* * *

في تلك الأثناء كانت دعوة الإسلام تتقدم من فتح إلى آخر، ولكن أهم فتوحها كان هجرة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) إلى المدينة، تلك الهجرة التي فتحت تاريخاً جديداً في الجزيرة العربية، وأصبحت المدينة مركز النواة الأولى لدولة الإسلام الكبرى، منها ينتشر الوعي والمعرفة، وهكذا تحولت من " يثرب" المرض والجو الفاسد إلى " طيبة" و لم يكن هذا التحول في الاسم فقط، بل إن الروح التي نفخها الرسول في المسلمين حوّلت هذه المنطقة إلى نموذج.

و لم يكن متوقعاً أن يسكت كفار قريش عن هذه التجربة، فقد كان وجودها تحدياً وجودياً صارخاً لوجود قريش، واستمرارها يعني هزيمة قريش في مقاومتها. لذلك كان همّ عتاتها القضاء على هذا الوجود.. فكانت " بدر الصغرى" و" الكبرى" شربت قريش كأس مرارة الهزيمة العسكرية حتى الثمالة على يد الحفاة المجردين عن السلاح، ورجعت راغمة بعد أن خلفت وراءها سبعين جثة من " عظامها" ومثلهم من الأسرى.. وكررت التجربة في "أُحد" و لم تسلم من مصير " بدر" إلاّ بشق الأنفس.

ودخلت السنة السابعة وكان النبي قد أنهى لتوّه غزوة خيبر، الأكثر أهمية بعد بدر، واستطاع أن ينهي أسطورة اليهود، وأن يستأصل سرطانهم الذي كان يفتك بأهل المدينة من حيث سيطرتهم على المال وسوء استغلاله.

وكما كان نصر الحبشة على يد جعفر ابن أبي طالب، فقد كان فتح خيبر على يد أخيه علي بن أبي طالب فقد " ضيّق المسلمون الحصار على حصون خيبر واليهود يستميتون في الدفاع إيماناً منهم بأن هزيمتهم أمام محمد هي القضاء الأخير على بني إسرائيل في بلاد العرب وتتابعت الأيام فبعث الرسول أبا بكر إلى حصن ناعم كي يفتحه، فقاتل ورجع دون أن يفتح الحصن، وبعث الرسول عمر بن الخطاب في الغداة فكان حظه كحظ أبي بكر فما لبث أن رجع منهزماً يجبّن أصحابه ويجبّنه أصحابه، وعندها قال الرسول(صلى الله عليه وآله وسلم): لأعطيّن الراية غداً رجلاً يحبّ الله ورسوله ويحبه الله ورسوله يفتح الله على يديه كرّار ليس بفرار..وهكذا:

يوم قال النبي إني لأعطي	رايتي ليثها وحامي حماها
فاستطالت أعناق كل فريق	ليروا أي ماجد يعطاها
فدعا ابن صاحب العلم والح	لم مجير الأيام من بلواها

فأتاه الوصي أرمـــد عين فسقاه من ريقه فشفاها

ومضى يطلب الصفوف فولّت عنه علماً بأنه أمضاها

وبرى مرحباً بكف اقتـــدار أقوياء الأقدار من ضعفاها

" فخر علي بها والله يصول ويهرول هرولة وإنّا لخلفه نتبع أثره حتى ركز رايته في رضم حجارة تحت الحصن، فاطلع يهودي من رأس الحصن فقال: من أنت؟! قال: أنا علي بن أبي طالب. فقال اليهـــودي لقومه: غلبتم وما أنزل على موسى.

وخرج مرحب صاحب الحصن وعليه مغفر يماني وحجر قد ثقبه مثل البيضة على رأسه وهو يرتجـــز ويقول:

قد علمت خيبر إني مرحب شاكي السلاح بطل مجـــــرّب

إذا الليوث أقبلت تلهب وأحجمت عن صولة المـــغلب

فأجابه علي بن أبي طالب:

أنا الذي سمتني أمي حيدرة كليث غابات شديد القســــــورة

أكيلكم بالسيف كيل الســــــندرة

فاختلفا ضربتين فبدره علي بضربة فقدّ الحجر والمغفر ورأسه ووقع في الأضراس.

ولما دنا من الحصن خرج إليه أهله فقاتلهم فضربه رجل منهم فطرح ترسه من يده فتناول علي باب الحصن فترّس به عن نفسه فلم يزل في يده حتى فتح الله عليه وطرحه لكي يصير المـــسلمون إلى داخـــل الحصن.

قال جابر بن عبد الله إن علياً حمل الباب يوم خيبر حتى صعد المسلمون عليه فافتتحوها وأنه جرب بعد ذلك فلم يحمله أربعون رجلاً [٨].

وهكذا فتحت حصون اليهود الستة: السلالم والقموص والنطاة والقصارة والشق والمربطة وفيهـــا عشرون ألف مقاتل ففتحها حصناً حصناً فقتل المقاتلة وسبى الذرية.

فتح خيبر الذي كان بهذه الأهمية، يوازيه عند الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) قدوم جعفـــر ابن أبي طالب، فما أن وصل جعفر وأخبر النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بذلك حتى قام إليه واعتنقه وقبّل مابين عينيه، وقال:

ــ لا أدري بأيّهما أسر.. بفتح خيبر أم بقدوم جعفر.

---

[8] / البداية والنهاية ٤\١٩٠.

ثم التفت إلى جعفر، قائلاً له: ألا أعطيك ؟ ألا أحبوك؟! وظنّ الجالسون أنه يريد يمنحه هدية مالية، من ذهب خيبر أو غيره فعلمه الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) الصلاة المعروفة بصلاة جعفر.

واستبشر المساكين خيراً فقد جاء إلى المدينة " أبو المساكين"، وخاض غمار الحياة الإسلامية، بما عرف عنه من جدية وحرص على الدين، وبما يملك من كفاءات، فلم يكن مشهد. من مشاهد الرسول أو مغازيه يخلو من " الطيار". لقد هض النبي قتل حمزة في "أُحد" ولكن وجود أمير المؤمنين علي (عليه السلام) ووجود أخيه جعفر فيما بعد خفف وطأة ذلك عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم).

* * *

وبعد القضاء على اليهود في المدينة، وكسر شوكة قريش وحلفائها في (الخندق)، انطلقت قوافل الدعاة تنشر الوعي والمعرفة حاملة كتاب الله، داعية إلى توحيده، في أنحاء الجزيرة العربية وخارجها.

وإلى بصرى في الشام بعث الحرث بن عمير الأزدي. والذي أخد يجد السير حتى وصل إلى مؤتة، حيث تعرض له شرحبيل الغساني عامل هرقل، وسأله: أين يريد؟! فقال الشام .

فقال له: لعلّك من رسل محمد!! قال نعم.. فأوثقه رباطاً ثم قدمه وضرب عنقه.. ولم تكن الرسل تقتل آنئذٍ.

وإذا كان المسلم لا يبالي على أي جنبيه وقع على الموت، لأن مآله إلى الجنة، إلاّ أن هذا العمل كان تحدّياً سافراً لاعتبار المسلمين ومخالفة صريحة لكل الأعراف.. لذلك كان له وقع شديد على النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) والمسلمين، فأرسل الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) ثلاثة آلاف من المسلمين لقتال ذلك الوالي.

وسبقت أخبار تلك القوة المرسلة إلى شرحبيل الذي أوصلها بدوره إلى هرقل، وكانت الفرصة التي ينتظرها الروم فعبأوا مائة ألف من مقاتليهم. ووجهوها لقتال المسلمين، الذين وصلتهم أخبار هذه الحشود فأقاموا يتبادلون الرأي بين المضي والرجوع أو الكتابة للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) إما أن يمدهم بالرجال أو يأمرهم بالرجوع، وكاد هذا الرأي يتغلب، إلاّ أن أحد قادة الجيش وهو عبد الله بن رواحة وقف فيهم:

ـــيا قوم.. والله انا لم نكن نقاتل الناس بعدد وكثرة بل نقاتل بهذا الدين الذي أكرمنا الله به فإنما هي إحدى الحسنيين إما ظهور على العدد وإما الشهادة.

كانت هذه الكلمات " كيمياء" الموقف التي قلبت نحاس الخوف إلى ذهب الإقدام، وهكذا وقف ثلاثة آلاف مقابل مائة ألف.

وبالرغم من أن نهاية المعركة لم تكن لصالح المسلمين، وهذا طبيعي إذ أنهم يواجهون ثلاثة وثلاثين ضعفاً، ومع حساب فارق التسليح والظروف الأخرى تزداد هذه النسبة.

والتحم الجيشان، وزيد بن حارثة يحمل الراية ويغوص في جيش الروم حتى يغيب لكن الراية ترفرف ويعود، وهكذا حتى قتل والراية لما تسقط فقد أخذها جعفر ابن أبي طالب، ونزل عن فرسه الشقراء وعقرها وأنشأ يقول:

ياحبذا الجنة واقترابها   طيبة وبارد شرابها
والروم روم قد دنا غذابها   كافرة بعيدة أنسابها
عليّ إن لاقيتها خرابها

وحمل على القوم كصاعقة راجلاً، فلا يتصل بأحد إلا نصّفه بسيفه حتى قطعت يمينه، وكان همه أن تبقى الراية خفّاقة، وإن سقطت يمناه، فأخذها بيساره، وقطعت فاحتضن الراية بزنديه المقطوعين إلى صدره، وحملوا عليه فقتل رضوان الله عليه.

* * *

وفي المدينة.. رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يتقدم إلى بيت جعفر في خطى وئيدة وآثار الحزن قد كست وجهه، وطرق الباب، ففتحت أسماء بنت عميس زوجة جعفر.

ـ أين بنو جعفر ؟! فجاءته بعبد الله وعون ومحمد، فأجلسهم في حجره وجعل يمسح على رؤوسهم ويبكي.

- يا رسول الله إنك تمسح على رؤوسهم كالأيتام فهل بلغك عن جعفر وأصحابه شيء ؟! .

- يا أسماء ألم تعلمي بأن جعفر قد استشهد ؟! .

و لم تسع محاجر العيون دمعة القلب، ففاضت، فقال لها:

ـ لا تبكي فإن الله أخبرني أن له جناحين في الجنة من ياقوت أحمر يطير بها مع الملائكة.

٣- عبد مناف بن عبد المطلب (أبو طالب)

العمر ٨٥ سنة

توفي بعد عشر سنوات من بعثة النبي (ص)

ولولا أبو طالب وابنه

لما مثل الدين شخصاً وقاما

فذاك بمكة آوى وحمى

وهذا بيثرب جَس الحما

وما ضرّ مجد أبي طالب

جهول لغا أو بصير تعامى

كما لا يضر إياب الصبا

ح من ظنّ ضوء النهار الظلاما

ابن أبي الحديد المعتزلي

مرّ الشتاء دون أن ترسل السماء قطرة من غيثها، وأجدبت الأرض فلا واحة إلاّ وأكل الجفاف رونقها وبهاءها، وهامت الدواب تبحث عن مرعى دون جدوى، وتوقع القرشيون الهلاك، فإن انتهى الشتاء على هذه الحال، فلا ضرع ولا زرع.

وجاؤوا إلى شيخ الأبطح..

ـ يا أبا طالب.. أقحط الوادي، وأجدب العيال فهلم واستسق.

كان من عادة قريش إذا أقحطوا توسلوا ببني هاشم، وخرج هذه المرة أبو طالب "ومعه غلام كأنه شمس تجلّت عنه سحابة قتماء وحوله أغيلمة، فأخذه أبو طالب فألصق ظهره بالكعبة ولاذ بإصبعه الغلام، وما في السماء قزعة ـأي قطعة سحاب ـفأقبل السحاب من هاهنا وها هنا وأغدق، واغدودق وانفجر له الوادي وأخصب البادي والنادي... "[٩].

---

[9] / الغدير ٧/ ٣٤٦.

كان ذلك للمرة الثانية في عرض أبي طالب لهذا الغلام ذي الشأن الكبير، وكان أبو طالب الــذي سمع من أبيه عبد المطلب أنه سيولد من نسله نبي من أنبياء الله العظام وأوصى بنيه بنصره يعلم أن هــذا الغلام ابن عبد الله أخيه هو النبي المنتظر، ولكنه كان يريد تعريف قريش به من خلال كراماته ومناقبه..

هاهو الركب المغادر إلى الشام للتجارة في رحلته السنوية على وشك الانطلاق،

وفيه أبو طالب، "ومحمد" ابن أخيه آخذ بزمام ناقته يطلب منه أن يرافقه: يا عم إلى من تكلــني لا أب لي ولا أم لي ؟! فرقّ له أبو طالب وقال: والله لأخرجن به معي ولا يفارقني ولا أفارقه أبداً.

فخرج به معه فلما نزل الركب "بصرى" من أرض الشام وبها راهب يقال له: بحيرا. في صومعة له وكان أعلم أهل النصرانية و لم يزل في تلك الصومعة، راهب إليه يصير

علمهم من كتاب فيهم كما يزعمونه يتوارثونه كائناً عن كائن فلما نزلوا ذلك العام ببحيرا وكانوا كثيراً ما يمرون عليه قبل ذلك فلا يكلمهم ولا يتعرض لهم حتى إذا كان ذلك العام نزلوا به قريباً من صومعته فصنع لهم طعاماً كثيراً وذلك فيما يزعمون عن شئ رآه وهو في صومعته من الركب حين أقبلوا، وغمامة تظلّه(صلى الله عليه وآله وسلم) من بين القوم ثم أقبلوا حتى نزلوا بظلّ شجرة قريبــاً منــه فنظــر إلى الغمامة حتى أظلت الشجرة وتهصرت (يعني تهدلت) أغصانها على رسول الله حتى استظل تحتها فلمــا رأى بحيرا ذلك نزل من صومعته وقد أمر أن يصنع لهم ذلك الطعام فصنع ثم أرسل إليهم فقال: إني قــد صنعت لكم طعاماً يا معشر قريش وأنا أحب أن تحضروا كلكم صغيركم وكبيركم وحرّكم وعبــدكم، فقال له رجل منهم: يا بحيرا إن لك اليوم لشأناً ما كنت تصنع هذا فيما مضى وقد كنا نمر بك كثيراُ فما شأنك اليوم؟! .

قال بحيرا: صدقت قد كان ما تقولون ولكنكم ضيوف فأحببت أن أكرمكم وأصنع لكم طعامــاً تأكلون منه كلكم. فاجتمعوا إليه وتخلف رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) من بين القوم لحداثــة سنه في رحال القوم تحت الشجرة فلما نظر بحيرا في القوم لم ير الصفة التي يعرفها وهي موجودة عنده، فقال:

ـ يا معشر قريش لا يتخلف أحد منكم عن طعامي هذا. فقالوا: ما تخلف عنك أحد ينبغــي أن يأتيك إلاّ غلام هو حدث القوم سناً تخلف في رحالهم.

قال: لا تفعلوا، ادعوه فليحضر هذا الطعام معكم.

فقال رجل من قريش: واللات والعزى إن لهذا اليوم نبأ، أيليق أن يتخلف ابن عبد الله عن الطعام من بيننا.. ثم قام إليه فاحتضنه ثم أقبل به حتى أجلسه مع القوم فلما رآه بحيرا جعل يلحظه لحظــاً شــديداً

وينظر إلى أشياء من جسده، قد كان يجدها عنده في صفته حتى إذا فرغ القوم من الطعام وتفرقوا قـــام بحيرا فقال له: يا غلام أسألك باللات والعزى إلاّ أخبرتني مما أسألك عنه.

فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): لا تسألني باللات والعزى شيئاً قط.

قال بحيرا: فبالله إلاّ ما أخبرتني عما أسألك عنه.. قال له (صلى الله عليه وآله وسلم):

سلني عما بدا لك. فجعل يسأله عن أشياء من نومه وهيئته وأموره ورسول الله يخبره فيوافق ذلك ما عند بحيرا من صفته ثم نظر إلى ظهره فرأى خاتم النبوة بين كتفيه على موضعه من صفته التي هي عنده.

كل ذلك وأبو طالب يرقب الموقف.. حيث أنشأ يقول:

أن ابن آمنة النبي محمد عندي يفوق منازل الأولاد

إلى آخر أبياته...

ويترل الأمين "جبرئيل" على رسول الله، وهو في غار "حراء" متوجاً بـــذلك سلـــسلة إخبـــارات وأصوات كان يسمعها الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) سابقاً و" يبعث" إلى الناس كافّة لإخراجهم من عبادة العباد و الأحجار إلى عبادة الله.

ويعرف الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) ماذا تعني الدعوة الجديدة بالنسبة لقريش إنهـــا تعـــني النسف الكامل لكل ما بنوه من مجد باطل، وعبادة زائفة، وتسلطوا على سائر القبائل مـــستفيدين مـــن وجودهم قرب بيت الله الحرام، ولذلك فقد كان بحاجة إلى قلب حان، وذراع قوية، يدفئه الأول وتحميه الثانية ويأتي إلى عمه العباس بن عبد المطلب:

ــ إن الله قد أمرني بإ ظهار أمري وقد أنبأني فما عندك ؟! قال الرسول لعمّه الذي أجابه:

ــ يا ابن أخي قريشاً أشد الناس حسداً لولد أبيك، وإن كانت هذه الخصلة كانت الطامـــة الطّمـــاء والداهية العظيمة ورمينا عن قوس واحد وانتسفونا نسفاً، ولكن قرّب إلى عمّك أبي طالب فإنـــه كـــان أكبر أعمامك، أن لا ينصرك، ولا يخذلك ولا يسلمك.

وهكذا لم يجد الرسول في عمه العباس قدرة الحماية والتصدي للدفاع عن دعوته، فاتجه (صـــلى الله عليه وآله وسلم) مع العباس إلى أبي طالب، فلما رآهما قال: إنك لكما تظنة وخبرا ما جاء بكما في هذا الوقت ؟! فعرّفه العباس ما جرى، فنظر أبو طالب إلى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وقال له :

ــ اخرج يا ابن أبي فأنك الرفيع كعباً والمنيع حزباً والأعلى أباً... والله لا يسلقك لسان إلاّ ســـلقته ألسن حداد واجتذبته سيوف حداد، والله لتذلنّ لك العرب ذلّ البهم لحاضنها، ولقد كـــان أبي يقـــرأ

الكتاب جميعاً ولقد قال: إن من صلبي لنبياً لوددت أني أدركت ذلك الزمان فآمنت به فمن أدركه مـــن ولدي فليؤمن به [10].

و وجد أبو طالب ما كان يبحث عنه، ذلك أنه وآباءه وهم يدينون بالحنيفية الإبراهيمية كانوا يقرؤون الكتب ويتوارثون العلم عن النبي المنتظر الذي ستذلّ له العرب، ويتواصون بالإيمان به والفداء في نصرته إن أدركوه، وهكذا يمرّ جيل وآخر حتى كان هذا اللقاء، وأكّد لأبي طالب صحة ما قد توسّمه في ابـــن أخيه...

ولـــــــكن .....

إنه يقف أمام منعطف خطر، وعليه أن يستخدم أقصى ما يملكه من ذكاء، بحيث يخفي عقيدته وإيمانه لكي يستطيع أن يبقى في موقع " شيخ الأبطح" وسيد قريش.

ومن خلال ذلك يقوم بحماية الرسول والمؤمنين به دون أن يكون موقع التهمة، ويحتاج من يمارس هذا الدور إلى نفس صلبة وعقيدة راسخة تماماً كمؤمن آل فرعون، وكأهل الكهف الـــذين " أســـرّوا الإيمان وأظهروا الشرك فآتاهم الله أجرهم وأن أبا طالب أسرّ الإيمان وأظهر الـــشرك فآتـــاه الله أجـــره مرتين"[11]

ومارس أبو طالب هذا الدور بكل دقة واتقان.. ولو كان قد أعلن إيمانه منذ البدء لم يكن يستطيع ذلك.

لقد ألقي عليه هذا القول الثقيل والمسؤولية الكبرى، في حفظ صاحب الرسالة، خصوصاً وأن قريشاً التي لم تشهد تحدّياً كهذا كانت قد عقدت العزم الأكيد على تصفية وجود النبي واغتياله، وكما عقدت قريش عزمها على قتل الرسول، فقد عقد أبو طالب ميثاقاً مع الله أن يدفع عن رسوله، فادياً في ذلـــك نفسه وأولاده، قائلاً:

كذبتم وبيت الله يبزى محمد ... ولما نطاعن دونه ونناضـــــل
ونسلمه حتى نصرّع حولـــه ... ونذهل عن أبنائنا والحلائـــل
ألم تعلموا أن ابننا لا مكذب ... لدينا ولانعبأ بقول الأباطـــــل

10 / الغدير عن نهاية الطلب والسؤال في مناقب آل الرسول.

11 / الإمام الصادق عليه السلام.

ولذلك كان أكثر ما يخاف البيات (الاغتيال ليلاً) فكان إذا عرف مضجعه، يقيمه بعد أن يـــذهب من الليل هزيع، ويضجع ابنه عليّاً (عليه السلام) مكانه، فقال علي له ليلة: يا أبت إني مقتول !! .

فقال له أبوه:

اصبرن يابني فالصــــبر أحـــجى كل حي مصيره لشعــــوب

قد بذلناك والــــــبلاء شـــديد لفداء الحبيب وابن الحبـــيب

لفداء الأغر ذي الحسب الـــثا قب والباع الكريم النجـــيب

إن تصبك المنون فالنبل تبرى فمصيب منها وغير مصيـــب

فأجابه علي (عليه السلام):

أتأمرني بالصبر في نصـــــر أحـــــمد والله ماقلت الذي قـــــلت جازعـــاً

ولكننــــي أحببت أن تــــر نصـــرتي وتعلـــــم أني لم أزل لك طــــائعاً

سأسعى لوجـــــــه الله في نصر أحمد بني الهدى المحمود منها طفلاً ويافعاً [12]

و لم يكن يتوقع ذلك خفياً على قريش، لذلك كان كل واحد منهم يفكر في ردّ الفعل المتوقع من أبي طالب لو وصل إلى الرسول أذى وسوء، فهاهو أبو طالب لايفتأ يذكر نصرته للرسول وذبّه عنه، ودعوة أبنائه للدفاع عنه وسائر الناس للإيمان به، وهو وإن لم يشأ إظهار إيمانه لما تقدم، إلاّ أنه لا يترك موقفـــاً يبين لقريش قوة محمد (صلى الله وآله وسلم) به، إلاّ وأظهره، ولا أظهر من موقفه من زعماء قـــريش عندما تآمروا عليه قائلين: وما خير من أن نغتال محمداً.. فلما كان مساء تلك الليلة فقد رســـول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وجاء أبو طالب وعمومته إلى منزله فلم يجدوه فجمع فتياناً من بني هاشم وبني عبد المطلب ثم قال: ليأخذ كل واحد منكم حديدة صارمة ثم ليتبعني إذا دخل المـــسجد فلـــيجلس إلى عظيم من عظمائهم، فيهم ابن الحنظلية(يعني أبا جهل) فإنه لم يغب عن شر إن كان محمد قد قتل، فقال الفتيان: نفعل فجاء زيد بن حارثة فوجد أبا طالب على تلك الحالة. فقال له:

ــ يا زيد أحسست ابن آخي ؟! قال زيد: نعم كنت معه آنفاً.

فقال أبو طالب:– لا أدخل بيتي حتى أراه، فخرج زيد سريعاً حتى أتى رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وهو في بيت عند الصفا ومعه أصحابه يتحدثون، فأخبره الخبر فجاء رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) إلى أبي طالب، فقال له:

ــ يا ابن أخي أين كنت؟! أكنت في خير؟! فأجابه: نعم، فقال له: – ادخل بيتك.

---

[12] / الغدير

فدخل الرسول(صلى الله عليه وآله وسلم) فلما أصبح أبو طالب غدا على النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فأخذ بيده على أندية قريش ومعه الفتيان والمطلبيون فقال:

ـ يا معشر قريش ! هل تدرون ما هممت به؟! قالوا: لا .

فأخبرهم الخبر، وقال للفتيان: اكشفوا عمّا في أيديكم، فكشفوا فإذا كل رجل منهم معه حديدة صارمة، فقال لهم: لو قتلتموه ما بقيت منكم أحداً حتى نتفانى نحن وأنتم. فانكسر القوم وكان أشدهم انكساراً أبو جهل .

وبقدر ما هبطت الذلة رؤوس زعماء قريش، فقد مضى أبو طالب بالنبي(صلى الله عليه وآله وسلم) عزيز الجانب، مرفوع الهامة وهو يقول:

اذهب بني فما عليك غضاضة	اذهب وقر بذاك منك عيونا
والله لن يصلوا إليك بجمعهم	حتى أوسد في التراب دفينا
ودعوتني وعلمت أنك ناصحي	ولقد صدقت وكنت قبل أمينا
وذكرت ديناً لا محالة أنه	من خير أديان البرية دينا

ولما رأت قريش أن الرسول في حصن منيع من القتل، وأنه لا يتم لهم ذلك مادام أبو طالب موجوداً، فتحولوا إلى طريق آخر وهو تصفية الشخصية والاغتيال الاجتماعي، عبر زيادة وتيرة الاستهزاء والسخرية، والإسقاط فكان طريقه(صلى الله عليه وآله وسلم) يمتلئ بالأشواك والحجارة، وبيته المجاور لبيت أبي لهب مكاناً كان هدفاً للأوساخ ولم يكن وحده في ذلك بل تساعده في ذلك (امرأته حمّالة الحطب). ولم يكن دور أبي طالب في هذا الصعيد أقل من سابقه.

وفي المسجد الحرام، وحيث يصلي رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، جلس أبو جهل ومعه عدد من القرشيين، فلما دخل النبي في الصلاة، قال أبو جهل:

ـ من يقوم إلى هذا الرجل فيفسد عليه صلاته؟ فقام ابن الزبعرى فأخذ فرثاً ودماً فلطّخ به وجه النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، فانفتل النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) من صلاته، ثم أتى عمه أبا طالب:

ـ يا عم ألا ترى ما فعل بي؟! .

ـ من فعل بك هذا؟! سأله عمه.

ـ عبد الله بن الزبعرى.

وانتهضت في أبي طالب حمية الدين الهاشميّة، وقام حاملاً سيفه على عاتقه ومشى معه، حتى أتى القوم، فلما رأوه قد أقبل جعلوا ينهضون، فقال لهم:

ـ والله لئن قام رجل جلّلته بسيفي.

فقعدوا حتى دنا إليهم، وقال (للنبي): يا بني من الفاعل بك هذا؟! .

فقال: عبدالله بن الزبعرى.. فأخذ أبو طالب فرثاً ودماً فلطّخ به وجوههم ولحاهم وثيابهم وأساء لهم القول..

ولك أن تتصور عزيزي القارئ" سادة" قريش وقد رجع كل واحد منهم إلى مترله وقد تخضبت لحيته، وتلطخت ثيابه من الدماء الفاسدة.

وإذ يؤمن حمزة أخوه برسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، يقوى جانب الرسول فيسر ذلك أبـا طالب، ويمرّ على أخيه مشجعاً إياه على الالتزام بدين الرسول، وإظهار ذلك، وإشهاره أمام الناس قائلاً له:

فصبراً أبا يعلى على دين أحمد وكن مظهراً للدين وفقت صـابراً

وحط من أتى بالحق من عند ربه بصدق وعزم لا تكن حمزُ كـافرا

فقد سرني إذ قلت أنك مؤمن فكن لرسول الله في الله ناصراً

وباد قريشاً بالذي قد أتيته جهاراً وقل: ما كان أحمد ساحراً[١٣]

وأطلقت قريش آخر سهم في كنانتها، المساومة، بعد أن فشلت المناوأة..

ــ يا أبا طالب هذا عمارة بن الوليد أنهد فتى في قريش وأجمله فخذه فلك عقله ونصره واتخذه ولداً فهولك، وأسلم إلينا ابن أخيك هذا الذي قد خالفك دينك [١٤] ودين آبائك. وفرّق جماعة قومك وسنة أحلامهم، فنقتله فإنما هو رجل برجل.

كان بريق النجاح يطلّ من عيون القادمين إلى أبي طالب وهي تلتقي، فما هي إلاّ ساعة من النـهار حتى يحتفلوا بنخب قتل الرسول، إذ لم يكن يخالجهم أدنى شك في سرعة قبول أبي طالب.

جواب أبي طالب كان صفعة عنيفة لخيالاتهم، وهدماً لهيكل أمانيهم:

والله لبئس ما تسومونني !! أتعطونني ابنكم اغذوه لكم وأعطيكم ابني تقتلونه ؟ هذا والله مالا يكون أبداً !.

---

13 / المصدر عن أسد الغابة.

14 / يظهر من هذه الجملة الأداء الرائع من قبل أبي طالب لدوره المتمثل في إخفاء الإيمان وإظهار الشرك، بحيث لم يـشكوا في خلاف النبي لمعتقدات أبي طالب.

وكان نتيجة ذلك المقاطعة الاقتصادية والاجتماعية الشاملة فقد اجتمعت قريش على أن يكتبوا كتاباً يتعاقدون فيه على بني هاشم وبني المطلب: أن لاينكحوا إليهم ولا يبيعوا منهم شيئاً ولا يتبايعوا ولا يقبلوا منهم صلحاً أبداً ولا تأخذهم بهم رأفة حتى يسلموا رسول الله للقتل. ويخلوا بينهم وبينه .

وهكذا غدا شيخ الأبطح سجين الشِّعب يشرب الماء الآسن ويأكل ورق الشجر _ تمرّ الأيام والحصار يشتد يوماً بعد يوم، والجوع يفتك بالصبية، والصيف والعطش يجهد الكبار، وما كان يرسله بعض القرشيين من المنصفين في جوف الليل من جمال محملة بالطعام لم يكن ليسد جوع الأفواه ولا يروي غليل عطشها، وأبو طالب يتحمل ذلك كله في سبيل الدفاع عن دين الله وحياطة رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ولا يزداد في اللأواء إلاّ بصيرة في دينه.

وكان يوم..

يقبل فيه الرسول على أبي طالب، و ليسر إليه من بين الجمع بكلمات، فيبتسم أبو طالب:

_ يا ابن أخي ! أربك أخبرك بهذا ؟! .

_ نعم. قال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم).

_ والثواقب ما كذبتني قط.

* * *

تهامس القرشيون، وسكروا بخمرة "وهم الانتصار" فما الذي جاء بأبي طالب ومعه الهاشميون، وقد بانت آثار الحصار على سمرة وجوههم، وضعف أبدانهم، وثيابهم أيضاً.. بينما رقّ غيرهم لحال أبي طالب، ذلك الذي كان أعز قريش، وشيخ أبطحها أيصير به التزامه بابن أخيه إلى هذا الحد من الجهد والبلاء؟!.

نعم.. ها قد جاء أبو طالب إلى المسجد:-

_ يا معشر قريش..

جرت بيننا وبينكم أمور لم تذكر في صحيفتكم فأتوا بها لعلّ أن يكون بيننا وبينكم صلح.. (لقد قال ذلك خشية أن ينظروا فيها قبل أن يأتوا بها فتفشل المهمة). وهكذا أتوا بها وهم لا يشكون أن أبا طالب يدفع إليهم النبي (صلى الله عليه وآله وسلم).. ووضعوها بينهم، وقالوا لأبي طالب :

_ قد آن لكم أن ترجعوا عما أحدثتم علينا وعلى أنفسكم !! فأجابهم:

_ أتيتكم في أمر هو نصف بيننا وبينكم.. أن ابن أخي أخبرني و لم يكذبني: أن الله قد بعث على صحيفتكم دابة فلم تترك فيها إلاّ اسم الله فقط، فإن كان كما يقول فأفيقوا عما أنتم عليه فوالله لا نسلمه حتى نموت من عند آخرنا، وإن كان باطلاً دفعناه إليكم فقتلتم أو استحييتم فقالوا _ بأجمعهم _: رضينا !! .

وفتحت الصحيفة فإذا بها قد أكلتها الأرضة من أولها إلى آخرها باستثناء اسم الله سبحانه وتعالى.

وبهذا خرجوا من الحصار وبان لمن كان له قلب صدق نبوة الرسول، وأرخ أبو طالب تلك الحادثة في قصيدته الدالية التي جاء فيها:

ألا إن خير الناس نفساً ووالداً — إذا عد سادات البرية أحمد

نبي الإله والكريم بأصـــله — وأخلاقه وهو الرشيد المؤيد

وخرج الجمع من ذلك الحصار، وكانت إرادة الله أن تختم حياة شيخ المؤمنين الحافلة بالفـــضائل، بفضيلة من هذا النوع، بعد أن بلغ به العمر أقصاه في خدمة النبي وأتباعه والدفاع عنه.

وهاهو أبو طالب مسجى على فراش الموت يلقي بعينيه لمن حوله من القرشيين موصياً بنصر الـــنبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، مستشرفاً أبعاد المستقبل حيث سيسخر الله لنصرة ابن أخيـــه مـــن ينـــهي أسطورة قريش وينشر الدين لا في أرض العرب بل لكل الناس، ويبين أن سبب عدم إظهاره إيمانه خوفه الشنآن، والتزامه التقية..

... وإني أوصيكم بمحمد خيراً فإنه الأمين في قريش والصديق في العرب، وهو الجامع لكـــل مـــا أوصيتكم به، وقد جاءنا بأمر قبله الجنان، وأنكره اللسان مخافة الشنآن، وأيم الله كأني أنظر إلى صعاليك العرب وأهل الأطراف والمستضعفين من الناس قد أجابوا دعوته وصدقوا كلمته، وعظموا أمره فخـــاض بهم غمرات الموت وصارت رؤساء قريش وصناديدها أذناباً، ودورها خراباً وضـــعفاؤها أربابـــاً، وإذا أعظمهم عليه أحوجهم إليه، وأبعدهم منه أحظاهم عنده، قد محضته العرب ودادها، وأصفت له فؤادها وأعطته قيادها.

دونكم يا معشر قريش! ابن أبيكم كونوا له ولاة ولحزبه حماة والله لا يسلك أحد سبيله إلاّ رشد ولا يأخذ أحد بهديه إلاّ سعد، ولو كان لنفسي مدة في أجلي تأخير لكففت عنه الهزاهز ولدفعت عنـــه الدواهي.

وأدار عينه في بني عبد المطلب، وأوصاهم بطاعة الرسول واتباعه.. على الخصوص..

ـــلن تزالوا بخير ما سمعتم من محمد وما اتبعتم أمره فاتبعوه وأعينوه ترشدوا..

وهكذا فكما كان حفظ محمد واتباعه رفيق حياة أبي طالب فقد كان ذكر " محمـــد" واســـم " محمد " ودين "محمد " آخر لفظة من الدنيا، وأطبقت عينا مؤمن قريش.

ونزل الوحي على رسول الله لكي يهاجر تاركاً مكة فلم يعد له بها ناصر بعد أبي طالب.

٤- حذيفة بن جابر (اليمان) العنسي
توفي سنة ٣٦

" ذلك الذي علم المفصلات والمعضلات وإن تسألوه عن المنافقين تجدوه بهم عليماً "

الإمام علي بن أبي طالب (ع)

اختلط المقاتلون، وتداخلت الصفوف، وثار الغبار، بحيث لم يعد بالإمكان التمييز إلاّ بصعوبة. وكان هم كل مقاتل أن يدافع عن نفسه بقتل من يواجهه. و لم تكن هناك علامات كافية لتمييز المسلمين عن غيرهم من الكفّار أثناء المعركة. و كان حذيفة بن اليمان ينتقل في خفّة و حماس مدرعاً بقوة قلبه، قابضاً على سيفه، وهو يسابق سواه من المسلمين في قتل الأعداء..

ساعة إذ التفت ، و خفق قلبه. و تجمد في مكانه.. أترى ذلك الرجل الذي تتبعه سيوف المسلمين متعطشة لدمه.. يكون أباه"جابر بن حسيل"؟! القامة و الشبه كبير..نعم .. إنه بعينه..لكن ما بال تلك السيوف المسلمة تلاحقه؟!.

صاح بكل ما يملك من صوت:

- أيها المسلمون.. إنه أبي جابر.. إته أبي.. إنه أبي..

و لكن السيوف كانت أسرع من الكلمات، فقد ضاعت هذه بين صليل السيوف و حشرجات المحتضرين و صهيل الخيول.

و هوى والد حذيفة صريعاً بيد المسلمين خطأً.. و كانت ندامة من قتله تساوي حزن حذيفة على أبيه..

و بينما وجد من المسلمين من قتل قاتل أبيه –في الجاهلية- ثأراً.. كما فعل الحارث بن سويد في يوم أحد، إذ قتل المجذر و كلاهما من المسلمين، قتل الأول الثاني غدراً في المعركة،لأنّ الثاني قتل أب الأول في الجاهلية، و جاء هذا بقيم الجاهليّة ليقتص من أخيه المسلم(!!).

وجدنا حذيفة يغالب دمعه و يقاوم حزنه و يقول. مخاطبا من قتل أباه المسلم خطأً-:

- يغفر الله لكم و هو أرحم الراحمين..

و يبلغ رسول الله صلى الله عليه و آله و سلّم نبأ الحادثة فيكبر فيه هذه الروح المؤمنة و يأمر بدفع الدية لحذيفة، فيتصدق بها هذا على المسلمين.

و يكشف هذا الموقف- و غيره فيما بعد- عن عقيق الإيمان اليماني الخالص الذي يملكه حذيفة. و هكذا اختص برسوله ليكون صاحب سره و العليم بأسماء المنافقين و الواعي بدور الطابور الخامس. بل و منفذ العمليات الخاصة.

ففي غزوة الخندق، و بعد أن جمعت قريش من الخف و الكراع ما استطاعت للقضاء على دعـــوة الإسلام، و استعانت باليهود الذين هم (أشد الناس عداوة للذين آمنوا).. و في أبلغ تعبير تتحدث الآيات القرآنية الكريمة مصوّرة الموقف السائد آنئذ: (**إذ جاؤوكم من فوقكم و من أسفل منكم و إذ زاغت الأبصار و بلغت القلوب الحناجر و تظنون بالله الظنونا * هنالك ابتلى المؤمنون و زلزلوا زلزالا شديدا**)

و بالرغم من أن قتل علي بن أبي طالب لعمرو بن ود العامري بضربة هي أفضل من عبادة الثقلين قـــد حسم المعركة معنويا لصالح المسلمين، إلاّ أنّ بقاء مصدر هذا العدد الكبير من المقاتلين الكفـــار كـــان يشكل مصدر خطر على المدينة و مسلميها فرأى النبي أن يتعرف حال معسكر الكفّار، و نقاط ضعفهم. و لابد من التسلل إليهم.. و لكن من يقوم بهذه المهمّة الشجاعة؟!.

نادى الرسول رجالاً. فاعتذروا بالاستغفار(!) فنادى حذيفة:

ـــ ائت هؤلاء القوم حتى تأتينا بخبرهم و لا تحدثن حدثاً حتى ترجع.. و أضاف الرسول صلّى الله عليه و آله و سلّم" اللهم احفظه من بين يديه و من خلفه و عن يمينه و عن شماله و من فوقه و من تحته حـــتى يرجع.." و انطلق حذيفة الذي رأى أن هذا الدعاء من الرسول في حقه أفضل من الدنيا و ما فيهـــا إلى معسكر الكفّار.

" و أتيت القوم فإذا ريح الله و جنوده تفعل بهم ما تفعل ما يستمسك لهم بناء و لا يثبت لهم نـــار و لا يطمئن لهم قدر فإني كذلك إذ خرج أبو سفيان من رحله ثم قال :

ـــ يا معشر قريش لينظر أحدكم من جليسه، فبدأت بالذي عن يميني فقلت: من أنت قال أنا فلان .. ثم عاد أبو سفيان لراحلته، فقال: يا معشر قريش و الله ما أنتم بمقدار مقام هلك الخف و الحافر و أخلفتنا بنو قريظة و هذه الريح لا يستمسك لنل معها شيء.. ثم عجل فركب راحلته و إنها لمعقولة مـــا حـــلّ عقالها إلا بعد ما ركبها، فقلت في نفسي لو رميت عدوّ الله فقتلته كنت صنعت شيئاً، فوترت قوسي ثم وضعت السهم في كبد القوس و أنا أريد أن أرميه فذكرت قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لا تحدثن شيئا حتى ترجع فحططت القوس ثم رجعت إلى رسول الله....."[١٥]

---

[15] / سفينة البحار ٢٣٧/١.

و هكذا كان في مواقف الرسول و معاركه سياقاً إلى كل خير و مبادراً إلى كل خطب جليل.
و عرف حذيفة أن حول الرسول صلى الله عليه وآله و سلّم منافقين، و خطوطاً مائلة عن هدى الرسول، و إذا كان من الصعب تمييز و معرفة المنافقين ، فإن الأصعب معرفة الخطوط المائلة، ذلك أن هؤلاء يلبسون ثوب الصحبة،و يرتدون عباءة الدين،و يحضرون الصلاة في الصفوف الأولى، و يطيلون اللحى و تنطلي مظاهرهم هذه على الكثير من البسطاء و السذّج،و هؤلاء لا ينتظرون شيئاً في حياة الرسول و إنما يزرعون كل هذه المظاهر ليحصدوا ثمارها بعد رحيله، و لذلك فهم يحافظون كثيراً على حياتهم و لا يعرضون أنفسهم للخطر و إذا ما اضطرتهم الظروف للاشتراك في الحرب، فهم عادة في الصفوف الخلفية، و تبحث -عبثاً- في صفحات السيرة و التاريخ عن مواقف شجاعة،أو بطولة في حرب أو غزوة ، فلا تجد ،فيضطر من بعدهم إلى التكلف في التفسير و يتعبون أنفسهم في التحليل، عاصرين الكلمات —لا المواقف- ليكتشفوا الشجاعة!!.
لقد عرف حذيفة هؤلاء، ولكن لم يكن مأذونا في كشفهم على الملأ حيطة على الإسلام و حفاظاً على كيانه ، و لكنه،و إن لم يستطع كشف تلك الخطوط المنافقة فإنه لم يقصر في الدعوة إلى الخط الأصيل و قائده أمير المؤمنين علي عليه السلام،و هو بهذا يفضح بطريقة غير مباشرة الخطوط الأخرى.
و فيما انشغل هؤلاء بعد الرسول صلى الله عليه و آله و سلّم في جمع الغنائم و حصاد الزرع، عاتذ علي عليه السلام — و أصحابه-" و في العين قذى و في الحلق شجى" و كان الخيار بين أن يصول حيث تدور الدائرة على دين الرسول آخر الأمر ، و بين الصبر و التصحيح لما أمكن و لذلك كان في موقع المشير تارة و الناصح أخرى، و كان أصحابه و هم صفوة أصحاب الرسول صلى الله عليه و آله و سلم يعصرون في طاحونة الحروب و غيرهم يدّهن في الترف.
و هكذا خاض حذيفة حروب المسلمين في العراق، و همدان، والري، و الدينور، و نهاوند،حيث كان القائد الثاني للجيش بعد شهادة النعمان بن مقرن.
و لّما تولّى المدائن.. و أتت إليه إمارتها،و لم يسع إليها كما يتهالك غيره على إمارة قرية، جاء إليها يسبقه نور إيمانه، و زهده دليل على منهجه، جاء راكبا حماراً عليه برذعة قديمة، و كان غيره من الولاة يأتون في الخيول المطهمة تسبقهم الألوية و المواكب، و تستقبلهم الزينات و أقواس النصر(!).
و فيما الناس واقفون سماطين ينتظرون طليعة الموكب الأميري،لينظروا من خلال موكبه و زينته مدى "شخصيته" و "أهميته"، إذ طلع عليهم حذيفة وحيداً على حماره، يشق الطريق..و الناس يتساءلون:

ـأين الأمير!! لقد تأخر موكبه..

ـأما الأمير فلا أعلم و أما حذيفة بن اليمان فأنا.

و تعجب الواقفون.. أهكذا يبلغ بأصحابه الزهد؟!.

"إياكم و مواقف الفتن!"..افتتح حذيفة عهده معهم بهذه الكلمات.سألوه : و ما مواقف الفتن يا أبا عبد الله؟!.

ـأبواب الأمراء..يدخل أحدكم على الأمير أو الوالي فيصدقه بالكذب و يمتدحه بما ليس فيه..

و بدأ حذيفة حاكماً، على المدائن، يسكن في كوخ و لا يأخذ من بيت المال إلاّ مقدار قوت يومه و علف دابته..فيما كان آل أبي العاص-فيما بعد و أيام الخليفة الثالث-يرتعون في بستان قريش،متخذين مال الله دولاً و عباده خولاً..

و لم يتوقف حذيفة عن الدعوة لخط أهل البيت و سيدهم علي أمير المؤمنين عليه السلام فقد تحول إلى محور للولاء ، يجتمع حوله أنصار هذا الخط،و لم يكونوا يستطيعون الحصول على أفضل من حذيفة ذلك الذي "عرف أسماء المنافقين" أعداء علي، فقد جاء ربيعة السعدي إليه يوماً و قال:

ـيا أبا عبد الله إنا لنتحدث عن علي و مناقبه فيقول لنا أهل البصرة إنكم تفرطون في علي.. فهل أنت محدثي بحديث فيه؟!.

أجابه حذيفة: يا ربيعة و ما تسألني عن علي فو الذي نفسي بيده لو وضع جميع أعمال أصحاب محمد في كفة الميزان منذ بعث محمد صلى الله عليه وآله و سلم إلى يوم القيامة و ضع عمل علي في الكفة الأخرى لرجح عمل علي على جميع أعمالهم.

فقال ربيعة: هذا الذي لا يقام له و لا يقعد و لا يحمل!!.

قال حذيفة: يا لكع و كيف لا يحمل؟! و أبن كان أبو بكر و عمر و حذيفة(يعني نفسه) و جميع أصحاب محمّد صلى الله عليه و آله و سلّم يوم عمرو بن عبد ودّ و قد دعا إلى المبارزة فأحجم الناس كلهم ماخلا علي عليه السلام فإنّه برز إليه و قتله الله على يده؟ و الذي نفس حذيفة بيده لعمله في ذلك اليوم أعظم أجراً من عمل أصحاب محمد صلى الله عليه و آله و سلم إلى يوم القيامة [١٦].

و لم يكن حذيفة و هو في المدائن غائبا عن مسرح السياسة حيث كانت المدينة المنورة تهتز على إيقاع المعارضة التي رفدها الثوار المسلمون من سائر البلاد. كان يتابع و يتصل، و يخبر الناس بتجاوزات

---

[16] / بحار الأنوار ٢٠/ ٢٥٧

الحكم، و عندما ينفى أبو ذر الغفاري على يد الخليفة من مدينة الرسول إلى صحراء الربذة يرسل لحذيفة رسالة يخبره بما صنع به، لأنّه يستريح إلى الانفتاح عليه:

بسم الله الرحمن الرحيم:أما بعد.. يا أخي فخف الله مخافة يكثر منها بكاء عينيك و سهر ليلك و انصب بدنك في طاعة ربك فحق لمن علم أن النار مثوى من سخط الله عليه أن يطول بكاؤه و نصبه و سـهر ليله حتى يعلم أنه قد رضي عنه، و حق لمن علم أن الجنة مثوى من رضي الله عنه أن يستقبل الحق كـي يفوز بها و ستصغر في ذات الله و الخروج من أهله و ماله و قيام ليله و صيام نهاره و جهـاد الظـالمين الملحدين بيده و لسانه حتى يعلم أنّ الله أوجبها له، و ليس العالم ذلك دون لقاء ربّه و كـذلك ينبغـي لكل من رغب في جوار الله و مرافقة أنبيائه.. يا أخي أنت ممن استريح إلى التصريح إليه ببثي و حزني و أشكو إليه تظاهر الظالمين عليّ..إنّي رأيت الجور يصل به بعيني و سمعته يقال فرددته، فحرمت العطاء و سرت إلى البلاد و غربت عن العشيرة و الإخوان و حرم الرسول صلى الله عليه و آله و سلم و أعـوذ بربي العظيم أن يكون هذا مني له شكوى،إن ركب مني راكب،بل أنبأتك أني قد رضيت ما أحـب لي ربي و قضاه عليّ و أفضيت ذلك إليك لتدعو الله لي و لعامة المسلمين بالروح و الفرج و بما هو أعم نفعاً و خير مغبة و عقبى.. و السلام.

عندما وصل الكتاب إلى حذيفة، كتب جواباً له:

بسم الله الرحمن الرحيم..فقد بلغني كتابك تخوفني به و تحذرني فيه منقلبي و تحثني فيه على حظ نفـسي فقديماً يا أخي كنت بي و بالمؤمنين حفيّاً لطيفاً و عليهم حدباً شفيقاً و لهم بالمعروف آمراً و عن المنكـر ناهياً و ليس يهدي إلى رضوان الله إلاّ هو لا إله إلا هو و لا يتناهى من سخطه إلاّ بفضل رحمته و عظيم منّه فنسأل الله ربنا لأنفسنا و خاصتنا و عامتنا و جماعة أمتنا مغفرة عامة و رحمة واسعة، و قد فهمت ما ذكرت من تسييرك يا أخي و تغريبك و تطريدك فعز و الله يا أخي ما وصل إليك من مكروه و لو كان يفتدى ذلك بمال لأعطيت فيه مالي طيبة بذلك نفسي يصرف الله عنك بذلك المكروه، و الله لو سألت المواساة لك ثم أعطيتها لأصببت احتمال شطر ممّا نزل بك من الفقـر و الأذى و الـضرر،لكنّه لـيس لأنفسنا إلاّ ما شاء ربنا يا أخي فافزع بنا إلى ربنا و لنجعل إليه رغبتنا فإنه قد استحـصدنا و اقتـرب الصرام..[١٧]

و لم يكن حذيفة يخفي موقفه المعارض لخلافة الخليفة الثالث،و سيطرة البطانة الأموية علـى مقـدرات الأمة،ذلك أنه يرى أن هذه الفئة التي كانت تخفي نفاقها في السابق أيام رسول الله صلى الله عليه و آله و

[17] / بحار الأنوار٢٢/٤٠٩

سلم أصبحت اليوم هي الظاهرة و غيرها من المؤمنين المخلــصين هـــم المطـــرودون و المـــشرّدون و المقمعون!!.

و كان لابد لتلك الضغوط أن تنتج الانفجار، و بالفعل فقد تجمع الثائرون من كل صوب، و فيما كان أمير المؤمنين علي عليه السلام يحاول الإصلاح بأقل الخسائر كان مروان بن الحكم طريد الرسول صـــلى الله عليه و آله و سلم الذي عاد إلى المدينة –بأمر الخليفة- و أصبح رئيس وزراء الخليفـــة و المتـــصرف العام، كان يدفع الأمور باتجاه الحسم و تصفية الثوار تصفية عامّة!!الأمر الذي دفع بالحدث أقصى نهايته و اقتحم الثائرون قصر الخليفة و قتلوه..

و جاءت الناس كهيم عطاش ظمئت زماناً إلى مورد علي بن أبي طالب عليه السلام، و تـــداكت عليه طالبة قيامه بالأمر بعد أن أزيح عنه هذه الفترة الطويلة.. و هكذا كان،فلم يكن هذا الأمر يـــصلح إلا له، إذ لا فتى سواه وبدأ عمله باستئصال السرطانات الخبيثة التي زرعت في جسد الأمة خلال الفترة المنصرمة، على شكل ولاة ظلمة، وقوانين جائرة وأموال مصادرة.. فيما ثبّت الـــولاة الأكفّـــاء.. وفي طليعتهم حذيفة بن اليمان فقد كتب إليه بعهده، وإلى أهل المدائن وأمره بقراءته عليهم.

بسم أدثه الرحمن الرحيم.. من عبد الله علي أمير المؤمنين إلى من بلغه كتابي هذا من المـــسلمين.. سلام عليكم فإني أحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو وأسأله أن يصلي على محمد وآله..

فأما بعد فإن الله تعالى اختار الإسلام ديناً لنفسه وملائكته ورسله أحكاما لصنعه وحسن تـــدبيره ونظرا منه لعباده وخص به من أحب من خلقه فبعث إليهم محمدا صلى الله عليه و آله و سلم فعلمهـــم الكتاب والحكمة إكراما وتفضيلا لهذه الأمة وأدبهم لكي يهتدوا وجمعهم لئلا يتفرقوا ووقفهم لئلا يجوروا فلما قضى ما كان عليه من ذلك مضى إلى رحمة الله به حميداً محموداً، ثم إن بعض المسلمين أقاموا بعده رجلين رضوا بهداهما وسيرتهما فأقاما ما شاء الله ثم توفاهما الله عز وجل ثم ولوا بعدهما الثالث فأحـــدث أحداثاً ووجدت عليه الأمة فعالاً فاتفقوا عليه ثم نقموا منه فغيروا ثم جاؤوني كتتابع الخيل فبايعوني فإني أستهدي الله بهداه وأستعينه على التقوى، ألا وإن لكم علينا العمل بكتاب الله وسنة نبيه عليه الـــسلام والقيام عليكم بحقه و إحياء سنته والنصح لكم بالمغيب والمشهد وبالله نستعين على ذلك وهو حـــسبنا ونعم الوكيل. وقد وليت أموركم حذيفة بن اليمان وهو من أرتضي بهداه وأرجو صلاحه وقد أمرتـــه بالإحسان إلى محسنكم والشدة على مريبكم والرفق بجميعكم أسأل الله لنا ولكم حسن الخيرة والإحسان ورحمة الله الواسعة في الدنيا والآخرة.. و السلام.

كان هذا الكتاب على اختصاره- نظرة تحليلية على أحداث الأمة خلال خمسة وثلاثين عاماً، بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه و آله و سلّم . وبالرغم من أن حذيفة كان في أواخر أيام حياته إذ أنـــه

توفي بعد أربعين يوماً من خلافة أمير المؤمنين، وكان مريضاً، إلا أن الحدث قد بعث فيه الروح والنشاط فها هو يرى عودة الأمور إلى نصابها، قبل أن يموت.. فقام في الناس خطيباً:

- الحمد لله الذي أحيا الحق وأمات الباطل وجاء العدل ودحض الجور وكبت الظالمين.

أيها الناس.. إنما وليكم الله ورسوله وأمير المؤمنين حقاً حقاً وخير من نعلمه بعد نبينا صـــلى الله عليه و آله و سلم وأولى الناس بالناس وأحقهم بالأمر وأقربهم إلى الصدق وأرشدهم إلى العدل وأهداهم سبيلاً وأدناهم إلى الله وسيلة وأمسهم برسول الله رحماً.

أنيبوا إلى طاعة أول الناس سلماً وأكثرهم علماً وأقصدهم طريقة وأسبقهم إيماناً وأحسنهم يقينـــاً وأكثرهم معروفاً وأقدمهم جهاداً وأعزهم مقاماً أخي رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم وابن عمــه وأبي الحسن والحسين وزوج الزهراء البتول سيدة نساء العالمين، فقوموا أيها الناس فبايعوا على كتاب الله وسنة نبيه فإن لله في ذلك رضى ولكم مقنع وصلاح، والسلام..

وقام الناس فبايعوا بأجمعهم..

و لم يبق أمام حذيفة بعد أن رأى حياة الحق وموت الباطل وقدوم العدل، ما ينتظره. فيكفيه هــذا المجد الذي سطره في كتاب حياته منذ أن التقى بالرسول صلى الله عليه و آله و سلّم بعد بدر، وحـــتى اليوم، وبينهما سنوات من المعرفة والوعي والولاء لخط الإسلام الأصيل والشدة على المنافقين والخطوط المائلة، وها هو اليوم يشهد إمارة المؤمنين لعلي عليه السلام فعلاً بعد كونها له واقعاً.

" أخرجوني.. وادعوا الصلاة جامعة ".. قال لابنيه سعد وصفوان.

ولما أخرجاه إلى المسجد، وكان ثقيلاً عليلاً، لا ينتظر أن يبقى لجمعة أخرى، قال: أيها النـــاس.. أوصيكم بتقوى الله والطاعة لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب، فوالله أنه لعلى الحق آخراً وأولاً، وإنه لخير من مضى بعد نبيكم وخير من بقي إلى يوم القيامة..

ولما أعيد إلى مترله، التفت إلى ابنيه قائلاً:

- كونا معه فسيكون له حروب كثيرة فيهلك فيها خلق من الناس فاجتهدا أن تستشهدا معه فإنه والله على الحق ومن خالفه على الباطل.

وأغمض عينيه..

وفرح المنافقون فقد مات من يعرف أسماءهم ويحفظ ملفاقم..

لكن بقي مقياس الإيمان والنفاق:

- يا علي لا يحبك إلا مؤمن ولا يبغضك إلا منافق.

٥- بلال بن ربــاح الحـبشي
توفي سنة ٢٠هـ

كان يتوقع الكثير، ولكنه لم يتوقع هذا المقدار. ذلك أنه لم يكن يخفى عليه مشاعر الحقــد الــذي يحملها كفّار قريش تجاه محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) ودعوته الجديدة، وهم وإن كانوا لا يخفــون إعجابهم بشخصية محمد فهو أشهر رجل بمكة في صدقه وأمانته واستقامته إلاّ أنهــم لا يــستطيعون أن يتركوه، ((ليستبدل آلهتهم الثلاثمائة بإله واحد، ويجعلهم مع عبيدهم على قدم المساواة، ثم يجرهم ليضعوا رؤوسهم على الأرض))!! .

إنه يسمعهم في كل يوم، يتداولون أمرهم، وقلقهم يتزايد من تعاظم أمر محمد، وانتشار دعوته.. و لم يكن هذا الأمر ليعينه من قريب ولا بعيد قبلئذٍ، ولكنه اليوم وقد طرقت الدعوة قلبه بعنف، لا يــستطيع أن يتجاهل الأمر، أو يغضي عليه، هبه يستطيع أن يصمّ أذنيه عن سماع أحاديثهم، فهــل يــستطيع أن يسيطر على فكره وضميره؟! .

إنه يرجع بفكره إلى كل الأيام التي خلت من عمره، ليسأل نفسه، فيم كان؟! وإلى أين يــسير لــو استمرّ على تلك الطريقة!! عبد كسائر العبيد، يفرح حين يفرح سيده، ويحزن حين يبكي! حين يعبد بنو جمح(هبل)، فأن عليه أن يسجد لهبل ولو قدر له أن يكون مملوكاً لثقيف لعبد ((الطاغية)) !! .

ومستقبله! وهل يجوز لعبد أن يفكر في المستقبل؟! أنه يعيش صراعاً يخاف من نتيجته فهو يخــشى على نفسه من غضب الآلهة !! ولكن ما الذي تستطيع هذه الآلهة أن تنفع أو تــضرّ؟! هــل تتحــرك الأحجار؟! .

* * *

لم يستطع بلال تلك الليلة النوم، لشدة ضغط هذه الهواجس وغدا وعيناه متعبتان من السهر مع الفجر إلى الكعبة، وانتصب أمام(هبل) وتداعى في ذهنه كل صــور الاســتغلال القرشــي والاستعباد للناس، وتعذيب المؤمنين بمحمد، وكل ذلك باسم هبل وبباطل هبل..
أي إله هذا الذي يسمح لإنسان باستعباد أخيه الإنسان وتحميله ما لا يطاق، حتى يموت !! .

ـ أنت هبل !! وبصق في وجهه بكل غضب..

أيها الإله العاجز عن نصر نفسه، كيف تنفع غيرك.. ماذا لو كسرت يديك.. هل تملك لنفسك دفعاً ؟! .

وانصرف إلى مترل سيده أمية، و لم يشعر أن عيناً كانت ترقبه في الظلام مسجلة ماذا قال وماذا صنع ! .

تغيرت سحنة أُمية وهو يسمع ما جرى: هل أنت على يقين مما قلت؟! سأل من أبلغه.

ـ نعم بكل يقين.

عاد إلى مترله وقصد غرفة بلال، وقبل أن يدخل سمع صوتاً هادئاً، يردد كلمات جديدة على سمعه.

ـ ما الذي تقرأ؟!

ـ كلام الله.

ـ أي إله ؟! ومتى تكلم؟!

ـ لقد أنزل الله على عبده الكتاب والحكمة.

ـ أصبوت إلى شخص ساحر؟! وكفرت بآلهتنا؟! .

ـ ما كفرت ولكن الله هداني إلى الصراط المستقيم.

لم يستطع أمية أن يتحمل ذلك، رآها (وقاحة) لا تغتفر فمتى كان العبد يستطيع الرد على سيده، وأهوى بصفعة على خد بلال.

ـ متى كان العبد يتبع هوى نفسه؟! ويؤمن بإله غير إله سيده؟! أنت عبدي، وملكي، والدين الذي أتبعه هو دينك أفهمت؟! .

وطال الجدال.. وبلال ثابت على عقيدته، أنهاه أمية بقوله:

ـ أقسم باللات والعزى.. لئن لم تترك هذا الدين لأعذّبنك حتى تموت..

* * *

وبدأ مشوار بلال مع التعذيب، و لم يكن يتوقع هذا المقدار، أمر أُمية عبيده بتجريده من ملابسه ثم شدّ الوثاق في عنقه، وأمر العبيد أن يسحبوه في مناطق مكة، وكلما مروا على جماعة سألوهم عن سبب سحبه، فيقال: صبأ إلى دين محمد، فيتبرع هؤلاء بضربه وشتمه، و لم يكن ينطق غير كلمتين:

ـ أحد. أحد. .

وكانت على قلوبهم أحدّ من المواسي.. وكلما طلب منه أُمية أن يتكلم بكلام آخر كان يقول: والله لو أعلم كلمة أخرى أشدّ عليهم منها لقلتها..

كان أُمية يأمر بجلده بالسياط ولكن كأنه كان المعذب والمجلود، فطلب العون من أبي جهل، وكـــان أشدّ الكفّار على المؤمنين وجاء هذا ليجرّب حظه، قائلاً لأمية: إنه سوف يسمعه صوت استغاثة (العبد) والتماسه العفو..

ــ الجو هذا اليوم حار جداً، والشمس فيه تصهر الوجوه.. سوف ألبسه أدرعاً من الحديد، ثم نقيده في حفرة ونتركه هكذا.

وهكذا كان. .

كانت الشمس والحرارة الشديدة وضغط أدرع الحديد قد حقن الدم في جسم بـــلال، وبـــدا ذلـــك واضحاً في عينيه اللتين أصبحتا قطعة حمراء وكان أبو جهل ومعه أمية وآخرون، ينتظرون في الظـــل أن يسمعوا صوت استغاثة بلال، ولم يتكلم.. وضاق صبرهم، أمر أبو جهل عدداً من غلمانـــه أن يحملـــوا صخرة عظيمة ويلقوها على صدره، وأزاحوها بصعوبة، وألقوها على صدره، كان يغيب عن الـــوعي، فيما انفرجت شفتاه تبحث عن الكلمات، فرح أبو جهل، قام من مكانه ليسمع الاستغاثة والاعتـــذار، وقرب أُذنه من شفتي بلال، الذي صفعه بكلمة: أحد.. أحد..

ويمر ورقة بن نوفل وكان قد تنصّر وقرأ الكتب السابقة فيرى هذا التعذيب وذلك الصمود فيرى فيه صورة الأنبياء الصابرين على أذى قومهم.فيقول: لئن مات على هذه الحالة ليتخذن قبره مزاراً وموضـــع تترلٍ للرحمة والحنان الإلهي.

* * *

أصبح بلال الآن يمتلك حريته وقراره بعد أن اشتراه أبو بكر بأمر الرسول وأعتقه.. ولكن لم تنته أيام المحنة، فقد ضاعفت قريش من إيذائها ومضايقتها لاتباع الرسول استمرّت على ذلك.. غير أن ذلك لم يكن ليعادل الراحة النفسية التي كان يشعر بها بلال وهو يجلس إلى جانب الرسول(صلى الله عليـــه وآله وسلم)، فقد كان يجد نفسه، ويعرف ذاته، ويتحسس بنعم الله التي أنعمها عليه.

وأمر الرسول أصحابه بالهجرة، وكان بلال في طليعة من هاجر إلى المدينة مع عمار بـــن ياســـر.. غادر بلال موطن صباه الذي يحبه وإن كان قد كره أهله من الكفار وكرهوه.. لكن يبقى أن المرء مهما ضاق، يشعر وكأن مسقط رأسه جزء من وجوده.

في المدينة قدمها الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) تبوأ بلال مترلاً بين أصحاب الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) فقد أصبح خازنه، على بيت المال كذلك فهو الداعي إلى عبادة الله، اختص بـــلال بلقب(مؤذن رسول الله)، فما أن قدم رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) حتى بني المسجد، وصعد

بلال على مرتفع منه.. وتنفس الصعداء .. هاهو يستطيع أن يدعو جهاراً إلى عبادة الله والصلاة له، من دون أن يخشى أحداً، ورفع صوته:

الله أكبر.. الله أكبر.. الله أكبر.. الله أكبر .

أشهد أن لا إله إلاّ الله.أشهد أن لا إله إلاّ الله.

أشهد أن محمداً رسول الله.. أشهد أن محمداً رسول الله.

حي على الصلاة.. حي على الصلاة.

حي على الفلاح.. حي على الفلاح.

حي على خير العمل.. حي على خير العمل. .

الله أكبر..الله أكبر.

لا إله إلاّ الله.. لا إله إلاّ الله.

لكَم يبعث السكينة صوت بلال في النفوس..

لم يكن يعكر صفو المسلمين في المدينة سوى ذكرياهم عن الوطن البعيد والمال المستلب.. وإذا كان قرب الوطن عسيراً فإن إمكانية استرداد شيء من المال المستلب قد قربت بمجيء قافلة أبي سفيان حاملة أموال مكة.

وكانت مطاردة المسلمين لتلك القافلة _ بالرغم من أهما نجت _ فتيل معركة بدر.. وهكــذا تقابــل المسلمون القلة عدداً الكثرة إيماناً مع قريش بخيلائها وغرورها وأفلاذ أكبادها .

ودارت الدائرة على قريش، وبلال يجول في المعركة وكأنه يبحث عن رأس خاص بين الرؤوس الــتي يقتطفها، ومن بعيد لمح أميّة بن خلف، يده في يد عبد الرحمان بن عوف، وكانا صديقين في مكة وقد(أسره) عبد الرحمان باتفاق مع أمية على أن يستلم الثمن فهي خير له من الأدرع التي جمعها من ميــدان المعركة، وكما الصقر ينقض على فريسته، أقبل مسرعاً وهو يصيح:

_ أُمية بن خلف.. رأس الكفر لا نجوت إن نجا.. وحمل عليه وعبد الرحمان يدافعه قائلاً: إنه أسيري يا بلال..

فصاح بلال:أيها المسلمون.. أُمية بن خلف رأس الكفر لا نجوت إن نجا، وأحاطوا بــه وبابنــه، وهبروهما بأسيافهم حتى فرغوا منهما [١٨].

* * *

[18] / سيرة ابن هشام ٢/ ٢٨٥

تتابعت الوقائع بين رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وكفّار قريش، ودعوة الإسلام تغدو من نصر إلى آخر، إلى أن أذن الله بالفتح الأكبر..

مزيج من المشاعر والأحاسيس يغمر قلب بلال.. أصحيح إنه سائر إلى مكة ؟! الوطن الذي أبعد عنه ثمان سنوات؟! ولا يزال قلبه ينبض بحبه، وكأن لا أرض في الدنيا غير مكة؟! ترى ماذا سيكون رد فعل قريش التي ذاقت غب عملها في بدر و الخندق ؟! هل سيسمحون لهم بالدخول هذه المرة بعد أن منعوهم من الدخول حجاجاً في السنة الماضية؟! ووقعت وثيقة الحديبية.

هاهم على أبواب مكة والليل قد أسدل غطاءً أسود على الأحياء لترقد.. رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يأمر المسلمين، بأن توقد كل جماعة ناراً، وهكذا أصبح الرائي يرى الأفق من مكة وقد اشتعل نيراناً..

وسقطت قريش. . وفتحت مكة، و لم ترق قطرة دم ـ إلاّ من أراد لدمه ذلك ـ هذا الفتح هو الأكبر على الطريقة النبوية، فقد فتح رسول الله القلوب، قبل الأرض. وعهد إلى أصحابه ألا يقاتلوا أحداً إلاّ دفاعاً عن أنفسهم.

ودخل رسول الله مكة، وطاف سبعاً على راحلته، وقد طأطأ برأسه على سرج الناقة، ودعا بلالاً، وأمره أن يؤذن.. وصعد بلال على ظهر الكعبة..قد امتلأ سروراً فهاهي مكة، تسمع لأول مرة نداء الصلاة من شفاه المنتصرين بينما دخل الكعبة وصلّى ركعتين، وحمل عليّاً(عليه السلام) لكي يسقط الأصنام.

* * *

أقسم بلال أن لا يؤذن لأحد بعد الرسول، و لم يكن ذلك فقط بسبب موقفه من الخلافة، واعتبار أذانه بمثابة تدعيم لها و لم يكن يريد ذلك، وبالرغم من أن أبابكر طلب منه شخصياً أن يبقى إلى جانبه مؤذناً كما كان للرسول، إلاّ أن بلالاً ، قال له بصراحة:

ـ إن كنت قد اعتقتني لنفسك فهآنذا وإن كنت أعتقتني لله فدعني لله.

وبالرغم من أنه تعرض لغضب عمر بن الخطاب على موقفه هذا إلاّ أنه لم يستجب، وفضّل الذهاب إلى الشام للجهاد والمرابطة على الثغور..

وذات يوم وكانت الزهراء في مرضها بعد وفاة أبيها وقبل ذهابه، قد قالت أشتهي أن أسمع صوت مؤذن أبي بالأذان، فبلغ ذلك بلا لاً، فأخذ في الأذان، فلما قال: الله أكبر، ذكرت أباها وأيامه فلم تتمالك فلما بلغ إلى قوله: أشهد أن محمد رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، فشهقت فاطمة وسقطت لوجهها وغشي عليها فقال الناس لبلال: أمسك يابلال فقد فارقت ابنة رسول الله الدنيا، فظنوا

أنها قد ماتت، فقطع أذانه و لم يتمه، وأفاقت فاطمة، وسألته أن يتم الأذان فلم يفعل، وقال لها: يا سيدة النساء إني أخشى عليك مما تترلينه بنفسك إذا سمعتِ صوتي بالأذان، فأعفته عن ذلك [19].

في مدينة عمواس بالشام...

وكان آخر عهد الدنيا بعد أن ذاق علقم الجاهلية فيها، وسلوى الإسلام والهداية..

عندما رأى رسول الله في المنام في لباس يشع بياضاً ونورانية يسلم عليه بلال وقد ملأ السرور اهابه بينما عاتبه الرسول:

_ لماذا كل هذا الجفاء يا بلال؟! ألا تريد أن تراني بعد الزيارة؟!.

استيقظ بلال من نومه، وهو يردد: لماذا كل هذا الجفاء يا بلال.. ألا تريد أن تراني؟! .

رأى في ذلك المنام دعوتين الأولى للزيارة، والأخرى ليكون معه وقريباً منه، وبالفعل فقد شد حـــزام السفر زائراً قبر رسول الله، وليعود مرة أخرى إلى الشام حيث سيبدأ الرحلة الثانية ليكون قرب رســـول الله في الجنة...

[19] / تنقيح المقال ١/ ١٨٣

أمير المؤمنين (ع)

١- قنبر
٢- مالك بن نويرة
٣- صعصعة بن صوحان
٤- محمد بن أبي بكر
٥- خالد بن سعيد بن العاص

علي بن أبي طالب (أمير المؤمنين) عليه السلام

الإمام أبو الحسن

٣٠ بعد عام الفيل- ٤٠ هـ

ولد أمير المؤمنين (ع) بعد ثلاثين سنة من عام الفيل وكان مولده داخل الكعبة المشرفة حيث انشق جدار الكعبة لأمه فاطمة بنت أسد لما أدركها الطلق وهي في الطواف كما ذكر ذلك معظم المؤرخين والمحدثين، وسجلت هذه الفضيلة لعلي (ع)، وحده، لم يسبقه فيها نبي أو وصي منذ بداية الخلق.

منذ بدايات ولادته (ع) ض كان رسول الله (ع) يهتم به، ويرعاه إلى درجة أنه كان يوجره- وعلي طفل آنذاك- اللبن في حلقه، ويناغيه قبل نومه. وفي مرحلة تالية أخذه رسول الله (ص) من والده، إلى بيته، وتربى الإمام علي (ع) على يد رسول الله مباشرة. وكان معه مدة ثلاث وثلاثين سنة.

كان أول من آمن برسول الله (ص) ، وتلقى بالقبول دعوته، إذ بُعث النبي (ص)- كما أخبر الإمام علي (ع) - يوم الاثنين وآمن به الإمام يوم الثلاثاء..

عندما بعث رسول الله، وأمر بأن ينذر عشيرته الأقربين، جمعهم، وأطعمهم ثم خطبهم قائلاً : أيكم يؤمن بي و يوازرني على هذا الأمر فيكون أخي ووصي ووزيري وخليفتي في أهلي من بعدي؟! فما قام أحد منهم إلاّ علي بن أبي طالب (ع). فقال له: إن هذا أخي ووصيي ووزيري فاسمعوا له وأطيعوا .

كان لا يفتأ رسول الله عن الإشارة إلى علي (ع) بأنه أمير الناس وإمامهم، وأنه وصيه وخليفته ووزيره، وكان علي (ع) لا يدخر وسعاً في نصرة الرسول وفدائه بنفسه كما حصل في ليلة المبيت حيث بات أمير المؤمنين على فراش النبي (ص) ليغطي بذلك هجرته إلى المدينة.

بعد ما وصل النبي إلى المدينة، وكان قد أوصى علياً بأداء ودائعه إلى أصحابها في مكة أعلن الإمام علي (ع) عن عزمه على الهجرة إلى المدينة، وقال للقرشيين إن كان لهم وديعة أو دين عند النبي فليطلبوها منه، وأنه راحل بعد أيام. وكان هذا أبرز تحذ لجبروت قريش: أن يخرج علانية، ولما أرسلوا رجالهم لمنعه كان نصيبهم مصافحة الأرض بوجوههم الدامية ..

بعدما وصل إلى المدينة آخاه رسول الله مختصاً إياه بين جميع المسلمين، وزوجه ابنته فاطمة الزهراء، بعدما ردّ عدداً من كبار المسلمين الذين تقدموا لخطبتها.

اشترك في حروب رسول الله(ص) ، وكان فارسها جميعاً ففي بدر قتل (٢٧) مشركاً بمفرده بينما قتل المسلمون جميعاً الباقي وهم (٤٣) قرشياً . وفي أحد كان الثابت الأساسي إلى جنب الرسول ومعه عدد قليل من المسلمين، بينما لاذ أصحاب الأسماء بالفرار، حتى لقد سمع المسلمون جبرئيل منادياً بين السماء والأرض: لا فتى إلاّ علي. لا سيف إلاّ ذو الفقار. وفي الخندق قتل عمرو بن عبد ود العامري الذي جبن عن ملاقاته جميع المسلمين، وكانت ضربته لعمرو بن عبد ود يوم الخندق (أفضل من عبادة الثقلين)، وفي خيبر قتل فارس اليهود (مرحباً) وقلع باب حصن خيبر وتترّس به وحمل على اليهود ففتح الله على يديه، وهكذا كان حاله في سائر الحروب والغزوات.

أبقاه رسول الله (ص) في المدينة حينما خرج لآخر غزوة وهي تبوك وعندما أرجف المنافقون بذلك، قال رسول الله (ص) له: (أنت مني بمترلة هارون من موسى إلاّ أنه لا نبي بعدي) فأثبت له كلما كان لرسول الله ما عدا النبوة .. من وجوب الطاعة والتفويض إليه، وكون إمامته عامة للناس جميعاً.

في آخر حجة لرسول الله (ص)(حجة الودا ع) في السنة العاشرة، وحيث تدارك الرسول(ص) قرب أجله، أراد أن يصنع شيئاً يضمن به مسيرة الأمة بعده، فجمع الناس في غدير خم حيث مفترق طرق الحجاج وقام فيهم خطيباً معلناً لهم أنه كما أن الرسول هو أولى بالمؤمنين من أنفسهم فعلي كذلك. وأنه مولى كل مؤمن ومؤمنة، ثم أمرهم بالسلام عليه بإمرة المؤمنين.

مع وفاة الرسول (ص) جرت الأمور في غير ما كان الرسول قد قدر لها، وزويت الخلافة عن أمير المؤمنين (ع) بتحالف كان بين أبي بكر، وعمر بن الخطاب، وأبي عبيدة بن الجراح، ضمن مبررات تنتمي إلى مرحلة ما قبل الشريعة.

رأى أمير المؤمنين أن وحدة الأمة الإسلامية ستنتهي، بل ربما ذهب الدين، لو أنه قام بالمعارضة المسلحة " فصبرت وفي العين قذى وفي الحلق شجى " كما فال. وتجاوز عن هذا الأمر حفاظاً على الدين.

ولدت خلافة أبي بكر جنين خلافة عمر إذ أنهما " تشطرا ضرعيها " وكبر هذا الجنين فأصبح " شورى " (فيا لله وللشورى) وجاء عثمان ومعه (بنو أبيه يخضمون مال الله خضمة الإبل نبتة الربيع إلى أن انتكث عليه فتله وكبت به بطنته).

مع الأمور التي حدثت أيام عثمان بن عفان وتطور الأحداث إلى قتله، جاء المسلمون جميعاً إلى أمير المؤمنين مبايعين حتى " لقد وطىء الحسنان وشق عطفاي" وهم يصرخون البيعة البيعة!!.

ما كانت تقرّ عيون المؤمنين بولاية أميرهم حتى قام الزبير بن العوام ومعه طلحة ومن ورائهما أم المؤمنين عائشة بإشعال حرب الجمل ضد أمير المؤمنين (ع) وكانت أول بغي مسلح على الخليفة الشرعي المعيّن من فبل الرسول والمنتخب من الناس.

استمراراً لنفس السلسلة فما كان أمير المؤمنين يرجع إلى الكوفة حتى أعلن معاوية التمرد رافعاً قميص عثمان شعاراً لتمرّده وكانت معركة صفين .. ثم خدعة التحكيم، التي نتج عنها تمرّد أصحاب الجباه والقلوب السود من الخوارج.. ثم معركة النهروان معهم. وهكذا كانت السنوات الخمس التي حكم فيها أمير المؤمنين (ع) ، لا ينتهي من معركة حتى تُفرض عليه أخرى.

وفي فجر التاسع عشر من رمضان سنة ٤٠ هـــ، حينما كان الإمام يؤدي صلاة الفجر قام الخارجي عبد الرحمان بن ملجم باغتيال الإمام (ع) وهو ساجد في محراب مسجد الكوفة ، وهكذا فتح عينه (ع) في بيت الله وأغلق عينه في بيت الله . وهذا يختصر عنوان حياته بينهما .

قنبر مولى أمير المؤمنين عليه السلام

الوفاة: شهيداً بيد الحجاج الثقفي

(إني إذا الموت دنا وحضرا   شمرت ثوبي ودعوت قنبراً

قدم لوائي لا تؤخر حذرا)

الإمام علي (ع)

تركز الثقافة السطحية على ظواهر الأمور، فتجد الشرف كل الشرف في الانتماء لا غير والمجد كل المجد في (العظام) من الآباء والأجداد، وهكذا يصبح الفرد- تبعاً لهذه الثقافة- سيداً دون أن يعلم أو يساهم في هذه السيادة، أو حقيراً دون أن يرغب أو يختار.

غير أن الثقافة الإسلامية الأصيلة مقياساً آخر لعظمة الإنسان، وأهميته وأفضليته، وأهمية هذا المقياس أنه يقع ضمن دائرة اختيار الإنسان، وباستطاعة المرء في أي وقت أن يستجيب له، ويصعد بالتالي سلم المجد، أو يتركه فيبقى حيث هو، ذلك المقياس هو (مواقف الإنسان) سواء تجاه الرسالة والرسول، وتجاه المجتمع والأحداث التي تجري فيه، وفي هذا يتساوى جميع الناس، بل بنتائج مواقفهم يتفاضلون فيه فإذا (بالعربي) الذي تتوغل عروقه في عمق القبائل العربية، والذي يسبق بهذه الصفة حسب الثقافة السطحية- غيره يصبح تالياً بينما يسبق العبد، أو المولى وهو بحسب تلك الثقافة- متأخر طبيعياً.

وربما كان هذا هو السبب وراء تقدم الموالي في الأمة الإسلامية في تاريخها الأول فنحن نجد أن منهم العلماء والفقهاء، بل وحتى المجيدين من شعراء اللغة العربية، مما لا يتسع المجال لبحثه. ذلك أن كثيراً من العرب رأوا أن (عروبتهم) كافية في تفضيلهم على من سواهم، فقصروا في طلب المعالي بينما شمر أولئك المعالبينما شمر أولئك عن ساعد الجد فإذا بهم السابقون في كثير من المجالات.

وهذا هو سر التقدم إذ أن (من قصر به عمله.، لم ينهض به نسبه)، كما بقول أمير المؤمنين ! وهكذا فخلاصة حياة الإنسان: عمله وعلمه ومواقفه في الحياة، وقد أدرك هذا السر عدد من موالي أهل البيت صلي الله عليه وسلم فتسلقوا سلم مجد الخلود، وفاقوا بمواقفهم الحرة، ألوف الرجال الأحرار نسباً.. وكان قنبر مولى أمير المؤمنين عليه السلام ! من هذا النوع..

لم يهتم المؤرخون بذكر نسبه، إلاّ بمقدار أنهم قالوا: أنه من مضر!! ربما جرياً على العادة في إغفال ذكر الموالي والخدم من الذكر، لأنه لا يتوقع أن يوجد من يهتم بأنسابهم، ولا يتوقع أن يكون لهم كبير أثر أو ذكر في التاريخ.

وربما إذا كنا متفائلين لأنهم اكتفوا بنسبته إلى دوره أو موقعه من أمير المؤمنين !صلى الله عليه وسلم فإذا ذكر اسم قنبر كان ذلك كافياً لتعريف شخصيته بناء على الموقع الذي كان يمثله من أمير المؤمنين علي عليه السلام، ومتى كان يرفع الإنسان نسبه إن قعد به عمله ودوره؟ ا وهل (للإنسان إلا ما سعى)؟ ! قيل في صفاته كان قنبر غلام علي يحب علياً حباً شديداً فإذا خرج على أثره بالسيف فرآه ذات ليلة فقال: مالك يا قنبر؟ ! قال: جئت لأمشي خلفك يا أمير المؤمنين فقال: ويحك أمن أهل السماء جئت تحرسني أم من أهل الأرض؟! قال: لا بل من أهل الأرض! فقال: إن أهل الأرض لا يستطيعون شيئاً إلا بإذن الله.. ارجع.

وكان يصحب أمير المؤمنين (ع) في جولاته التفقدية، التي يمر من خلالها على العوائل المحرومة والمستضعفة، وفي كل لقاء كان يتعلم دروساً في خدمة الناس وحب الفقراء من أب المساكين.

وكان يكلف من قبل الإمام (ع) بتنفيذ أوامره، فقد ورد اسمه في الشعر المنسوب لأمير المؤمنين (ع) :

لما رأيت الأمر منكرا أوقدت ناري ودعوت قنبرا

وقد روي أن أمير المؤمنين (ع)كان يقول في صفين:

إني إذا الموت دنا وحضرا شمرت ثوبي ودعوت قنبرا

قدم لوائي لا تؤخر حذرا

وهكذا تحول إلى (يمين) لأمير المؤمنين، بحيث إننا نلتقي اسمه في كثير المواطن، ففي القضاء، يناديه أمير المؤمنين للتفريق بين الشهود وأخذ أقوالهم وفي جلب الطعام للفقراء يكون مع الإمام وفي الحرب.. وهكذا، تحول هذا الخادم الغلام إلى رجل من (السابقين المقربين من أمير المؤمنين ومن خواص أصحابه).

لقد كان يرى في أمير المؤمنين (ع) قرآناً ناطقاً يعيش بين الناس، يعجب بطريقة حياته!! فها هو في الليل يخرج إلى ظاهر الكوفة وهو الحاكم، وقد أرخى الليل سدوله وغارت نجومه، ويبكي بدموع ساخنة مالئاً محيطه بآهات الشوق إلى الله سبحانه وتعالى، ويغمى عليه فيسقط كالخشبة اليابسة، ويعود بعد ذلك إلى حيث يتفقد رعيته، يستوقفه صوت بكاء الأطفال ..

لا شيء يهز هذا الرجل الذي هز باب خيبر، كبكاء الأطفال، كأن قوة مغناطيسية تسحبه نحو مصدر الصوت.. طرق الباب، وخرجت امرأة سألها:

- ما بال الأطفال يبكون؟! فأجابت.

- أضر بهم الجوع والبرد!! والتفت الإمام فإذا في ناحية الدار قدر تحت نار مشتعلة فسألها:- وماذا في القدر؟! قالت:

- لاشيء غير الماء.. أخدعهم به حتى يناموا !!.

وأسرع وأسرع معه قنبر إلى بيت المال، وحمل جراباً من الطحين وشيئاً من الدهن وعادا.. وبينما أراد قنبر أن يحمل عن الإمام الجراب أبى ذلك لأن (صاحب العيال أحق بحمل طعامهم).. ولم يكتف بذلك بل أخذ يصنع لهم الخبز، ثم أطعمهم وخرج!! [٢٠]

وهكذا كان في كل موقف يتعلم دروساً..

أشفق قنبر على أمير المؤمنين، لما رأى ما هو عليه من جشوبة العيش وخشونة الملبس، فأراد أن يغير ذلك.. يقول زادان: انطلقت مع قنبر إلى علي (ع) فقال: قم يا أمير المؤمنين فقد خبأت لك خبيئة!! فقال (ع) : فما هو؟! قال قنبر: قم معي.

فقام وانطلق إلى بيته فإذا بأسنة (خيشة كبيرة) مملوءة جامات من ذهب وفضة. فقال قنبر: يا أمير المؤمنين إنك لا تترك شيئاً إلا قسمته، فادخرت هذا لك.

قال (ع): لقد أحببت أن تدخل بيتي ناراً كثيرا!! فسل سيفه فضربها فانتثرت من بين إناء مقطوع نصفه أو ثلثه. ثم قال: اقسموه بالحصص ففعلوا وجعل يقول:

هذا جناي وخياره فيه   إذ كل جان يده إلى فيه [٢١]

وهكذا تحول الخادم إلى أحد خواص أمير المؤمنين (ع) ... ولذلك عندما طلب الحجاج أن (يتقرب إلى الله بدم رجل من أصحاب أبي تراب!!)، قيل له: ما نعلم أحداً كان أطول صحبة لأبي تراب من قنبر مولاه.

ويكفي لمعرفة شخصيته، التعرف على الحوار الذي دار بينه وبين الحجاج الثقفي.. فقد أحضر قنبر فقال له الحجاج: من أنت؟! فقال قنبر:

" أنا مولى من ضرب بسيفين، وطعن برمحين، وصلى القبلتين وبايع البيعتين، وهاجر الهجرتين، ولم يكفر بالله طرفة عين، أنا مولى صالح المؤمنين، ووارث النبيين، وخير الوصيين، وأكبر المسلمين ويعسوب المؤمنين ونور المجاهدين ورئيس البكائين، وزين العابدين، وسراج الماضين، وضوء القائمين،

---

[20] / ذلكم الإمام علي / **السيد هادي المدرسي**

[21] / سفينة البحار ٢/ ٤٤٩.

وأفضل القانتين، ولسان رسول رب العالمين، وأول المؤمنين من آل ياسين المؤيد بجبرئيل الأمين، والمنصور بميكائيل المتين والمحمود عند أهل السماوات أجمعين، سيد المسلمين والسابقين، وقاتل الناكثين والمارقين والقاسطين، والمحامي عن حرم المسلمين ومجاهد أعدائه الناصبين ومطفئ نار الموقدين، وأفخر من مش من قريش أجمعين، وأول من أجاب واستجاب لله أمير المؤمنين، ووصي نبيه في العالمين وأمينه على المخلوقين، وخليفة من بعث إليهم أجمعين، سيد المسلمين والسابقين، ومبيد المشركين، وسهم من مرامي الله على المنافقين، ولسان كلمة العابدين، ناصر دين الله، وولي الله، ولسان كلمة الله، وناصره في أرضه وعيبة علمه، وكهف دينه، إمام الأبرار من رضي عنه العلي الجبار سمح سخي، بهلول سنحنحي ذكي مطهر أبطحي، باذل جريء همام، صابر، صوام، مهدي، مقدام، قاطع الأصلاب، مفرق الأحزاب، عالي الرقاب، أربطهم عناناً وأثبتهم جناناً، وأشدهم شكيمة، باذل، باسل صنديد، هزبر، ضرغام، حازم، عزام، حصيف خطيب، محجاج، كريم الأصل، شريف الفضل، فاضل القبيلة نقي العشيرة، زكي الركانة، مؤدي الأمانة، من بنى هاشم وابن عم النبى(ص)، والإمام مهدي الرشاد، مجانب الفساد، الأشعث الحاتم، البطل الحماحم، والليث المزاحم بدري، مكي، حنفي، روحاني، شعشعاني من الجبال شواهقها، ومن الهضاب رؤوسها، ومن العرب سيدها، ومن الوكى ليثها البطل الهمام، والليث المقدام، والبدر التمام محك المؤمنين، ووارث المشعرين وأبو السبطين، الحسن والحسين، والله أمير المؤمنين حقاً، علي بن أبي طالب عليه من الله الصلوات الزكية، والبركات السنية [22].

فلما سمع الحجاج منه ذلك قال له: ابرأ من دينه.

فقال قنبر: فإذا برئت من دينه تدلني على دين غيره أفضل منه؟!.

قال: إني قاتلك فاختر أي قتلة أحب إليك؟!.

قال له: قد صيرت ذلك إليك، قال: و لم؟!.

قال قنبر: لأنك لا تقتلني ألا قتلتك مثلها وقد أخبرني أمير المومنين (ع)إن ميتتي تكون ذبحاً ظلماً بغير حق، فأمر به فذبح.

[22] / تنقيح المقال ٢/ ٣٠.

مالك بن نويرة التميمي اليربوعي

الوفاة: قتلاً بأمر خالد بن الوليد سنة ١١ هـ

بعدما تعلم الإيمان الكامل من رسول الله (ص) قال فيه: (من أراد أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة فلينظر إلى هدا الرجل)

في ليلة ظلماء، وبغارة مفاجئة استطاع المهاجمون أن يسيطروا على الموقف وأن يغنموا، حيّ مالك بن نويرة، الذي كان غائباً. وما هي إلا ساعة حتى كان الرجال أسرى والنساء غنائم، والأنعام مصادرة، وانتهت الغارة..

ووصل الصريخ إلى مالك، و لم تمهله حميته لكي يستريح أو يتريث، فخرج في آثارهم حتى أدركهم على مسيرة ثلاث يقتسمون الأموال بينهم بعد أن آمنوا الطلب. وما أن رأوه من بعيد حتى أرسلوا ما كان في أيديهم من الأسرى وساقوا النعم هاربين بها، إلا أن شدة طلبه أجبرهم على أن يتركوا الأنعام ليشتغل بجمعها عن طرادهم، وليتخففوا في هربهم إلا أنه استمر يتابعهم حتى رجع بهم مكتوفين.

نعم فقد كان مالك بن نويرة رجلاً سرياً نبيلاً يردفه الملوك وللردافة موضعان أحدهما أن يردفه الملك على دابته في صيد أو غيره من مراضع الإنس. والموضع الثاني أنبل وهو أن يخلف الملك إذا قام عن مجلس الحكم فينظر بين الناس بعده. وهو الذي يضرب به المثل فيقال: مرعى ولا كالسعدان، وماء ولا كصّداء وفتى ولا كمالك، وكان فارساً شاعراً مطاعاً في قومه وكان فيه خيلاء وتقدم وكان ذا لمة كبيرة، وكان يقال له الجفول [23].

هذا الفارس الشريف كان لا بد أن يسلم بعد أن سمع عن الرسول (ص) وعن دعوته لذلك قدم على النبي (ص) في وفد قومه ومعه ولاء قومه وطاعتهم، وآمن برسول الله !. وتعلم من الرسول أصول الإسلام، ومعارفه، وعرف منه من يوالي ومن يعادي، ولمن يستجيب بعد ا لرسول (ص) .

وعاد ..

عاد ومعه معارف الدين، وولايته على صدقات قومه من قبل الرسول وأهم من ولايته عليهم معرفته بالقائد الذي سيخلف النبي(ص).

ومرت الأيام ساكنة في حيه، فلقد أنهى رسول الله بسيطرته على قلوب الناس عقود الخوف والسيف، والغارات، واستسلم الناس عنده لهذا الدين، الذي كسبهم الطمأنينة وأعطى لوجودهم قيمة، ولقوتهم جهة.

---

[23] / وفيات الأعيان ٦/ ١٣.

ها هم- بعد أن كانوا قبل نعمة الإسلام يشنون الغارة تلو الغارة من أجل ناقة، أو بعير، ها هـــم الآن يعطون طواعية زكاة أموالهم، وينتخبون الأفضل منها لإعطائه إلى والي رسول الله علـــيهم والمـــبرز فيهم مالك بن نويرة.

إلا أن هذه الأيام الساكنة في حيه كانت حبلى بالأحداث في المدينة، فقد كان الرســـول لا يفتـــأ يبعث الجيش أثر السرية ويخوض المعركة تلو الأخرى وانتقل محور نشاطه وعمله العسكري من الجزيـــرة العربية إلى أطرافها وإلى البلاد الأخرى التي كانت تهدد الدعوة الإسلامية.

و إذا كان (كل من عليها فان) فإن رسول الله كان أولى بذلك إذ أنه (حبيب) ربه وكل حبيب في شوق لحبيبه..

وكما أودع النبي كتاب الله، أودع أهل بيته وعترته علياً وفاطمة والحسنين، أمته، وأغلق عينيـــه الكريمتين مودعاً.

ووصلت أخبار وفاة الرسول القائد إلى أطراف المدينة، وجاء الولاة والوفود، البعض جاء بهم حب الاطلاع على ما حدث، والبعض الآخر جاء بهم طموحهم في الاشتراك في تقرير أمر المسلمين وخلافـــة الرسول، وجاء غيرهم ليؤدوا صدقاتهم وزكواتهم إلى (الامام) بعد الرسول، ويعرضوا فروض الطاعـــة، ومن هؤلاء كان مالك. فقد جاء لينظر من الإمام حتى يسلم إليه زكاته، ومن بوابة المسجد رأى أبا بكر على منبر الرسول، وتعجب !!.

ترى هل كان الرسول مخطئاً في تحديد الإمام بعده ؟!.

أم كان مالكاً لم يسمع الاسم بشكل صحيح ؟!.

أم أن أبا بكر ليس إلا(خطيباً، فوق المنبر، يلقي موعظة قبل الإمام أو بعده؟!.

والتقى خلص أصحاب رسول الله.. وشاهد (الفيلم) بكامله.

وعاد..

عاد هذه المرة وهو يحمل معه همّ الدنيا. وجالت الأفكار في رأسه في معركة لم يسبق لها عنده مثيـــل.. فكيف يمكن أن يحدث هذا ؟! ترى هل كتب علينا (أفأن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم)، وما الذي نقموا من ذلك البطل؟!.

وكيف أبعدوه؟! نقموا منه نكير سيفه وقتله للمشركين من قريش حتى أدخل بيوتها اليتم والثكل؟ وهل كانوا يتوقعون منه أن يطعم هؤلاء الحلوى وقد برزوا لقتل الرسول؟ هل كـــان عليـــه أن يقـــدم لهـــم الزهور؟!.

عاد إلى قومه، الذين خفوا إليه مسرعين.. و قرءوا كامل الرسالة في عنوان وجهه.. لقد عاد بغير الوجه الذي ذهب به، طابع الحزن لا يمكن أن تخفيه ابتسامة.

واستقال من أمرهم، ومن الولاية على الصدقات، لأنه إذا لم يكن يعترف بالخليفة البـــديل فهـــل يكون موظفاً عنده ؟! لكنه قبل ذلك قام بعملين: أعاد إليهم زكواهم وصدقاهم، وأمرهم أن لا يجتمعوا، إذ أن ذلك يعني في رأي حكومة الخلافة ردة، وتمرداً وبالتالي القتل بداً من الحرق!! نعم الحرق!.

فعلى الطرف الآخر كان خالد..

خالد بن الوليد المخزومي، صاحب الموقف الشهير مع جذيمة. بالغميصا حيث جرّد فيهم ســـيفه، وأعمل فيهم سلبه، لثأر بين بني مخزوم وبني جذيمة في الجاهلية، خالد صاحب الموقف مع الرسول الذي تبرأ من عمله وأرسل علياً ليصلح ما خرق خالد ويدفع دية الضحايا، وتعويض ا لمتاع- حتى (المركن).

خالد صاحب السيف المراهق [٢٤]..

لقد أعجبه الغزو.. و لم لا ؟!.

" وسار خالد بعد أن فرغ من فزارة وأسر وطى وغطفان، يريد البطاح [٢٥] وبها مالك بن نويرة قد تردد عليه أمره، وتخلفت الأنصار عن خالد وقالوا: ما هذا بعهد الخليفة إلينا إن نحن فرغنا من بزاخة أن نقيم حتى يكتب إلينا.

فقال خالد: قد عهد إليّ أن أمضي وأنا الأمير!! ولو لم يأت كتاب بما رأيته فرصـــة وكنـــت أن أعلمته فاتتني.. لم أعلمه!! [٢٦].

لقد كان الأمير خالد.. يراها فرصة إن فاتت لن تعوض!! فماذا يهمه أن يكون مكلفاً من الخليفة أم لم يكن؟! إنه لو احتمل ضياع الفرصة بإخباره الخليفة فلن يخبره..

وهكذا نزل البطاح، حيث مسكن مالك، وقومه، وأهم من ذلك :

أم متمم زوجة مالك(وكان غاية في الجمال)، فهل تترك هكذا فرصة لرأي الخليفة؟.

ولأن مالكاً كان قد عهد إلى قومه أن يتفرقوا لكيلا تحسبها الخلافة ردة وتمرداً، فلم يواجه خالـــد وسريته مقاومة تذكر، غير أهم عثروا على مالك ومعه عدد من قومه وكان قد حضر وقـــت الـــصلاة فأذنوا وأقاموا وصلوا.. فهجموا عليهم، فسألوهم عن ذلك، فقال جمع من سرية خالد: إهم بعث مـــن

---

24 / قال عمر بن الخطاب لأبي بكر: (إن في سيف خالد رهقا) وكثر عليه في ذلك، كامل ابن الأثير ٢/ ٣٥٨.

25 / البطاح: بضم الباء.. حي مالك بن نويرة وقومه

26 / الكامل ٢/ ٣٥٧.

قبل الخليفة جاؤوا لقتال المرتدين.. فردّوا عليهم بأنهم مسلمون، وقد أذنوا وأقاموا وصلّوا للتوّ، فطلبوا من مالك وقومه أن يضعوا سلاحهم ثم جاؤوا بهم إلى السيف المسلول (!) خالد.. وكان أبو قتادة الأنصاري في بعث خالد فشهد أنهم أذنوا وأقاموا االصلاة.. وبهذا شهد عبد الله بن عمر الذي كان في البعث أيضاً، لكن خالداً لم يكن ليرده عن قراره شهادة جميع أهل الأرض بإيمان مالك وقومه.

وطلب مالك من خالد أن يرسله إلى أبي بكر فيكون هو الحاكم فيهم،وأكد على قوله عدد من جيش خالد، ممن رآهم مصلّين، (فالحدود تدرأ بالشبهات) ولكن الذي يتحرك هنا، ويحرّك الأحداث لم يكن الشرع ولا العقل.. صاح خالد: لا أقالني الله إن أقلتك! ! وتقدم إلى ضرار بن الأزور الأسدي يضرب عنقه والتفت مالك إلى زوجته أم متمم وقال لخالد:

- هذه التي قتلتني !! وكانت غاية في الجمال.

فقال له خالد: بل الله قتلك برجوعك عن الإسلام !!.

قال مالك: أنا على الإسلام [٢٧].

ولم يطق السيف المسلول الصبر أكثر من ذلك فقال لضرار: اضرب عنقه.. وانتهى الفصل الأول من هذه العملية العسكرية ليبدأ الفصل الأساسي فيها، بينما انتهى الفصل الأخير في حياة مالك بن نويرة التميمي اليربوعي صاحب رسول الله وواليه على الصدقات والذي من أراد أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة فلينظر إليه [٢٨].

ونصبت رؤوس المؤمنين المقتولين أثافي للقدور حتى يطبخ عليها طعام الجيش المنتصر !! ونضج الطعام قبل أن تخلص النار إلى رأس مالك لكثرة شعره.

ودخل خالد (سيف الله المسلول)، في ليلته بزوجة مالك المقتول !! وتماماً كما قال مالك: هذه هي التي تقتلني! ! وهكذا:

قضى خالد بغياً عليه لعرسه	وكان له فيها هوى قبل ذلك
فأمضى هواه خالد غير عاطف	عنان الهوى عنها ولا متمالك
وأصبح ذا أهل وأصبح مالك	إلى غير شيء هالكا في الهوالك [٢٩]

---

27 / وفيات ا لأعيان ٦/ ١٤ .

28 / تنقيح المقال ٢/ ٥١.

29 / وفيات الأعيان ٦/ ١٥. وتاريخ الاسلام للذهبي حوادث عهد الخلفاء الراشدين

وفي المدينة المنورة، وحيث سبقت أخبار الحادثة، رجوع أصحابها، و لم يمكن تبريرها، حيث كانت القضية أوضح من التأويل فقد أقسم أبو قتادة الأنصاري وهو من شهود الحادثة أن لا يخرج في بعث أميره خالد بعدها.. بل إن عمر بن الخطاب قال لأبي بكر، بعد أن بلغهما الخبر:

- إن خالداً قد زنا فارجمه ! فقال الخليفة:
- ما كنت لأرجمه، إنه تأول فأخطأ !! فأجابه:
- إنه قتل مسلماً فاقتله به. فقال أبو بكر:
- ما كنت لأقتله إنه تأول فأخطأ (!!).

فقال له:- فاعزله.

قال: ما كنت لأشيم سيفاً سلّ الله عليهم أبداً !.

وهكذا استبيح دم رجل شريف نبيل، في الدنيا، ومن أهل الجنة في الآخرة بدعوى التأوّل الخاطئ، ثم استبيح عرض زوجته، أيضاً بدعوى التأول الخاطئ، و لم يتعرض القائد القاتل ثم المتعدي على زوجته إلأ إلى المكافأة والتشجيع!![٣٠] .

صعصعة بن صوحان العبدي

توفي سنة ٥٦ منفياً في البحرين

ما كان مع أمير المؤمنين من يعرف حقه إلاّ صعصعة وأصحابه .

الإمام الصادق (ع)

إنك ما علمت حسن المعونة خفيف المؤونة .

أمير ا لمؤمنين (ع)

30 / المصدر السابق.

بين اللسان والسنان علاقة. لأن كلاًّ منهما أهميته بحامله فلو تجرد اللسان عن الجنان الثابت لما عبئ به، وكذلك السنان لو كان بيد جبان. وحين يجد كل منهما ما يعتمد عليه تصبح الطعنة تاريخاً والكلمة .

ولم يكن الطغاة يخافون إلاّ من الطعنة التي تتحول إلى تاريخ ومن الكلمة التي تصنع أمة، وكانوا يخافون من الثانية كثر لأنها تصنع الأولى. لماذا كانت الشجاعة تمتحن في ميادين القتال فإن البطولة تعرف في مواطن التحدي حيث النطق بكلمة الحق يساوي سقوط الرأس على النطع..

وإذا كان المؤمن سيدخل معركة عسكرية واحدة أو كثر فإن حياته سلسلة من الصراع الديني والثقافي مما يحتم عليه استخدام سنان اللسان صلاحاً ودفاعاً.

والنموذج الذي بين يدينا من جمع إلى شجاعة السنان بطولة اللسان.. إنه صعصعة بن صوحان العبدي.

(صعصعة عظيم الشأن عضب اللسان، قائد فرسان قاتل أقران، يرتق ما فتق، ويفتق ما رتق، قليل النظير) [٣١]. كما قال عقيل بن أبي طالب..

أول موقف سجله التاريخ له موقف نباهة وذكاء مع الخليفة عمر بن الخطاب إذ بعث أبو موسى الأشعري مبلغ ألف ألف درهم (مليون) من بعض فتوحاته إلى المدينة. وقام الخليفة عمر بتوزيع هذه الأموال طبقاً للسياسة المالية التي اتخذها في عهده، ولكن فضلة من المال بقيت وبقي معها الخليفة عاجزاً عن التصرف فيها، فقام خطيباً وبعد أن حمد الله وأثنى عليه قال: أيها الناس قد بقيت لكم فضلة بعد حقوق الناس فما تقولون فيها ؟!.

فقام صعصعة بن صرحان وهو غلام شاب فقال: إنما تشاور الناس فيما لم يترل الله فيه قرآناً، وأما ما أنزل الله به القرآن ووضعه مواضعه فضعه في مواضعه التي وضعها الله تعالى فيها.

فقال عمر: صدقت أنت مني وأنا منك،- نقسمه بين المسلمين.

إلا إن دخوله إلى ساحة السياسة بشكل فعّال تم في أيام الخليفة عثمان ذلك أن الأوضاع العامة في عهده قد ساءت بصورة لم يسبق لها مثيل بينما تولّى بنو أمية وآل أبي العاص تحويل الخلافة الإسلامية إلى شركة مساهمة أموية، وأصبح السواد- وهو العمق الاستراتيجي للزراعة في العراق، ومصدر التمويل الأساسي لخزينة الدولة- أصبح بستاناً لقريش.

---

[31] / مروج الذهب ٣/ ٤٦.

وبينما عاد طرداء رسول الله أمثال الحكم بن أبي العاص وابنه مروان ليستمتعوا بخراج بستان قريش، فقد طرد أصحاب رسول الله الخلص من المدينة كأبي ذر، وعانى أمثاله أسوأ أنواع المعاملة فقد فتق بطن عبد الله بن مسعود وضرب عمار بن ياسر.

وكانت هذه وسواها من الأسباب التي جعلت جمهور المسلمين تغلي مراجل صدورهم ضـــده. وزاد الطين بلة تعيينه أمثال الوليد بن عقبة على الكوفة. وكان يصلي مخموراً ويتقيأ في المحراب، ولم يقبل بإقامة الحد عليه لأنه من أقاربه، (كان عثمان لا يترك صلة رحمه).

لذلك تنادت جماهير الأمة من مصرها إلى كوفتها إلى مدينتها بالثورة على عثمان، وكانت مطالب الثائرين معقولة، لأنها لم تطالب بتغيير الخليفة رأساً بل طالبت بإصلاح الأوضاع الفاسدة القائمة في تلك البلاد من عزل الولاة غير الصالحين، وتغيير سياساتهم السيئة إلاّ أن الخليفة لما كان في دوامة ريح مروان بن الحكم، فإنه واجه الناصحين بالعنف، وكان لا بد أن يجرّ العنف عنفاً مثله أو أكثر..

ها هو صعصعة مع وفد من المصريين داخلين على الخليفة ويقدمون صعصعة متكلماً. فيستـــصغره عثمان قائلاً: هذا؟!.

قال صعصعة: لو أن العلم لو كان بالسن لم يكن لي ولك فيه سهم ولكنه بالتعلم.

فقال عثمان: هات..

قال صعصعة: فقلت: بسم الله الرحمن الرحيم (الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور) .

فقال عثمان: فينا نزلت هذه الآية.

قال صعصعة: فمر بالمعروف وانه عن المنكر.

كان عثمان يتصور أن المجلس للافتخار بينما قدم أولئك في قضية إصلاح لذلك قال له مرة أخرى:

- دع هذا وهات ما عندك.

قال صعصعة: بسم الله الرحمن الرحيم (الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله).

فقال عثمان: وهذه أيضاً نزلت فينا.

قال صعصعة: فاعطنا بما أخذت من الله.

عثمان: عليكم بالسمع والطاعة فإن يد الله مع الجماعة وأن الشيطان مع الفرد فلا تسمعوا إلى قول هذا، وأن هذا لا يدري من الله ولا أين الله!!.

صعصعة: أما قولك عليكم بالسمع والطاعة فإنك تريد منا أن نقول غداً(ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا). وأما قولك إني لا أدري من الله فإن الله تعالى ربنا ورب آبائنا الأولين، وأما قولك لا أدري أين الله فإن الله تعالى بالمرصاد [٣٢].

غضب عندها الخليفة وطرد الوفد وأغلق الأبواب، ومع إغلاقها أقفل خط التفاهم بين الجمهور المعترض وبين الخليفة.

وتسارعت الأحداث في تطور غير محسوب، وكانت نار الثورة كلما هدأت، أشعلها مروان بخبثه والخليفة باستجابته، وذهبت محاولات أمير المؤمنين علي (ع) في تهدئة الأمور، والتوسط بين الفريقين، أدراج الرياح وهكذا وبعد أن (قام ثالث القوم نافجاً حضنيه بين نثيله ومعتلفه وقام معه بنو أبيه يخضمون مال الله خضمة الإبل نبتة الربيع إلى أن انتكث عليه قتله وكبت به بطنته..).

وقتل الخليفة عثمان على يد الثائرين!!.

وجاءت الجماهير التي افتقدت العدل إلى مثال العدالة، تهفو إلى حكمه كالفراشات إلى الضوء وشهد صعصعة وأمثالهم عودة الرسول (ص) في حكم علي (ع).

وكان لا بد أن يتحرك خط المصالح للقضاء على العودة الرسالية إلى روح الإسلام،وإلاّ انتقض غزل السنوات الماضية. ذلك أن تفرغ علي (ع) يعني أن تصبح ديار الظلم بلاقع، وأن هذه الثروات التي جمعت من الحرام تصادر، وأن الدين يرجع خالصاً لله ، فلا يصبح وسيلة ارتزاق..

وفي هذا ما لا يعجب الكثيرين.. لذلك اشتعلت الأرض تحت قدمي أمير المؤمنين حروباً وفتن. وكان المطلوب أن يكون الهم العسكري هو الأول لكيلا يتفرغ لهمّ الإصلاح الداخلي..

فكانت الجمل.. حيث خرجت زوجة رسول الله، التي أمرت بالبقاء في مترلها بنص القرآن (وقرن في بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى) !!.

ها هو كتاب يصل إلى زيد بن صوحان، أخ صعصعة، زيد الذي أرسل يده إلى الجنة، بعد أن قطعت في معركة جلولاء، مستلماً مجموعة أوامر عسكرية:

(من عائشة أم المؤمنين إلى ابنها الخالص زيد بن صوحان.. سلام عليك أما بعد فإن أباك كان رأساً في الجاهلية وسيداً في الإسلام وأنك من أبيك بمترلة المصلى من السابق [٣٣] يقال عاد أو لحق وقد بلغك الذي

[32] / الخطيب الشحشح صعصعة بن صوحان/ ٥٥.

[33] / السابق الذي يأتي أولاً في سباق الخيل والمصلي الذي يأتي بصلته بعده مباشرة.

كان في الإسلام من مصاب عثمان بن عفان ونحن قادمون عليك والعيان أشفى لك من الخبر فإذا أتـــاك كتابي هذا فثبط الناس عن علي بن أبي طالب وكن مكانك حتى يأتيك أمري والسلام).

ولما كان زيد كأخيه صعصعة على وعي كاف بالمواقف المطلوبة،فقد كان إلى جانب أمـــير المـــؤمنين ! بصلابة، فقد كتب زيد جواباً:

" من زيد بن صوحان إلى عائشة أم المؤمنين،. سلام عليك: أما بعد فإنك أمرت بأمر وأمرنـــا بغـــيره.، أمرت أن تقرّي في بيتك وأمرنا أن نقاتل الناس حتى لا تكون فتنة فتركت ما أمرت به وكتبت تنـــهينا عمّا أمرنا به، فأمرك عندي غير مطاع وكتابك غبر مجاب، "[٣٤].

وكان صعصعة و إخوانه أول المبادرين صفوف أمير المؤمنين (ع) للقتال فكانوا يخترقون الـــصفوف إلى القلب بعزم ثابت، وهمهم عقر الجمل الذي تحول إلى رمز لفقدان الوعي وبينما كان بنو ضبة يحوطـــون الجمل فإذا بقر الجمل، أخذوا بعره ووضعوه على آنافهم قائلين: إن رائحة بعر جمل أمّنا أطيـــب مـــن المسك !!.

وقد وصفهم أمير المؤمنين (ع): (كنتم جند المرأة واتباع البهيمة رغا فأجبتم وعقر فهربتم).

في المقابل كان البدريون والمهاجرون يحتفون بكوكب الهداية أمير المؤمنين علي (ع) يتسابقون إلى القتال، وهمهم عقر الجمل، فاستشهد زيد وسيحان أخوا صعصعة الذي جرح فحمـــل وقـــد أثخنتـــه الجراح.

واستمر صعصعة مع إمامه لا تزيده كثرة المصاعب إلاّ نقاء وزيادة إخلاص، فها هو يرى نفـــسه يواجه مع علي (ع) رايات الجاهلية الجديدة، وعلى رأسها الطلقاء وأبناء الأدعياء فيزيده ذلك بـــصيرة، أنه د ان لم يدرك صحبة الرسول (ص) و لم يقاتل تحت لوائه آنئذٍ، فها هو يقاتل تحت نفس اللواء بيـــد أمير المؤمنين (ع) .

ذاك هو معاوية ابن أبي سفيان والده عدو الرسول، وهر عدوّ الوصي ومعه جموع مـــن أخـــلاط الناس ودهمائهم ممن لا يفرق بين الناقة والبعير، جمعهم المال من كل صوب، وقد سبق إلى صفين بجنـــده فسيطر على شريعة الفرات وجعل عليها أبا الأعور السلمي في عدد كبير من محاربيه ليمنع أصحاب أمير المؤمنين من الماء..

فدعى الامام صعصعة وأرسله إلى معاوية ليقول له: أنا سرنا مسيرنا هذا ونحن نكره قتالكم قبـــل الإعذار إليكم فقدمت إلينا خيلك ورجالك فقاتلتنا قبل أن نقاتلك ونحن من رأينا الكف حتى نـــدعوك

[34] / شرح نهج البلاغة ٦/ ٢٢٧.

ونحتج عليك وهذه أخرى قد فعلتموها منعتم الناس من الماء، والناس غير منتهين فابعث إلى أصحابك فليخلوا بين الناس وبين الماء وليكفوا لننظر فيما بيننا وبينكم وفيما قدمنا له فإن أردت أن تترك ما جئنا له ونقتتل على الماء حتى يكون الغالب هو الشارب، فعلنا [٣٥].

وأدى صعصعة الرسالة لمعاوية، واستقر رأي معاوية ومستشاريه على منع الماء، ولذلك حمل الأشتر في مجموعة من الجيش على الشريعة حتى امتلكها وأزاح عنها عسكر معاوية، وبالرغم من اقتراح بعض الأصحاب على الإمام أن يمنع الماء عن أهل الشام فقد قال: خلوا بينهم وبينه لا أفعل ما فعله الجاهلون..

فحسبكم هذا التفاوت بيننا وكل إناء بالذي فيه ينضح

وحين حدثت فتنة الخوارج، كان صعصعة ممن قد أبصر النور فلم يستبدل به الظلام. بينما سدر أولئك الرجال في غيهم، أطالوا لحاهم وقصروا عقولهم، ولم ينفعهم كثرة صلاتهم وصومهم مع تعطيل عقولهم و إغلاق عيونهم، فمرقوا من الدين كما يمرق السهم عن الرمية.. وكان صعصعة هناك بلسانه وبسنانه بعدئذٍ!.. فقد قال الإمام علي (ع): يا أمير المؤمنين ائذن لي في كلام القوم.

فقال الإمام: نعم.. ما لم تبسط يداً.

فنادى صعصعة ابن الكواء فخرج إليه فقال صعصعة:

أنشدكم بالله يا معشر الخارجين أن لا تكونوا عاراً على من يغزو لغيره وأن لا تخرجوا بأرض تسموا بها بعد اليوم ولا تستعجلوا ضلال اليوم خشية ضلال عام قابل..

وفي محاولة ثانية أرسل أمير المؤمنين (ع) صعصعة بن صوحان ليناقش الخوارج، فذهب إليهم.. فقالوا له:

- أرأيت لو كان علي معنا في موضعنا أتكون معه؟! قال: نعم.

قالوا: فأنت مقلّد علياً دينك أرجع فلا دين لك!!.

عجيب أمر هؤلاء.. يوم أمس أكرهوا علياً(ع) تحت تهديد السلاح ليغمد سيفه وينتهي إلى (حكم القرآن) كما زعموا، وبالرغم من إصرار مالك الأشتر، امهلوني فواق ناقة حتى تنتهي الحرب بالنصر، فلم يسمعوا وكان معاوية قد جهز راحلة الهزيمة.. فهددوه بقتل الإمام إن لم يعد.. واليوم ها هم يشهرون السلاح في وجه الإمام لأنه قبل (بحكم القرآن) !!.

ما الذي ينفع المرء إن ضُرب على قلب هدايته، ونور بصيرته؟! فقال لهم صعصعة: ويلكم ألا أقلد من قلد الله فأحسن التقليد فاضطلع بأمر الله صديقاً لم يزل، أولم يكن رسول الله (ص) إذا اشتدت

---

[35] / الكامل لابن الأثير ٢/ ٢٨٤.

الحرب قدمه في لهواتها فيطأ صماخها بأخمصه ويخمد لهيبها بحده مكدوداً في ذات الله عنه يبر رسول الله (ص) والمسلمون فأنى تصرفون ؟! وأين تذهبون ؟ وإلى من ترغبون وعمن تصدفون ؟ عن القمر الباهر والسراج الزاهر وصراط الله المستقيم. قاتلكم الله أنّى تؤفكون؟ أفي الصديق الأكبر والغرض الأقصى ترمون طاشت عقولكم وغارت حلومكم وشاهت وجوهكم لقد علوتم القلة من الجبل وباعدتم العلة من النهل.

أتستهدفون أمير المؤمنين صلوات الله وسلام عليه ووصي رسول الله (ص) ، لقد سولت لكم أنفسكم خسراناً مبيناً فبعداً وسحقاً للكفرة الظالمين، عدل بكم عن القصد الشيطان وعمى لكم عن واضح الحجة الحرمان.

فقال عبد الله بن وهب الراسبي وهو زعيم الخوارج: نطقت يا ابن صوحان بشقشقة بعير وهدرت فأطنبت في الهدير، أبلغ صاحبك أنا مقاتلوه على حكم الله والتنزيل.

وأجابه صعصعة: كأني أنظر إليك يا أخا راسب مترملاً بدمائك يحجل الطير بأشلائك لا تجاب لكم داعية ولا تسمع لكم واعية يستحل ذلك منكم إمام هدى.. [٣٦]

وإذا كان أول الحرب الكلام، فما لبث الكلام أن انتهى ودارت رحى المؤمنين على المارقين فيها، وما قتل من عسكر أمير المؤمنين عشرة ولا سلم من الخوارج عشرة تماماً كما تنبأ (عليه السلام) .

وكان صعصعة يبحث عن رأس الأفعى، عبد الله بن وهب الراسبي، فوجده وقد علاه أبو أيوب الأنصاري بالسيف فأطار يده وقال بؤ بها إلى النار يا مارق.. فقال الراسبي: ستعلم أيّنا أولى بها صليا.. وهنا وصل صعصعة فوقف عليه قائلاً :

– أولى بها صلياً من ضلّ في الدنيا عمياً وصار إلى الآخرة شقياً أبعدك الله وأنزحك أما والله لقد أنذرتك هذه الصرعة بالأمس فأبيت إلاّ نكوصاً على عقبيك فذق يا مارق وبال أمرك [٣٧].

وأهوى بما ملك من قوة عليه بضربة أبان رجله، ثم بأخرى في بطنه، وعجل به إلى الهاوية.

وعاد أمير المؤمنين (ع) وملء قلبه الهم، ولو كان غيره لأقيمت له أقواس النصر.. ملء قلبه الحزن على مصير هذه الفئات الضالة.

عاد ليمسح الجروح الجديدة التي أضافها الخوارج على جبين الأمة،بعد الجمل وصفين و لم يمهله خفافيش الليل، فتحرك عبد الرحمان بن ملجم بدافع الجنس والرغبة في قطام، تلك المرأة المعتكفة في

---

[36] / الاختصاص/ ١٢١.

[37] / مروج الذهب ٣/ ٥٦.

حقدها وهواها، مع ساعات الفجر الأولى، وبضربة سيف مسموم فلق رأس الإمام (ع) وهو ساجد في بيت الله..

لقد كان بيت الله بدء حياته حيث ولد في الكعبة، وكان بيت الله مسك الختام..

لكأنّ السيف المسموم لم يترل على مفرق أمير المؤمنين بل على هيكل آمال المؤمنين، وعلى بسمات الفقراء وقلوب الأرامل واليتامى.. ومَن من المسلمين بقي غير يتيم ؟!.

لقد وقف صعصعة بعد أن دفن مع الإمام آماله في حكومة الحق والعدل، واضعاً يده على قلبه الجريح، والأخرى قد أهال بها التراب على رأسه.. وبكى قائلاً :

بأبي أنت وأُمي يا أمير المؤمنين، هنيئاً لك يا أبا الحسن فلقد طاب مولدك وقوي صبرك، وعظم جهادك وظفرت برأيك وربحت تجارتك، وقدمت على خالقك، فتلقاك ببشارته وحفتك ملائكته واستقررت في جوار المصطفى فكرمك الله بجواره ولحقك بدرجة أخيك المصطفى وشربت بكأسه الأوفى فأسأل الله أن يمن علينا باقتفائنا أثرك والعمل بسيرتك والموالاة لأوليائك والمعاداة لأعدائك وأن يحشرنا في زمرة أوليائك، فقد نلت ما لم ينله أحد، وأدركت ما لم يدركه أحد وجاهدت في سبيل ربك بين يدي أخيك المصطفى حق جهاده، وقمت بدين الله حق القيام حتى أقمت السنن وأبدت الفتن واستقام الإسلام وانتظم الإيمان فعليك مني أفضل الصلاة والسلام. بك اعتدل ظهر المؤمنين واتضحت أعلام السبل وما جمع لأحد مناقبك وخصالك، سبقت لإجابة النبي(ص) مقدماً مؤثراً وسارعت إلى نصرته، ووقيته بنفسك ورميت بسيفك ذي الفقار في مواطن الخوف والحذر، قصم الله بك كل جبار عنيد وذل بك كل ذي بأس شديد، وهدم بك حصون أهل الشرك والكفر والعدوان والردى وقتل بك أهل الضلال من العدى فهنيئاً لك يا أمير المؤمنين. كنت أقرب الناس من رسولى الله (ص) قربى وأولهم سلماً وأكثرهم علماً وفهماً فهنيئاً لك يا أبا الحسن فلا حرمنا الله أجرك وذلنا بعدك فو الله لقد كانت حياتك مغالق للشر وأن يومك هذا مفتاح كل شرّ ومغلاق كل خير ولو أن الناس قبلوا منك لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم ولكنهم آثروا الدنيا على الآخرة .

وهذه الكلمات بقدر ما كانت تفيض بحرارة العاطفة، فقد كانت مفعمة بعميق المعرفة منه لقائده (ع) ..

واستمر صعصعة صلباً في خط علي (ع)، لا تهزه العواصف الأموية ولا تزيله عن موقفه قواصف التهديد، وماذا بعد الحق إلاّ الضلال أترى أحداً ذاق طعم قرب علي فتجرع مرارة معاوية إلاّ فاسد العقل والدين ؟!.

لقد دخل معاوية الكوفة بعد أن خذل جيش الإمام الحسن (ع) قائده ، وأخذ الإمام على معاوية شروطاً، وكتب أماناً لكبار صحابة أمير المؤمنين (ع)، ولقي معاوية صعصعة في الكوفة قائلاً :

– إني كنت أبغض أن تدخل في أماني. فقال صعصعة :

– وأنا والله أبغض أن أسميك بهذا الاسم (أمرة المؤمنين).

ثم سلّم عليه بالخلافة فقال معاوية: إن كنت صادقاً فاصعد المنبر والعن عليّاً .

فصعد المنبر وحمد الله وأثنى عليه ثم قال:

(أيها الناس أتيتكم من عند رجل قدم شرّه وأخّر خيره وأنه أمرني أن ألعن علياً فالعنوه لعنه الله) فضج أهل المسجد بقولهم: آمين، فلما علم معاوية.. قال والله ما عنيت بها غيري ارجع حتى تسمي الأسماء بأسمائها.. فرجع وصعد المنبر ثم قال:

– أيها الناس إن أمير المؤمنين أمرني أن ألعن علياً ابن أبي طالب فالعنوه. فضج الحضور بآمين فلمّا أخبر معاوية قال: والله ما عنى غيري.. و لم تكن هذه، الحادثة الوحيدة بين صعصعة ومعاوية فما من مجلس جمعهما إلاّ وتحول إلى مناظرة ومنافرة.

فقد دخل صعصعة عليه وهو يقول :

– الأرض لله وأنا خليفة الله فما آخذ من مال الله فهو لي وما تركت منه كان جائزاً لي !!.

يقول ذلك وعنده (وجوه الناس) كما يقول المسعودي، فلا يقوم أحد ليسأله عن ذلك، لقد ختنت ألسنتهم!! فقال صعصعة، تلميذ علي (ع) الذي تعلم أن ينكر المنكر ما استطاع لذلك سبيلا:

تمنيك نفسك مالا يكون   جهلاً معاوي لا تأثم

فقال له معاوية: يا صعصعة تعلمت الكلام، فقال: صعصعة:

– العلم بالتعلم ومن لا يعلم يجهل، فغضب معاوية وقال:

– ما أحوجك إلى أن أذيقك وبال أمرك. فأجابه صعصعة:

– ليس ذلك بيدك، ذلك بيد الذي لا يؤخر نفساً إذا جاء أجلها.

– فسأله ومن يحول بيني وبينك ؟!.

– الذي يحول بين المرء وقلبه، قال صعصعة.

فضاق به معاوية وقال: اتسع بطنك للكلام كما اتسع بطن البعير للشعير.

فقال: اتسع بطن من لا يشبع ودعا عليه من لا يجمع [٣٨].

---

38 / مروج الذهب ٣/ ٥٢.

و لم يتسع صدر معاوية (الحليم) على غير أنصار أمير المؤمنين (ع)، لم يتسع صدره لوجود صعصعة في الكوفة، لأنه وهب جناناً كالسنان ولساناً قاطعاً، وسيفاً عند الحاجة لذلك أمر المغيرة بنفيه من الكوفة إلى البحرين، وتوفي فيها.

٤- محمد بن أبي بكر بن أبي قحافة

الوفاة: شهيداً سنة ٣٨ هـ في مصر

عمره ٢٨ سنة

(إنه كان لي ربيباً وكان لبنيّ أخاً وكنت له أعد والداً وأعده ولداً)

أمير المؤمنين علي بن أبي طالب

خرج المسلمون إلى إحدى الغزوات.

وكانت المدينة على موعد مع مولود جديد، ففي بيت أبي بكر ابن أبي قحافة جلست زوجته أسماء بنت عميس تعد الليالي انتظاراً لمولودها، ولكنها تفيق هذه الليلة من نومها فزعة مرعوبة، فما هي تلك الرؤيا التي أقضت مضجعها؟!.

جاءت إلى عائشة زوجة الرسول (ص):

- رأيت في المنام كأن أبا بكر متخضب بالحناء رأسه ولحيته وعليه ثياب بيض.

وبكت عائشة:

- إن صدقت رؤياك فقد قتل أبو بكر.. إن خضابه الدم وأن ثيابه أكفانه. وبكت أسماء بنت عميس ، فما هذا الحظ السيء ، الذي يلاحقها؟! فقبل سنوات فقدت زوجها الأول جعفر ابن أبي طالب (الطيار) في غزوة موتة، فهل تفقد زوجها الثاني اليوم ؟! وماذا ستصنع بالمولود الجديد الذي لم تشأ له الأقدار أن يرى والده ؟!.

وحينما تجسدت معالم المصيبة في عينيها زاد نشيجها.

الرسول (ص) يدخل الدار، ويرى حالة الحزن المخيمة على من فيها ويستعلم السبب، وعندما تخبره عائشة عن الرؤيا وتعبيرها لها، يقول ليس الأمر كما عبرت ولكن أسماء تلد غلاماً نسميه محمداً يجعله الله تعالى غيظاً على الكافرين والمنافقين.

وكان أن كتب الرسول الصادق مستقبل محمد قبل ولادته، وطريقة الحياة التي سوف يسلكها في آتي أمره، إلاّ أن الغريب كلام الرسول (ص) عن الكافرين وغلظته عليهم، والحال أن محمد ابن أبي بكر لم ينقل عنه مواقف كثيرة في مواجهة الكافرين، بالمعنى المعروف، بينما كان له العديد من المواقف الغليظة تجاه مسلمي الهوية كافري الممارسة.

كان محمد ابن أبي بكر وقد ولد متأخراً، فلم يستطع- لذلك- المشاركة في غزوات الرسول (ص) وحروبه، أراد التعويض عن ذلك بالمواقف الشجاعة ضد خطوط الانحراف عن الهدى المحمدي والنهج العلوي.. فاحتمى بأمير المؤمنين (ع) خصوصاً بعد وفاة أبيه أبي بكر وكان عمره آنئذٍ لا يتجاوز الخامسة من العمر، وأصبح ربيب الإمام (ع) وفي بيته.

لقد صاغ الإمام علي (ع) شخصية محمد بأخلاقه وتعاليمه حتى غدا تلميذا ينتهل من نمير علمه، بل ابناً له، فقد آثر عنه (ع) أنه قال (محمد ابني من صلب أبي بكر). وإذا كان يتخرج من مدرسة الإمام علي (ع) أمثال عمار بن ياسر، والمقداد، والأشتر ونظرائهم من أبطال الإسلام، فما ظنك بمن يكون في بيت الإمام (ع) لقد كان للإمام ربيباً ولبنيه أخاً وكان يعد له والداً، ويعد للأمام ولداً.

يتقدم العمر بمحمد و يغدو شاباً فيما يتقدم في معرفة مفاهيم الدين ويتخرج من مدرسة الإمام (ص) إلى حيث سيواجه الوضع السياسي الاستثنائي الذي خلقه سيطرة بني العاص وأمية على مقاليد أمور المسلمين أيام الخليفة الثالث، لنلتقي مع أول دور سياسي واضح لابن أبي بكر في معارضة هذا الوضع والتأليب عليه.

و لم يكن محمد وحده في هذا الميدان فقد كان فيه كبار الصحابة كابن مسعود وعمار وأبي ذر والزبير وابن عباس، كانت أم المؤمنين عائشة أشد هؤلاء جميعاً.

فهلم عزيزي القارئ، نذهب إلى المدينة حيث تتموج فيها أخبار الخليفة عثمان مع أقاربه ومع صحابة الرسول (ص)، فإذا بها حديث كل سمر وفئة، فلنستمع إلى متحدث هذه الفئة الساهرة عن خبر ابن مسعود. فقد عزل الخليفة عثمان سعد ابن أبي وقاص عن الكوفة وولى الوليد بن عقبة الذي نزلت فيه آية (إن جاءكم فاسق بنبأ فتبيّنوا)، ولا يخفى أن الوليد من أرحام الخليفة من قبل أمه!. فلما جاء الوليد إلى الكوفة، ألقى عبد الله بن مسعود مفاتيح بيت المال إليه واستقال من عمله.. وكان يحتج على ذلك بقوله:

– من غيّر غيّر الله ما به ومن بذل أسخط الله عليه وما أرى صاحبكم إلا وقد غير وبذل أيعـزل مثل سعد ابن أبي وقاص ويولى الوليد ؟!.

لم يستطع الوالي الجديد أن يتحمل نقد عبد الله بن مسعود، فكتب إلى الخليفة أنه يعيبك ويطعن عليك.. جاء رد الخليفة بإشخاص ابن مسعود إلى المدينة فاجتمع الناس وقالوا له: أقم ونحن نمنعك أن يصل إليك شيء تكرهه.

لم يكن ابن مسعود يرى إعلان العصيان، فقال: إن له عليّ حق الطاعة ولا أحب أن أكون أول من فتح باب الفتن.

وخرج عبد الله بن مسعود معلم القرآن مخفوراً بأمر الخليفة بينما شيعه أهل الكوفة بكلمات تـنم عـن تقديرهم لدوره:

– جزيت خيراً فلقد علّمت جاهلنا وثبت عالمنا وأقرأتنا القرآن وفقهتنا في الدين فنعم أخو الإسلام أنت ونعم الخليل..

إلى المدينة وبينما كان الخليفة يخطب على منبر الرسول، وصل ابن مسعود واتجـه إلى المـسجد، وحيث رآه الخليفة من على المنبر قال: ألا إنه قد قدمت عليكم دويبة [39] سوء من يمشي على طعامه يقيء ويسلح (!!).

كان هذا الكلام– بغض النظر عن ملاءمته لموقع المسجد، والحاضرين ومدى صـحته– إعلانـاً للحرب على ابن مسعود، الذي ردّ بشكل سلمي قائلاً : لست كذلك ولكني صاحب رسول الله يـوم بدر ويوم بيعة الرضوان. من خلف المسجد كانت عائشة تسمع فقالت: يا عثمان أتقول هذا لـصاحب رسول الله ؟! فقال لها اسكتي .

وأمر عثمان به فأخرج من المسجد إخراجاً عنيفاً، واحتمله يحموم غلام عثمان ورجلاه تختلفـان على عنقه حتى ضرب به الأرض فدق ضلعه [40].

ما إن انتهى المتحدث من نقل الخبر حتى ماجت تلك الفئة الساهرة.. كيف يقوم الخليفة بهذا الصنع مع معلم القرآن ؟!.

وإذا كان هذا حال الخليفة مع ابن مسعود الصحابي الكبير فما الذي يمنعه من ذلك مع غـيره ؟! قـال أحدهم..

---

39 / تصغير دابة.

40 / أنساب ا لأشراف/ ٥.

ردّ الآخر: دعك من هذا فهل بقي لأحد حرمة ؟! هذا حال عبد الله بن مسعود، وذاك حال أبي ذر وتسييره إلى الربذة، ودع عنك حديث عمار بن ياسر وهو جلدة ما بين عين الرسول وأنفه.. هل تعلمون ما صنع الخليفة مع عمار؟! بل ما قاله لعلي بن أبي طالب وهو من لا يجهل قدره..

- قل لنا ما حديث عمار؟! طلب بعض الجالسين منه.

اجتمع الناس من أصحاب رسول الله (ص) وكتبوا كتاباً ذكروا فيه (ما خالف فيه عثمان من سنة رسول الله وسنة صاحبيه، وما كان من هبته خمس إفريقية لمروان وفيه حق الله ورسوله ومنهم ذوو القربى واليتامى والمساكين. وما كان من تطاوله في البنيان حتى عدوا سبع دور بناها بالمدينة، داراً لنائلة وداراً لعائشة وغيرهما من أهله وبناته، وبنيان مروان القصور بذي خشب وعمارة الأموال بها من الخمس الواجب لله ولرسوله، وما كان من إفشائه العمل والولايات في أهله وبني عمه من بني أمية من أحداث وغلمة لا صحبة لهم من الرسول ولا تجربة لهم بالأمور، وما كان من الوليد بن عقبة بالكوفة إذ صلى بهم الصبح وهو أمير عليها سكران أربع ركعات ثم قال لهم إن شئتم أن أزيدكم ركعة زدتكم، وتعطيله إقامة الحد عليه وتأخيره ذلك عنه، وتركه الأنصار والمهاجرين لا يستعملهم على شيء ولا يستشيرهم واستغنى برأيه عن رأيهم وما كان من الحمى الذي حمى حول المدينة، وما كان من إدراره القطائع والأرزاق والأعطيات على أقوام بالمدينة ليست لهم صحبة من النبي (ص) ثم لا يغزون ولا يذبون، وما كان من مجاوزته الخيزران إلى السوط، وأنه أول من ضرب بالسياط على ظهور الناس وإنما كان ضرب الخليفتين قبله بالدرة والخيزران.

ثم تعاهد القوم ليدفعن الكتاب في يد عثمان وكان ممن حضر الكتاب عمار بن ياسر والمقداد بن الأسود وكانوا عشرة، فلما خرجوا بالكتاب ليدفعوه إلى عثمان والكتاب في يد عمار جعلوا يتسللون عن عمار حتى بقي وحده فمضى حتى جاء إلى دار عثمان فاستأذن عليه فأذن له في يوم شات، فدخل عليه وعنده مروان بن الحكم وأهله من بني أمية فدفع إليه الكتاب فقرأه. فقال:

- أنت كتبت هذا الكتاب؟! قال عمار: نعم.

قال عثمان: ومن كان معك؟

- معي نفر تفرقوا فرقاً (خوفاً) منك .

- ومن هم ؟

- لا أخبرك بهم .

- فلم اجترأت عليّ من بينهم؟!.

كان ينبغي أن يستقبل الخليفة هذه المطالب الإصلاحية وينظر فيها قبل أن تتحـــول إلى مـــادة لإثـــارة السخط.. إلاّ أن الخليفة عذ ذلك ذنباً وتجرياً عليه، و لم يفوت مروان الفرصة فقال: يا أمير المؤمنين: إن هذا العبد الأسود (يعني عماراً) قد جرأ عليك الناس وإنك إن قتلته نكلت به من ورائه.. فقال عثمان: اضربوه.

فضربوه.. وضربه عثمان معهم حتى فتقوا بطنه فغشي عليه فجروه حتى طرحوه على باب الدار. فأمرت به أم سلمة زوج النبي صلى الله عليه وآله فأدخل مترلها.

ثم خرج عثمان إلى المسجد فإذا هو بعلي وهو شاك معصوب الرأس فقال عثمان له:

- والله يا أبا الحسن ما أدري أشتهي موتك أم حياتك فو الله لئن مت ما أحب أن أبقى بعدك لغـــيرك لأني لا أجد منك خلفاً، ولئن بقيت لا أعدم طاغياً يتخذك سلماً وعضداً ويعدك كهفاً وملجأ...

فأجابه علي: إن فيما تكلمت به لجواباً ولكني عن جوابك مشغول بوجعي فأنا أقول كما قـــال العبد الصالح:(فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون) [41].

تحول الهمس والكلام في السهرات والتجمعات المحدودة إلى الاعتراض المباشر والعلـــني، وبـــدأت المعارضة تنتقل من المدينة إلى سائر البلاد الإسلامية، لتتفاعل مع الأسباب المحلية للثورة ولتتعاظم أكثـــر. وذهبت الرسل هنا وهناك.

وكان في الطليعة محمد ابن أبي بكر، فقد راعه أن تتحول مراكز رماح المسلمين، وفيئهم إلى ملك شخصي، وعقارات خاصة لبني أمية وأتباعهم، بينما يهان أصحاب الرسول إلى حد الضرب والإصـــابة بالفتق ورض ا لأضلاع.

وبينما يطرد أبو ذر الغفاري أصدق الناس لهجة ويغرب عن مدينة الرسول إلى صحراء الربـــذة. يعود عبد الله بن سعد ابن أبي سرح الذي أهدر الرسول دمه، معززاً مكرماً، ويعطى مصر هدية!!.

لذلك ذهب مع محمد ابن أبي بكر إلى مصر بعد ذهاب عبد الله بن سعد ابن أبي سرح وتكلما بين الناس طاعنين على الخليفة قائلين: استعمل عثمان رجلاً أباح رسول الله دمه يوم الفتح ونـــزل القـــرآن بكفره حين قال: سأنزل- مثلما أنزل الله.

******

---

[41] / الإمامة والسياسة/ ٣٣.

تطورت الأحداث أسرع مما كان يظن الجميع، فالخليفة لم يلتزم بما عاهد عليه أولاً من الالتزام في مجلس الشورى (بكتاب الله وسنة نبيه وسيرة الشيخين) ولا ثانياً عندما أعطى للمعارضة عهداً بالإصلاح والتغيير.

لذلك التقى أهل الأمصار الثلاثة: الكوفة- والبصرة- ومصر في المسجد الحرام قبل مقتل عثمان بعام ، فتذاكروا سيرة عثمان وتبديله وتركه الوفاء بما أعطى من نفسه وقالوا لا يسعنا الرضى بهذا. واجتمع رأي رؤسائهم على أن يكونوا رسل من شهد الموسم إلى من كان على مثل رأيهم، وأن يوافوا عثمان في العام القادم فيستمعوه فإن أعتب و إلاّ رأوا رأيهم فيه.

كان ذلك في سنة ٣٥ هـ عندما جاءت الوفود محاصرة قصر الخليفة، قائلين: ".. إنا لن نضع سيوفنا عن عواتقنا حتى تأتينا منك توبة مصرحة أو ضلالة مجلّحة مبلّجة ". وكتب إليهم الخليفة- بعد طلبه من الإمام علي أن يضمنه أمام الثوار- كتاباً جاء فيه:

هذا كتاب من عبد الله عثمان أمير المؤمنين لمن نقم عليه من المؤمنين والمسلمين إن لكم أن أعمل فيكم بكتاب الله وسنة نبيه، يعطي المحروم ويؤمن الخائف ويرد المنفي ولا تجمر البعوث ويوفر الفيء، وعلي بن أبي طالب ضمين المؤمنين والمسلمين على عثمان بالوفاء في هذا الكتاب.

وكادت الأمور تسير في اتجاه الهدنة والتفاهم إلاّ أن مروان بن الحكم الذي كان أول المتضررين من خطوات الإصلاح لم يرقه سير الأمور بذلك الشكل، فدخل على الخليفة وقال له: بأبي أنت وأمي والله لوددت أن مقالتك هذه كانت وأنت ممنع منيع فكنت أول من رضي بها وأعان عليها لكنك قلت ما قلت حين بلغ الحزام الطبيين وخلف السيل الزبى وحين أعطى الخطة الذليلة الذليل والله لإقامة على خطيئة تستغفر الله منها أجمل من توبة تخوف عليها وإنك إن شئت تقربت بالتوبة ولم تقر بالخطيئة وقد اجتمع إليك على الباب مثل الجبال من الناس. فقال عثمان: فاخرج إلى الناس فكلمهم فإني أستحي أن أكلمهم.

وهكذا سدد مروان السهم القاتل لفكرة التغيير والاستجابة للإصلاح في نفس عثمان وبقي عليه أن يكمل المهمة. فخرج إلى الباب والناس يركب بعضهم بعضاً فأشار إليهم قائلاً :

- ما شأنكم قد اجتمعتم.؟ كأنكم جئتم لنهب، شاهت الوجوه، كل إنسان آخذ بأذن صاحبه، جئتم تريدون أن تنزعوا ملكنا من أيدينا، اخرجوا عنا، أما والله لئن رمتمونا ليمرن عليكم منا أمر لا يسركم ولا تحمدوا غب رأيكم، ارجعوا إلى منازلكم فإنا والله غير مغلوبين على ما في أيدينا [٤٢] .

---

[42]/ الكامل لابن الأثير ٣/ ١٦٥

كان بعض الوفود قد عاد في طريقه إلى بلده، ومحمد ابن أبي بكر في وفد المصريين الذين أشاروا على الخليفة بتوليته على مصر، عادوا يحدثون أنفسهم بأماني الإصلاح، وبمستقبل العدل..

من بعيد لاح لهم ومن خلال الغبار المثار رجل على بعير، يخبطه خبطاً كأنه رجل يطلب أو يُطلب، فشك فيه أصحاب محمد ابن أبي بكر، فأحضروه- من أنت؟! فتلجلج- مرة يقول أنا غلام أمير المؤمنين وأخرى أنا غلام مروان .- معك كتاب ؟! قال: لا.

ففتشوه وأخرجوا من عنده كتاباً من عثمان إلى عبد الله ابن أبي سرح. وجمع محمد ابن أبي بكر من كان معه من المهاجرين والأنصار ثم فتح الكتاب فإذا فيه:

إذا أتاك محمد ابن أبي بكر وفلان وفلان فاحتل لقتلهم وأبطل كتاب محمد وقرّ على عملك حتى يأتيك رأيي واحبس من يجيء إليّ متظلماً منك إن شاء الله.

وسواء كان ذلك كتاب عثمان أو باسمه كتبه مروان، فالأولى عدها هؤلاء خيانة، والثانية عجزا وعدم صلاحية، فلووا زمام رواحلهم عائدين للمدينة، حيث سيشهدون وسيشاركون في قتل الخليفة.

****

ما كاد الإمام علي (ع) يستلم زمام الأمور بعد قتل عثمان ، وإقبال الناس عليه، للبيعة، حتى نكثت طائفة (الجمل).

وربما كان الموقف دقيقاً وحرجاً، لو لم يكن في الطرف الآخر محمد، ذلك أن على رأس الجيش البصري كانت أخت محمد عائشة بنت أبي بكر زوجة الرسول (ص). إلاّ أن محمداً الذي لا يعرف له والداً غير الإمام ولا نسباً غير خطه، كان أشد من غيره في المعركة.

وإذا كانت الفتنة تحتاج إلى من يلقحها، فقد كان عبد الله بن الزبير ملقح فتنة الجمل، إذ يقول ابن عباس: أتيت الزبير فوجدته في بيت يتروح في يوم حار وعبد الله ابنه عنده، فقال: مرحباً بك يا أبا لبابة.. أجئت زائراً أم سفيراً ؟! قلت: كلا، إن ابن خالك (أمير المؤمنين) يقرأ عليك السلام ويقول لك، يا أبا عبد الله كيف عرفتنا بالمدينة وأنكرتنا بالبصرة؟! فقال:

علقتهم إني خلقت عصبة قتادة تعلقت بنشبة

لن أدعهم حتى أولف بينهم. قال: فأردت منه جواباً غير ذلك.

فقال لي ابنه عبد الله : قل له بيننا وبينك دم خليفة ووصية خليفة واجتماع اثنين وانفراد واحد وأم مبرورة ومشاورة العشيرة.. فعلمت أنه ليس وراء ذلك إلاّ الحرب.

وتقابل الجيشان: علي أمير المؤمنين (ع) في أصحابه البدريين والأحـــديين، وذوي البـــصائر، في جانب وعائشة حليلة الرسول التي أمرت بأن تقرّ في بيتها في جانب و الغوغاء من بني ظبة وأشباههم ممن كانوا يأخذون بعر الجمل فيفتّونه ويضعونه على آنافهم وعيونهم قائلين: بعر جمل أمّنا له ريح المسك!!.

لقد كان الجمل صنم أصحابه ورمز ثباتهم لذلك فإن أربعة آلاف مقاتل كانوا يحيطون به علـــى شكل حلقات وأكثر من قتل كان حوله.. ولذلك ما إن طعن حتى انتهت المعركة.

وجاء محمد ابن أبي بكر وعمار يقطعان الانساغ والبطان عن الجمل واحتملا الهودج الذي كانت فيه عائشة، ثم اطلع إليها أخوها محمد، فقالت: من أنت؟!.

قال: أبغض أهلك إليك. قالت: ابن الخثعمية؟ (تعني أسماء بنت عميس). فال: نعم و لم تكن دون أمهاتك.

قالت: لعمري بل هي شريفة د ع عنك هذا الحمد لله الذي سلمك.

قال: قد كان ذلك ما تكرهين.. قالت: لو كرهته ما قلت ما قلت.

قال: كنت تحبين الظفر وأني قتلت.

وجاء علي أمير المؤمنين (ع) فقرع الهودج وقال:- بهذا وصّاك رسول الله؟! [٤٣].

****

انتهت معركة الجمل.. وعاد أمير المؤمنين (ع) إلى الكوفة، وأرسل ولاته إلى بلاد الإسلام المختلفة لتنعم بعدلهم، بعد أن ذاقت الأمرين من ظلم السابقين..

ومصر.. البلد الذي يتحلب لاسمه فم ابن العاص، والذي باع دينه لمعاوية من أجل الحصول على أطعمتها. بلد الخيرات، كان في رأس قائمة الاهتمام.

أرسل الإمام (ع) محمد ابن أبي بكر ليحل محل قيس بن سعد بن عبادة على ولاية مصر. وكـــان فيها بعض الجيوب المتمردة التي رفعت - كغيرها- قميص الطلب بدم عثمان ورأسهم في ذلك الأمـــر معاوية بن خديج ا لسكوني..

حاول معاوية ابن أبي سفيان استمالة محمد ابن أبي بكر عن طريق الكتب إلى جانبه، ولكن محمداً الذي كان قد أوتي بصيرة كاملة، ردّ عليه في مكاتبات عديدة بما يقطع أمله منه:

بسم الله الرحمن الرحيم

---

[43] / النصرة في حرب البصرة للمفيد/ ١٩٧.

من محمد ابن أبي بكر إلى الغاوي معاوية بن صخر. سلام على أهل طاعة الله ممن هو مسلم لأهل ولاية الله، أما بعد: فإن الله بجلاله وعظمته وسلطانه وقدرته خلق خلقاً بلا عنت ولا ضعف في قوته ولا حاجة به إلى خلقهم ولكنه جعلهم عبيداً وجعل منهم شقياً وسعيدا وغوياً ورشيداً ثم اختارهم على علمه فاصطفى وانتخب منهم محمداً (ص) فاختصه برسالته واختاره لوحيه وائتمن على أمره وبعثه رسولاً مصدقاً لما بين يديه من الكتب ودليلاً على الشرائع فدعا إلى سبيل ربّنا بالحكمة والموعظة الحسنة فكان أول من أجاب وأناب وصدق ووافق وأسلم وسلّم أخوه وابن عمه علي بن أبي طالب (ع) فصدقه بالغيب المكتوم وآثره على كل صميم فوقاه كل هول وواساه بنفسه في كل خوف فحارب حربه وسالم سلمه فلم يبرح مبتذلاً نفسه في ساعات الأزل (الضيق) ومقامات الروع حتى برز سابقاً لا نظير له في جهاده ولا مقارب له في فعله وقد رأيتك تساميه وأنت أنت وهو هو المبرز السابق في كل خير أول الناس إسلاماً وأصدق الناس نية وأطيب الناس ذريّة وأفضل الناس زوجة وخير الناس ابن عم. وأنت اللعين ابن اللعين. ثم لم تزل أنت وأبوك تبغيان الغوائل لدين الله وتجهدان على إطفاء نور الله وتجمعان على ذلك الجموع وتبذلان فيه المال وتحالفان فيه القبائل، على ذلك مات أبوك وعلى ذلك خلفته والشاهد عليك بذلك من يأوي ويلجأ إليك من بقية الأحزاب ورؤوس النفاق والشقاق لرسول الله (ص) ، والشاهد لعلي مع فضله المبين وسبقه القديم، أنصاره الذين ذكروا بفضلهم في القرآن فأثنى الله عليهم من المهاجرين والأنصار فهم معه عصائب وكتائب حوله يجالدون بأسيافهم ويهريقون دماءهم دونه يرون الفضل في اتباعه والشقاء في خلافه فكيف- يا لك الويل- تعدل نفسك بعلي وهو وارث رسول الله ووصيه وأبو ولده وأول الناس إتباعاً وآخرهم به عهداً يخبره بسره ويشركه في أمره وأنت عدوه وابن عدوه؟! فتمتع ما استطعت بباطلك وليمدد لك ابن العاص في غوايتك فكأن أجلك قد انقض وكيدك قد وهى وسوف يستبين لمن تكون العاقبة العليا واعلم أنك إنما تكايد ربك الذي قد آمنت كيده وآيست من روحه وهو لك بالمرصاد وأنت منه في غرور وبالله وأهل رسوله عنك الغناء والسلام على من اتبع الهدى [٤٤].

فيما رأى معاوية أن بقاء محمد ابن أبي بكر- وهر الصلب القوي في ولائه لعلي (ع) والياً على مصر، قد يهدد حتى موقعه في الشام، فكر في احتلال مصر. ودعى من أصحابه عمرو بن العاص وبسر ابن أبي أرطأة وعبد الرحمن بن خالد بن الوليد والضحاك بن قيس:

- أتدرون لم جمعتكم؟! فإني جمعتكم لأمر مهم لي. فقال عمرو بن العاص.

---

[44] / الغدير ١٥٩/١٥.

– دعوتنا لتسألنا عن رأينا في مصر، فإن كنت جمعتنا لذلك فاعزم واصبر فنعم الرأي رأيـــت في افتتاحها فإن فيه عزّك وعزّ أصحابك وكبت عدوك وذل أهل الشقاق عليك.

و لم يفت معاوية بريق عيني ابن العاص، وهي تنتشي بالرغبة من ولاية مصر فقال له:
– أهمك ما أهمك! (وذلك أن عمراً كان قد صالح معاوية على قتال علي (ع) على أن له مصر طعمة ما بقي).. وبدأ التخطيط... ابن العاص الذي كان متعجلاً ابتلاع هذه الطعمة التي باع لأجلها دينه قـــال: أرى أن تبعث جيشاً كثيفاً عليهم رجل حازم صابر صارم تأمنه وتثق به فيأتي مصر فإنه سيأتيه من كان على مثل رأينا فيظاهره على عدونا فإن اجتمع جندك ومن بها على رأينا رجوت أن ينصرك الله (!!).

أما معاوية فقال: أرى أن نكاتب من بها من شيعتنا فنمنيهم ونأمرهم بالثبات ونكاتب من بها من عدونا فندعوهم إلى صلحنا ونمنيهم شكرنا ونخوّفهم حربنا فإن كان من أردنا بغير قتال فذاك الذي أردنا وإلاّ كان حربهم بعد ذلك.

وكتب معاوية إلى محمد مسلمة بن مخلد ومعاوية بن حديج السكوني، يحثهما على الطلـــب بـــدم عثمان.. ودائماً دم عثمان وقميص عثمان، فابن العاص الذي كان يقول: إني كنت لأؤلب الراعـــي في غنمه على عثمان ، هو القائل أنا أبو عبد الله قتلته وأنا بوادي السباع . دخل إلى الشام وهو يبكي كما تبكي المرأة وهو يقول: واعثماناه ! أنعي الحياء والدين!! في يوم آخر.. وهكذا بيع الـــدين والإســـلام بأبخس الأثمان..

و لم يكن أولئك أقل في تجارة الدين من صاحبيها، فردا الجواب بضرورة التعجيل. وجمعا أوباشهما ممن لا يفرقون بين الناقة والجمل، ولا يعرفون من ولا لماذا يقاتلون!! وجاءهم عمرو بن العاص على ستة آلاف من الشام.

والتحم الجيشان– كنانة بن بشر على ألفين من مقاتلة المصريين ومعه محمد ابن أبي بكر على ألفين آخرين، وفي المقابل ستة آلاف من أهل الشام، وردفهم معاوية بن حديج في مثل الدهم.
وأبدى كنانة بن بشر من البطولة الشيء الكثير فقد كان يرد الكتائب حتى يلحقها بمواضـــعها الأولى.. لكن عادة ما كانت الكثرة تغلب الشجاعة. فأحاطت به كتائب ابن حديج، ونزل كنانة عـــن فرســـه فقاتلهم راجلاً حتى استشهد رضوان الله عليه..

وبان الانكسار في جيش ابن أبي بكر، وبدأ من همه الدنيا بالتفرق عنه وأصابته جـــروح كـــثيرة، وأسر، وقد كاد يموت عطشاً. فقال لهم: اسقوني ماء !! .

معاوية بن حديج الذي كان لايزال في دكان المتاجرة يقتل عثمان قال له: لا سقاني الله إن سقيتك قطرة أبداً، إنكم منعتم عثمان شرب الماء ! والله لأقتلنك حتى يسقيك الله من الحميم والغساق!.

أجابه محمد: يا ابن اليهودية النساجة ليس ذلك إليك إنما ذلك إلى الله يسقي أوليائــه ويظمــيء أعدائه أنت وأمثالك! أما والله لو كان سيفي بيدي ما بلغتم مني هذا [٤٥].

لماذا كان خط أهل البيت (ع) يجسد التزامه بقيم الإسلام حتى تصبح سيرة قادته سنّة، ومواقفهم مبادئ، وإذا بهم الإسلام الناطق المجسد، وجدنا سيرة أعدائهم مترعة بالحقد، حافلة بالطرق الجاهلية، إذ لم يمس الإسلام منهم إلاّ القشر الظاهري، ولسان حالهم: ما قاتلتكم لتصفوا ولا لتصوموا ولا لتحجوا.. قاتلتكم لأتأمر عليكم.

- أتدري ما أصنع بك؟! قال معاوية بن حديج لربيب أمير المؤمنين محمد. أدخلك في جوف حمار ثم أحرقه عليك بالنار.

تبسم محمد ورأى أي عقل صغير يحمل هذا الرجل وأي حقد كبير و قال:

- إن فعلت بي ذلك فلطالما فعلتم ذلك بأولياء الله وإني لأرجو أن يجعلها عليك وعلــى أوليائــك ومعاوية وعمرو ناراً تلظى كلما خبت زادها الله سعيراً..

ودخن حقد القلب الجاهل، بينما كانت وردة محمدية تذوي في عزّ الشباب بلهيب النار المشتعلة.

وكما أقام عمرو بن العاص حفلاً ضخماً لوصوله إلى طعمته بقتل محمد ابن أبي بكر فقــد كــان (حزننا عليه على قدر سرورهم بقتله لا بل يزيد أضعافاً) كما قال أمير المؤمنين (ع).

[45] / الكامل لابن الأثير ٣/ ٣٥٧.

٥- خالد بن سعيد بن العاص الأموي
شهيداً في مرج الصفر سنة ١٣ هـ

من الشوك خرج العنب هذه المرة.

ومن سواد الليل البهيم ولد النور والمعرفة، وهكذا في أرض سبخة أموية تفتحت وردة حمراء محمدية.

نعم من صلب سعيد بن العاص الأموي أعدى أعداء الرسالة وفي بيته تربى خالد الذي قدر له أن يصبح من أفضل أصحاب الرسول وأنصار أمير المؤمنين. فلنر كيف يخرج من الشوك العنب؟.

اهتزت مجالس قريش بقدر ما اهتزت كبرياؤها، فلا نجد حديثاً غير حديث " محمد" ودينه، هذا الدين العجيب في كل شيء، العجيب في جرأته على رفض ثقافة قريش، وكنس تاريخها، وفي عدم قبوله للحلول الوسط، وعدم مراعاته للتقاليد السائدة.

وأعجب من كل ذلك اكتساحه لكل دفاعات قريش، إنه كالسيل لا يوقف انتشاره وتقدمه تعذيب أو محاصرة، لقد أخذ قلوب الفقراء، والضعفاء، وأيضاً بيوت الكبراء والأثرياء.

إنه بيت سعيد بن العاص، من بني أمية الأسرة التي حازت سبق العداء للرسالة وواصلت المسيرة بعدئذٍ!..
والطارق يطرق الباب ليخبر سعيداً أن ابنه خالداً قد (صبأ) إلى دين محمد..

ودارت الدنيا بأبي أحيحة، والد سعيد، فقد كان يتوقع كل شيء غير هذه الفاجعة، وغلت دماء الغضب في شرايينه:-

- اذهبوا وأحضروه لي سريعاً، لأرى ما أصنع به..

قال لبعض أولاده وخدمه.. وانطلق هؤلاء، بينما بقي أبوهم يصر على أسنانه مستعداً للقاء الولد المتمرد، الذي سوف يهدم شرف أبيه في مجالس قريش،. فماذا سيقول بعد اليوم لزعمائها أصحابه، وهو صاحب آراء التصعيد والتعذيب؟! كيف يرفع رأسه لحماية مجتمع قريش من الدعوة الجديدة وقد عجز عن حفظ بيته؟!.

جيء بخالد يسحب، وقد كان يتوقع ما سيحصل من ضرب وإيذاء.. لا يهّم إن له بمن سواه من المسلمين أسوة حسنة.. ثم ماذا يضر المرء بعد أن يجد نفسه؟! أنه لا يزال يعيش تفسير الرؤيا الصادقة التي رآها قبل أيام.. أنه يرى بعين قلبه تلك النار العظيمة المحيطة بأهل مكة، ويرى أباه يدفعه بكل قوته في أتون لهبها، وتمتد اليدان المباركتان للصادق المبارك رسول الله فتأخذه من حقويه بعيداً عن النار.. وينطلق

على أثر وعيه السابق ومعرفته بالرسول الكريم، ورؤياه اللاحقة قاصداً رسول الله سائلاً عن دعوتـــه.. فيعلمه الرسول صلى الله عليه وآله وسلم .

" أن تؤمن بالله وحده لا تشرك به شيئاً، وتؤمن بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم عبده ورسوله وتخلـــع عبادة الأوثان التي لا تسمع ولا تبصر ولا تضر ولا تنفع.. ".

وبسط خالد يده مبايعاً رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، ووجد نفسه.. فماذا يضره أن يدفعه أبوه إلى النار بعد أن اعتصم بالعروة الوثقى.

أفاق من عالم أفكاره على صوت أبيه مهدداً ومتوعداً:

- أصبوت إلى محمد؟ أ وهو يعيب آلهتنا؟!.

- إنه لصادق والله، ولقد آمنت به واتبعته.. أجاب خالد في ثقة وإيمان.

لقد كان تجرع الحنظل أهون على أبيه من سماع هذه الكلمات، وغاضت الرحمة ومشاعر الأبـــوة من قلبه، وقام إليه وفي يده مقرعة، ولم يتركها حتى تكسرت على رأسه.

ولم يستطع سعيد أن يعيد ابنه إلى نار الجاهلية، ولم يستسلم بهذه السرعة، بل كـــان يحتـــاج إلى إثبات بغضه للدين الجديد أمام زعماء قريش بزيادة تعذيب ابنه، سجنه في دار وحرمه من الماء والطعـــام ثلاثة أيام، لعله يعود، ولم يزده ذلك إلا يقيناً، فطرده أبوه من المترل:

- اذهب يا لكع حيثما شئت، واللات لأمنعنك القوت!!.

افترت ابتسامة انتصار على محيا خالد، بعد أن شهد هزيمة إيمانه لكفر والده، وقال بمنطق المتوكل:

- إن منعتني فإن الله تعالى يرزقني ما أعيش به. وهكذا التحق بالرسول والتصق به، بعد أن أســـلم سادس ستة أوائل.

وبينما كان يرتقي في سلم الإيمان كل يوم درجة جديدة، كان أبوه يخرج من ظلمة جاهلية ليدخل أخرى أشد منها، حتى مرض مرضه الأخير، وقد دخل عليه أبو جهل وأبو سفيان عائدين، فرأياه يبكي لخوفه أن تنتهي عبادة اللات والعزى ويعلو دين محمد، وأقسم لئن رفع من مرضه ذلك " لا يعبد إلأ ابن أبي كبشة في مكة أبداً "!!.

بعد أن اشتد أذى قريش للمؤمنين، أمر الرسول بالهجرة إلى الحبشة وكان خالد مع المهاجرين بعد أن أقر الله عينه بإسلام أربعة من اخوته.

وفي السنة السابعة للهجرة، وبعد فتح خيبر عاد خالد بن سعيد ومعه المسلمون من الحبشة، وتقر أعينهم بانتصار المسلمين على أعدائهم من مشركين ويهود، ويساهمون- بكل حماس- في الدفاع عـــن الـــدين وبناء دولته والدعوة الجديدة تتقدم من فتح إلى آخر ومن نصر إلى مثيله. وخالد بن سعيد هذا النموذج

الرسالي لتطبيق الآية " ليميز الله الخبيث من الطيب " يتألق في كل مشهد وعياً وإخلاصاً وتضحية، لقد أصبح كاتباً للرسول، وكان " مفاوضاً! مع أهل ثقيف عنه صلى الله عليه وآله وسلم .

لقد كان خالد يعرف بدقة كيف تتوزع الولاءات في هذا المجتمع ويعرف جيداً من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه، من جعل حياته درعاً حافظاً للدين، ومن جعل الإسلام دكان تجارة! وكان يرى أن إشارات وتصريحات النبي صلى الله عليه وآله وسلم في حق علي بن أبي طالب لم تكن على سبيل المجاملة، أو اللغو، بل كان النبي يحاول وضع الضمانات لمستقبل مسيرة ا لإسلام.

وغادر خالد المدينة مبعوثاً من قبل النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى اليمن، والياً على صدقاتها، وذلك لما يتمتع به من أمانة كافية، غادرها ولولا أمر الرسول لم يكن يفعل، فمن ذا الذي يطلب جواراً وصحبة غير صحبة الرسول والاستماع إلى هديه ؟! غادرها ويده على قلبه لأنه يشم رائحة غير زكية تتمثل في رغبة البعض عدم الخضوع لأوامر الرسول..

ما إن جاء النبأ بنعي رسول الله حتى بدأ إحساس خالد باليتم أنه لم يشعر بهذا حين طرده أبوه من بيته ومنع أخوته من الحديث معه، ولكنه يشعر بطعم المرارة في حلقه منذ سماع النبأ المفجع، وشد الرحال عائداً إلى المدينة، وكان يتوقع أن يرى منبر قد ملأه الوصي، فلما رأى الخليفة أبا بكر على منبر رسول الله استبد به الغضب، وذهب يسأل من خلص أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن حقيقة ما جرى، من أبي ذر، وعمار، والمقداد، وسلمان ونظرائهم، ويحملهم مسؤولية ا لتصحيح، ونشر العلم، إذ أخذ الله الميثاق على العلماء أن يبينوا للناس ولا يكتموه.. وهكذا اجتمع هؤلاء الأصحاب، وصمموا على معارضة الخليفة حين يصعد المنبر، رائدهم في ذلك خالد بن سعيد الذي أبى أن يبايع. وفي يوم الجمعة، والخليفة أبو بكر على منبر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ،وإذا بخالد بن سعيد قد قام من بين الجموع وقال: - اتق الله يا أبا بكر فقد علمت أن رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم قال- ونحن محتوشوه-: يا معاشر المهاجرين والأنصار، إني موصيكم بوصية فاحفظوها وإني مؤد إليكم أمراً فاقبلوه، ألا إن علي بن أبي طالب أميركم بعدي وخليفتي فيكم بذلك أوصاني ربي، ألا وإنكم إن لم تحفظوا فيه وصيتي وتؤازروه وتنصروه اختلفتم في أحكامكم واضطرب عليكم أمر دينكم ووليكم شراركم، ألا إن أهل بيتي هم الوارثون لأمري والقائمون بأمر أمتي من بعدي، اللهم من أطاعهم من أمتي وحفظ فيهم وصيتي فاحشرهم في زمرتي واجعل لهم نصيباً من مرافقتي يدركون به نور الآخرة اللهم ومن أساء خلافتي في أهل بيتي فاحرمه الجنة التي عرضها كعرض السماء وا لأرض [٤٦].

---

[46] / رجال السيد بحر العلوم ٢/ ٣٣٢.

وكان خالد يعلم أنه– بهذا الموقف– يتعرض دون شك لغضب الخلافة ولغضب عمـــر بـــن الخطـــاب بالتحديد، إلا أنه أقدم على ذلك، فهو إضافة إلى اعتقاده بأحقية كلامه، لا يرى لأبي بكـــر ولا عمـــر فضلاً على نفسه فقد سبق إلى الإسلام، وهاجر الهجرتين، وكان والي صدقات الرســـول، ومواقفـــه في الحروب مشهورة، غير أنه أثر عدم التصعيد تبعاً لمنهج أمير المؤمنين عليه السلام الذي كان يرى أن يصبر " وفي العين قذى وفي الحلق شجى " حفظاً للإسلام.. لذلك قال له الإمام: اجلس يا خالد فقد عـــرف الله لك مقامك وشكر لك سعيك.. [٤٧].

استمرت جيوش المسلمين تتابع تحريرها لجموع الناس من أغلال الجبت وقيود الطاغوت، متجهة شرقاً وغرباً، حاملة معها نور الإسلام، ومبادئ الحرية ولم يكن خالد بالذي ينكفئ سلباً على نفـــسه، فهو وان لم يرض بالخليفة إلا أن ذلك لم يكن ليمنعه عن نصر الشريعة، ونشر العقيـــدة، خـــصوصاً أن أصحابه الآخرين كعمار والمقداد وسلمان، وحذيفة كانوا يشاركون– ما استطاعوا– في الحياة العامة من موقع التأثير، ولم يكن قرار أمير المؤمنين إعلان الحرب والمقاطعة.

هذا إضافة إلى أن خالداً لم يكن نكرة، بل كان قد حاز من الإسلام السبق، ومن صحبة الرسول الوعي، ومن عمله في اليمن الخبرة الإدارية، ومن خوضه المعارك الشجاعة والمعرفة العسكرية.

لذلك لما أراد الخليفة أبو بكر أن يجهز جيشاً لغزو الشام، لم يجد أفضل من خالد بن سعيد بن العـــاص، بالرغم من موقف خالد منه، إلا أن مميزات خالد تجعل بالإمكان التنازل على هذه الملاحظة، وبالفعـــل فقد عهد إليه بقيادة الجيش، وأعطاه اللواء بيده.

إلا أن عمر بن الخطاب، وكان قد اصطدم معه في حادثة المسجد الآنفة الذكر، إضافة إلى أمور أخرى، عارض أبا بكر بشدة في تعيينه لخالد على إمارة الجيش.. قائلاً:

– أتولي خالداً وهو القائل ما قال؟!.

فلم يزل عمر بأبي بكر حتى أرسل أبا أروى الدوسي إلى خالد قائلاً: – إن خليفة رسول الله يقول اردد إلينا لواءنا!!.

فأخرجه فدفعه إليه، وقال: والله ما سرتنا ولايتكم ولا ساءنا عزلكم وأن المليم لغيرك..

قالت (أم خالد ابنة خالد) فما شعرت إلا بأبي بكر دخل على أبي يعتذر إليه ويعزم عليـــه أن لا يـــذكر عمر بحرف!![٤٨].

---

[47] / المصدر

[48] / الطبقات الكبرى ٤/ ٩٧.

وهكذا كانت ضريبة انتمائه لخط الإمامة، وقوله كلمة الحق أن عزله عمر من قيادة الجيش بعد أن عينه أبو بكر!!.

و لم يكن ذلك مهماً عنده، فما سرته ولاية أمر الجيش، لأن الولاية إذا كانت عند غـيره تعـني المجـد السياسي، والغنى الشخصي، وأحياناً الشبع الجنسي (!!) لدى البعض لذلك تنسج المـؤامرات، وتبـذل الوساطات للوصول إلى موقع قيادة الجيش، فهي لديه لم تكن تعني من ذلك شيئاً، إنما تعـني أن يـصنع روحه على راحته ويلقي بنفسه في حيث مشتبك المكارة و النبال.

وما ساءه العزل، لأنه لم تسره الولاية، فالعزل يسقط من لا اعتبار له، أما ذوو الاعتبار الـذاتي، وأصحاب الملكات والكفاءات العالية، فإن العزل ليس فقط لا يسقطهم، بل يعيب مـن يقـوم بـه في حقهم، إذ يتم التساؤل، ماداموا يملكون هذه القدرات فلماذا يعزلون ؟.

كان غيره يبحث عن ربح استثماراته في دكان الإسلام، وكان خالد وأمثاله يبحثـون عـن دور يؤدونه في سبيل الله، ويتعجلون بالشهادة لقاء الله..

وسار خالد جندياً في ركاب الجيش الذاهب لفتح الشام، و لم يكن ليغير شيئاً لو كان هو القائد، بل هو بما يملك من خبرة، وبما يفرضه على غيره من احترام أصبح قائد القادة الجدد، ومحط مشورتهم.

وكان لا بد لهذا الفارس أن يترجل، فقد مل حصان حياته التطواف، ولكن بعد أن يجد ما كان يبحث عنه.. في الخمسين من عمره، وقد خلف وراءه من الذكر العاطر والمواقف الشجاعة ما يصلح للتأسي.

في واقعة (مرج الصفر) حيث تلتحم جيوش الروم مع المسلمين يبحث النصر عن رجال مثل خالد، لا يبحثون عن النصر بل الشهادة. وعجيب أن النصر يبحث عنهم وهم لا يبحثون عنه، ويتفق ذلـك، وينتصر دين الله..

يبرز إلى المعركة، وبعد أن يقتل من الروم عدداً يسقط قتيلاً بينما ترفرف روحه، في حركتها نحو لقاء الله سبحانه وتعالى..

هنيئاً له السبق والولاية .. والشجاعة الواعية .

وهنيئاً له الشهادة الدامية .

الإمام الحسن (ع)

١-عبدالله بن جعفر الطيار .

٢-قيس بن عبادة الأنصاري .

٣-عبد الله بن عباس بن عبد المطلب .

٤-كميل بن زياد النخعي .

٥-عامر بن واثلة الكناني .

الحسن بن علي (المجتبى) عليه السلام

الإمام أبو محمد

٣ هـ-٥٥ هـ

ولد سنة ٣ للهجرة، فكان أول ثمرة في البيت العلوي.

نشأ في حجر جده رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، حيث كان النبي يعطيه اهتماماً استثنائياً، ويشير إلى محبته إياه، وأنه- وأخاه الحسين- أئمة هذا الخلق بعد أبيهم.

بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، شهد الإمام الحسن عليه السلام ما جرى من اغتصاب الخلافة من أبيه، وكان أول موقف له، وهو آنئذٍ في حدود التاسعة من العمر، أن جاء إلى المسجد ولما رأى أبا بكر عليه قال له: إنزل عن منبر أبي واذهب إلى منبر أبيك.

بالرغم من وعيه لكيفية صرف الخلافة عن أبيه إلا أنه لما كان هدفه الإسلام فقد اشترك في الفتوحات الإسلامية سنة ٢٦ في إفريقية كما شارك في فتح طبرستان، مع شيعة والده ـــ كما نقل ـــ .

شارك أباه في مواقفه المختلفة بعد أن جاءته الخلافة، فقد شارك في حرب الجمل وأرسله أمير المؤمنين قبل بداية الحرب إلى الكوفة لاستنهاض أهلها لنصرة الإمام في حربه وكان على الكوفة أبو موسى الأشعري الذي كان يخذل الناس عن أمير المؤمنين، فعزله الإمام الحسن عليه السلام

قائلاً له: اعتزل عملنا لا أم لك وتنح عن منبرنا. كما شارك أباه في صفين. بعد شهادة أمير المؤمنين عليه السلام تصدى لشؤون الإمامة، وحيث أن أمير المؤمنين قبل شهادته كان يعد للقتال مع معاوية مرة أخرى، فقد واصل الإمام الحسن عليه السلام برنامج أبيه في تحشيد القوات. إلا أن المجتمع الكوفي آنئذٍ!،

والذي لم يستجب لأمير المؤمنين، لم يستجب الاستجابة الكافية للإمام الحسن عليه السلام مـــع ذلـــك واصل الإمام الحسن خطته في المواجهة العسكرية، بذلك الجيش الضعيف (معنوياً).

استطاع معاوية أن يرتشي بعض قيادات الجيش الكوفي وأن يستقطبهم إلى جانبه بالأموال. وأن يـــسمم الأجواء في هذا الجيش، وأضيف إليه رغبة الكثير في هذا الجيش عن الحرب، وحبهم للبقاء حتى لقد كان في هذا الجيش من كان مستعداً لاغتيال الإمام لو حصلت له الفرصة. فكان أن اضطر الإمـــام الحـــسن للصلح العسكري مع معاوية ضمن شروط ذكرها المؤرخون وكان منها: أن يكون شيعة أمير المـــؤمنين وأصحابه في أمن على حياتهم وأموالهم، وأن تكون الخلافة بعد معاوية للحسن، وأن يتم الامتناع عـــن شتم الإمام.. إلى غير ذلك.

استطاع الإمام الحسن أن يكشف من خلال الصلح وما تلاه- حقيقة معاوية ابن أبي سفيان أمام جميـــع المسلمين من أنه ليس ذا دين ولا عهد.وتعرض الإمام الحسن عليه السلام لحملة تشويه استهدفت النيـــل من شخصيته بين الناس، وقاد تلك الحملة مرتزقة الأمويين من الكتاب والمؤرخين، كالقول إن الإمـــام الحسن كان عثماني الهوى وأنه خالف أباه في كثير من خطواته، أو أنه كان كثير الزوجـــات، أو أنـــه (تنازل) عن الحكم لصالح معاوية ومع أن هذه الأقوال تخالفها حقائق التاريخ، والدراسة العلمية، إلا أنها وجدت لها من يلوكها من الكتاب، حتى من بعض ا لمتأخرين.

عرف الإمام الحسن !ى بمساعدته المحتاجين، وانفاقه عليهم،حتى أصبح لقب (كريم أهل البيت) خاصـــاً به.

استشهد الإمام الحسن مسموماً بتخطيط من معاوية سنة ٥٠ هـــ ودفن في المدينة.

عبد الله بن جعفر (الطيار)

توفي سنة ٨٥ هـ

" اللهم اخلف جعفراً في أهله وبارك لعبد الله في صفقته.. "

الرسول (ص)

كان يعيش في عالم بهيج من المتعة، بينما كانت يداه الصغيرتان تغوص في الطين، مشكلة إياه في صـــورة بيوت ولعب وغيرها، وكأنه كان يفضل العالم الذي يريده.. عندما مر عليه رسول الله صلى الله عليـــه وآله وسلم ، فعطف عليه قائلاً: ما تصنع بهذا؟.

قال عبد الله بن جعفر: أبيعه.. فما تصنع بثمنه؟ سأله الرسول مرة أخرى.

فأجاب: أشتري رطباً فآكله.

فقال النبي !: اللهم بارك له في صفقة يمينه..

فكان عبد الله يجد أثر هذه الدعوة إلى آخر عمره، فما اشترى شيئاً إلا ربح فيه..

لكنه ما لبث أن خرج من أحلام الطفولة هذه وصفائها إلى حيث ضجيج الحياة وأحزانها، فها هو لم يتخط العشر وقد ورد الخبر بنعي أبيه حيث استشهد في أرض بعيدة حيث لا يطمع حـــتى في نظـــرة وداع واحدة.. ".. أخذ بيدي (رسول الله) يمسح بيده رأسي حتى رقى المنبر وأجلـــسني أمامــه علـــى الدرجة السفلى والحزن يعرف عليه، فقال إن المرء كثير بأخيه وابن عمه، إلا أن جعفراً قـــد استـــشهد وجعل له جناحان يطير بهما في الجنة.. ثم نزل ودخل بيته وأدخلني معه وأمر بطعام يصنع لأجلي وأرسل إلى أخي فتغذينا عنده غذاء طيباً مباركاً وأقمنا ثلاثة أيام في بيته ندور معه كلما صار في بيت إحـــدى نسائه ثم رجعنا إلى بيتنا..).

وصار عبد الله في بيت عمه أمير المؤمنين وتحت كفالته، بعد أن توفي أبو بكر الذي تـــزوج أمـــه أسماء بنت عميس وبقي معها فترة قصيرة، ليصبح في كنف الإمام الذي بنى بأسماء بعد ذلك.. وتعاضدت تربية أمير المؤمنين عليه السلام

إلى جانب وراثته لصفات أبيه جعفر الحميدة، لتصنع منه رجلاً، في عداد القادة والشخصيات..

ورث من أبيه الطيار حب المساكين والضعفاء والعطف عليهم وتعلم من عمه الجود وعدم التعلق بالمال، فاجتمع هذا وذاك ليصبح ابن جعفر مضرب المثل في العطاء والكرم، حتى أصبح يلقب (ببحـــر الجود).

فقد جاء إليه رجل وكان قد ركب ناقة فارهة ليخرج إلى ضيعة له، وقال له: يابن عم رســـول الله.. ابن سبيل ومنقطع به. فأخرج عبد الله رجله من ركاب الناقة ونزل عنها، وقال: ضـــع رجلـــك واستو عليها، فهي لك بما عليها وخذ ما في الحقيبة، ولا تخدعن في السيف فإنه من سيوف علي..

وذهب هذا الرجل ليرى أنه قد أصبح من أغنى الناس فإضافة إلى الناقة التي أعطي كان في الحقيبة أربعـــة آلاف دينار ومطارف من خز..

وإذا كان المال يتملك نفوس بعض أصحابه، فإن المال عند ابن جعفر لم يكن ليبقى حتى يؤثر أو لا يؤثر، حتى لقد عوتب على كثرة العطاء، و" نصح" بمسك يده شيئاً ما.. لكنه كان يقول دائماً: إن الله عودني أن يتفضل علي وعودته أن أتفضل على عباده، فأخاف أن أقطع هذه العادة فيقطع عني ثم تمثل قائلاً:

لست أخشى قلة العدم ما اتقيت الله في كرمي

كلما أنفقت يخلفه لي رب واسع النعم

وإذا كان الحاكمون يوزعون المال يمنة ويسرة بغير حساب على مادحيهم ومرتزقة بلاطهم، والأغنياء ليصرف في مجالات اللهو والعبث، فقد كان مال ابن جعفر غيثاً مريعاً يهمي على الفقراء والضعفاء، فيحيل جدبهم خصباً. لم يكن ماله له بل لكل الناس خصوصاً ذوي الحاجة.

فقد خرج ابن جعفر مع الحسنين عليهم السلام من مكة إلى المدينة فأصابتهم السماء بمطر، فلجأوا إلى خباء أعرابي، فأقاموا عنده ثلاثة أيام حتى سكنت السماء، فذبح لهم الأعرابي شاة، فلما ارتحلوا قال عبد الله للأعرابي: إن قدمت المدينة فسل عنا. فاحتاج الأعرابي بعد سنين فقالت له امرأته لو أتيت المدينة فلقيت أولئك الفتيان، فقال قد نسيت أسماءهم فقالت: سل عن ابن الطيار. فأتى المدينة فلقي الإمام الحسن عليه السلام فأمر له بمائة ناقة ثم أتى الحسين عليه السلام فقال كفانا أبو محمد مؤونة الإبل فأمر له بمائة شاة، ثم أتى عبد الله بن جعفر فقال كفاني إخواني مؤونة الإبل والشياه فأمر له بمائة ألف درهم .

إلى جانب ذلك فقد كان له مع أئمته من المواقف ما أبقى له ذكراً حميداً فإضافة إلى كونه مع أمير المؤمنين في مشاهده، الجمل وصفين والنهروان وإظهاره من أشكال الجرأة ما جعل أمير المؤمنين يمنعه ويمنع الحسنين معه من مباشرة القتال..إلا أن دوره الأساسي كان أيام الحسن المجتبى عليه السلام، حيث غدا واحداً من أصحابه الخلص، بحيث قل أن نجد موقفاً فيه الحسنان ولا يكون ابن الطيار موجوداً.. خصوصاً بعد اقترانه بعقيلة الطالبيين زينب الكبرى بنت أمير المؤمنين.

وكان عبد الله يشهد بعينيه ذلك الهجوم المنظم على القيم الإسلامية ، والهدم المتعمد لشخصيات الإسلام، وفي طليعتها أمير المؤمنين علي عليه السلام لذلك كان يدافع بما استطاع ويقف أمام هذه الانتهاكات، فقد دخل ذات يوم على معاوية وعنده عمرو بن العاص، الذي بدأ- مع دخول ابن جعفر- ينال من أمير المؤمنين عليه السلام جهاراً، فالتمع وجه عبد الله وغضب غضباً شديداً، وحسر عن ذراعه، ثم أقبل إلى معاوية، وقال له بشجاعة هاشمية:

- حتى مَ نجرع غيظك ونصبر على مكروه قولك وسيئ أدبك وذميم أخلاقك؟! هبلتك الهبول.؟. أما يزجرك ذمام المجالس عن قذع جليسك؟ أما والله لو عطفتك أواصر الأرحام أو حاميت على سهمك

في الإسلام لما ارعيت بني الإماء أعراض قومك، فلا يدعونك تصويب ما فرط من خطئك في سفك دماء المسلمين ومحاربة أمير المؤمنين إلى التمادي فيما قد وضح لك الصواب في خلافه..
فأقبل عليه معاوية وجعل يترضاه محاولاً تسكين غضبه قائلاً:
- أنت ابن ذي الجناحين وسيد بني هاشم..
فقال عبد الله: كلا سيد بني هاشم حسن وحسين عليهم السلام لا ينازعهما في ذلك أحد.
ويبدو أن معاوية كان يريد التركيز على عبد الله بن جعفر وفضله ليفصله- في ظنه- عن الحسنين عليهم السلام ، ولكن عبد الله كان أذكى من معاوية، فلا يفوته موقف دون أن يسجل ولاة جديداً، ويرشد الناس إلى القيادة الصحيحة.

يحدثنا عبد الله بن جعفر قائلاً:
كنت عند معاوية ومعنا الحسن والحسين عليهم السلام وعنده عبد الله بن عباس والفضل بن عباس، فالتفت إلى معاوية فقال:

- يا عبد الله ما أشد تعظيمك للحسن والحسين!! وما هما بخير منك ولا أبوهما خير من أبيك، ولولا أن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لقلت ما أمك أسماء بنت عميس بدونها !!

فقلت: والله إنك لقليل العلم بهما وبأبيهما وبأمهما، بل والله لهما خير مني وأبوهما خير من أبي وأمهما خير من أمي، يا معاوية إنك لغافل عما سمعته من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول فيهما وفي أبيهما وأمهما، وقد حفظته ووعيته ورويته؟..

قال معاوية: هات يابن جعفر.. فوالله ما أنت بكذاب ولا متهم.

فقلت: إنه أعظم مما في نفسك.

قال: وإن كان أعظم من أحد وحراء جميعاً فلست أبالي إذا قتل الله صاحبك وفرق جمعكم وصار الأمر في أهله، فحدثنا فما نبالي بما قلتم ولا يضرنا ما عددتم.

قلت: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقد سئل عن هذه الآية ((وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس والشجرة الملعونة في القرآن)) فقال: إني رأيت اثني عشر رجلاً من أئمة الضلالة يصعدون منبري- ويترلون، يردون أمتي على أدبارهم القهقرى، وسمعته يقول: إن بني العاص إذا بلغوا خمسة عشر رجلاً جعلوا كتاب الله دخلاً وعباد الله خولاً ومال الله دولاً.

يا معاوية: إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول على المنبر وأنا بين يديه- وعمرو ابن أبي سلمة وأسامة بن زيد وسعد ابن أبي وقاص وسلمان الفارسي وأبو ذر والمقداد والزبير بن العوام وهو يقول: ألست أولى بالمؤمنين من أنفسهم؟! فقلت: بلى يا رسول الله.. قال: أليس أزواجي أمهاتكم؟!

قلنا: بلى يا رسول الله. قال: من كنت مولاه فعلي مولاه، أولى به من نفسه، وضرب بيده على منكب علي فقال: اللهم وال من والاه وعاد من عاداه. أيها الناس أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم ليس لهم معـــي أمر وعلي من بعدي أولى بالمؤمنين من أنفسهم ليس لهم معه أمر ثم عاد فقال: أيها الناس إذا استشهدت فعلي أولى بكم من أنفسكم، فإذا استشهد علي فابني الحسن أولى بالمؤمنين منهم بأنفسهم وإذا استشهد الحسن فابني الحسين أولى بهم من أنفسهم [49].

قضى الإمام الحسن ! نتيجة مؤامرة دبرها معاوية ابن أبي سفيان، الذي بدأ يعد العدة لتنصيب ابنه يزيد خليفة بعده.. وهكذا وجد أولئك المسلمون أنفسهم مضطرين لمبايعة من نصبه معاوية بعد أن تقاعـــسوا عن مبايعة من نصبه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .. فكتب إلى واليه على المدينة سعيد بن العاص أن يأخذ البيعة من عموم الناس... وهكذا صنع سعيد إلا أن غالب الناس لم تستجب لهـــذه الـــدعوة خصوصاً أهل البيت ! فكتب معاوية كتباً إلى الإمام الحسين ! وابن عباس وعبد الله بن الزبير وكتب إلى عبد الله بن جعفر:

أما بعد فقد عرفت آثرتي إياك على من سواك وحسن رأي فيك وفي أهل بيتك وقد أتاني عنك ما كره، فإن بايعت تشكر وإن تأب تجبر، والسلام.

فكتب إليه عبد الله بن جعفر رداً:

أما بعد، فقد جاءني كتابك وفهمت ما ذكرته فيه من آثرتك إياي على من سواي، فإن تفعل فبحظـــك أصبت وإن تأب فبنفسك قصرت وأما ما ذكرت من جبرك إياي على البيعة ليزيد فلعمري لئن أجبرتني عليها، لقد أجبرناك وأباك على الإسلام حتى أدخلناكما كارهين غير طائعين والسلام [50].

ولما وصلت إلى معاوية أجوبة الكتب رأى أن يقوم بزيارة إلى المدينة ليتابع الموضوع شخصياً ويطبقه بأي ثمن.. وتحدث مع الإمام الحسين وابن عباس عن محاولته في " أمر الرعية من سد الخلل و لم الصدع بولاية يزيد بما أيقظ العين وأحمد الفعل.. هذا معناي في يزيد- أضاف معاوية- وفيكما فضل القرابة وحظـــوة العلم وكمال المروءة، وقد أصبت من ذلك عند يزيد على المناظرة والمقابلة ما أعياني مثله عندكما وعند غيركما (! !) مع عمله بالسنة وقراءة القرآن والحلم الذي يرجح بالصم الصلاب..". كانت ابتـــسامة ساخرة تنطبع على شفتي ابن عباس ومعاوية يتكلم بينما انبرى له الإمام الحسين عليه السلام قائلاً:

---

49 / الغدير ١/ ٢٥٠.

50 / الإمامة والسياسة ١/ ١٨٠.

(... وفهمت ما ذكرته عن يزيد من اكتماله وسياسته لأمة محمد،تريد أن توهم الناس في يزيد كأنك تصف محجوباً أو تنعت غائباً أو تخبر عما كان مما احتويته بعلم خاص. وقد دل يزيد من نفسه على موقع رأيه فخذ ليزيد فيما أخذ فيه من استقرائه الكلاب المهارشة عند التهارش والحمام السبق لأترابهن والقيان ذوات المعازف وضرب الملاهي تجده باصراً ودع عنك ما تحاول فما أغناك أن تلقى الله من وزر هذا الخلق بأكثر مما أنت لاقيه، فوالله ما برحت تقدح باطلاً في جور وحنقاً في ظلم حتى ملأت الأسقية وما بينك وبين الموت إلا غمضة ..) [51].

وصدق الإمام الحسين عليه السلام فقد انتهت تلك الغمضة، وانتهى معاوية إلى موضع لا ينفعه فيه دهاؤه ولا يعينه مكر ابن العاص.. ولكن بعد أن وسد الأمر بالقوة لابنه يزيد..

الأحداث تتسارع وها هو الحسين عليه السلام يخرج من مدينة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لطلب الإصلاح في أمة جده، يريد أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويسير بسيرة جده وأبيه.

وإذا كان عبد الله بن جعفر قد اقترح على الإمام الحسين عليه السلام عدم الذهاب إلى العراق والكوفة بالذات لتجارب الخذلان المريرة فيها مشفقاً عليه من المصير الذي ينتظره، فإن ذلك لم يكن من منطلق المعارضة لتحركه. كيف وهو القائل أنه لولا المرض الذي يحول بينه وبين السفر لتشرف بالذهاب معه..

ودعى الإمام الحسين عليه السلام أخته زينب الكبرى للذهاب معه في سفره لأن الله أعد لها دوراً بعد شهادة الإمام يقضي بحمل الراية الحسينية في قافلة السبي، وتبليغ أهداف الثورة الحسينية إلى جماهير الناس المضللة والغافلة، وكشف الوجه الحقيقي لبني أمية.

وجاءت زينب إلى زوجها عبد الله مستأذنة إياه في هذا السفر الشاق: هل تأذن لي يا ابن العم بالسفر مع أخي الحسين؟!.

ويغص ابن الطيار بحرج الموقف.. إلا أنه يجيبها في عزم ويقين..

- يا ابنة العم كنت أود أن أكون برفقة ابن عمي وسيدي الحسين لولا المرض الذي يحول بيني وبين ذلك..

وسكت هنيهة، وغاص في بحار فكره.. ماذا لو أرسل ابنيه محمداً وعوناً مع خالهما يعينانه ويدافعان عنه.. مادام لا يستطيع أن يصنع بنفسه ذلك.. ولكن ما هو رأي أمهما.. أتراها توافق على ذلك أم يمنعها قلب الأمومة؟! وتوجه إلى زوجته سائلاً إياها:

- هل تقبلين أن يكون ولدانا محمد وعون في ركاب خالهما في سفره هذا؟!.

---

[51] / الإمامة والسياسة/ ١٨٦.

وكان ذلك منتهى الفرحة لدى زينب، فستنصر أخاها مرتين مرة بنفسها وأخرى بأولادها..

وإذ يبلغ النبأ ابن جعفر بعد العاشر، يعتمل في نفسه شعور مزدوج بالحزن على مصاب الحسين عليه السلام وشهادته والفخر بشهادة ابنيه.. وفيما هو يستقبل المعزين، يقول أحد غلمانه: ماذا لقينا من الحسين؟!.

فغضب ابن الطيار وصرخ عليه قائلاً: يابن اللخناء أللحسين تقول هذا والله لو شهدته لما فارقته حتى أقتل معه وقد هون علي مصابهما أنهما قتلا مع أخي وابن عمي وسيدي مواسيين له صابرين معه..

الحمد لله.. لقد عز علي مصرع الحسين، وإذ لم كن قد واسيته بنفسي ففد واسيته بولدي.

قيس بن سعد بن عبادة الأنصاري

الوفاة: سنة ٥٨ هـ بالمدينة

" وكان قيس يستدين ويطعمهم فقال أبو بكر وعمر: إن تركنا هذا الفتى أهلك مال أبيه فمشيا في الناس فصلّى النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) يوماً فقام سعد بن عبادة خلفه فقال

كالحنظل في فمه الذكريات، والحاضر أشدّ مرارة.

ها هو يشهد بأمّ عينيه ويلامس بكلتا يديه، نبوءة الزهراء فاطمة (ع) في خطبتها في مسجد رسول الله بعد وفاته.. (أما لعمري لقد لقحت فنظرة ريثما تنتج ثم احتلبوا من القعب دماً عبيطاً وذعافاً مبيداً هنالك يخسر المبطلون ويعرف الباطلون غبّ ما أسس الأولون، ثم طيبوا عن دنياكم أنفساً واطمئنوا للفتنة جأشاً وابشروا بسيف صارم وسطوة معتد غاشم وبهرج شامل واستبداد من الظالمين يدع فيئكم زهيداً وجمعكم حصيداً..).

ها هم المسلمون يحتلبون الدماء من ضرع معيشتهم ويتجرعون السموم شراب يومهم، لا تمر سنة إلاّ وهي أسوأ من سابقتها.. وتجاوز عدد بني العاص ثلاثين وأربعين، واتخذوا مال الله دولاً وعباده خولاً، وها هو معاوية ابن أبي سفيان في صراحة أموية، يقول: (ما قاتلتكم لتصلوا ولا لتصوموا ولا لتحجوا.. وإنما قاتلتكم لأتأمّر عليكم)، بل لا يجد حرجاً في أن يرد على من عاتبه أن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) حرّم لبس الحرير: أما أنا فلا أرى به بأساً.

ويعود قيس بن سعد بن عبادة إلى البدايات، والده الذي اغتيل بسهم السيف المسلول.. ثم قالوا، ويا للسخرية: قتلته الجن!! ومتى كانت الجن تدخل في تصفية حساب الخلافة مع مناوئيها؟! ثم تنشد شعراً بالمناسبة؟.

لا يزال يتذكر كيف جرت الأحداث بتفاصيلها رغم مرور أكثر من ثلاثين عاماً، وكيف ينساها وقد حفرت آثارها على كل شيء في حياة المسلمين وهل كان معاوية إلاّ نتيجة طبيعية لتلك الأحداث.

لحق الرسول بخالقه، بعد أن أكمل مهمته في التبليغ وتوجها بيوم الغدير حيث أعلن وصاية علي بن أبي طالب وولايته على المسلمين بعد الرسول.. أيام قليلة تلت ذلك الاجتماع العظيم، وحلّت الفاجعة عندما أغمض عينيه الشريفتين.. واشتغل كل بما كان يهمه، فبينما سارع علي (ع) لتجهيز الرسول ودفنه، سارع غيره- تاركين الرسول- للاشتراك في سباق الخلافة. وخلال ساعة زمان طرح سعد بن عبادة مرشح الأنصار تحت الأرجل، وصفق عمر بن الخطاب على يد أبي بكر معلناً أنه قد صار (خليفة رسول الله) وبالرغم من عدم حضور كبار الصحابة وفي طليعتهم وصي الرسول عليّ وأمثال سلمان والمقداد وأبي ذر وعمّار، وغيرهم، إلاّ أن الطرف الآخر كان قد فرض أمراً واقعاً، وبدأ يدافع عنه.. فمن لا يبايع بالرضا يجبر عليها ويكره، وإلاّ فإن (الجن) حاضرة لاغتياله!! وخاف الكثير من سهام (الجن)!!.

وهكذا تمّت السيطرة على خلافة الرسول!! و لم تجد صيحات الاستنكار ونقاشات الأصـــحاب، وإقناع ذوي الرأي والمعرفة أذناً صاغية.

أنه.. يتذكر موقف الزهراء بنت رسول الله (ع) عندما بدأت تقرع أسماع القلوب بتلك الخطبـــة الرائعة، محللة فيها وضع العرب قبل الإسلام وجهاد الرسول حتى غير تلك الأوضاع ومقام أمير المؤمنين علي من الرسالة.. وأبكت من كان حاضراً، وهي ترفع ظلامة الإسلام، وظلامة الوصي وظلامتها (ع).

" ألا وقد أرى أن قد أخلدتم إلى الخفض وأبعدتم من هو أحق بالبسط والقبض وخلـــوتم بالدعـــة ونجوتم من الضيق بالسعة فمججتم ما وعيتم ودسعتم الذي تسوغتم فإن تكفروا أنتم ومـــن في الأرض جميعاً فإن الله لغني حميد.

ألا وقد قلت ما قلت على معرفة بالخذلة التي خامرتكم والغدرة التي استشعرتها قلوبكم ولكنـــها فيضة النفس ونفثة الغيظ وبثّة الصدر وتقدمة الحجة فدونكموها فاحتقبوها دبرة الظهر نقبة الخف باقية العار موسومة بغضب الجبار وشنار الأبد موصولة بنار الله الموقدة التي تطلع على الأفئدة فبعين الله مـــا تفعلون وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون وأنا ابنة نذير لكم بين يدي عذاب شديد فاعلموا أنّـــا عاملون وانتظروا إنا منتظرون). وبقي قيس مع أمير المؤمنين (ع) وفي خطه، لا يلويه عنه طمع منصب ولا تقريب سلطان، حتى عاد الحق ملقياً بجرانه إلى مكانه،" فأقبلتم إليّ إقبال العوذ المطافيل على أولادها تقولون: البيعة البيعة ! قبضت كفي فبسطتموها ونازعتكم يدي فجذبتموها ".

وبدأ الإمام ينتخب القادة الصالحين والولاة الأكفّاء، فولى قيساً مصر سنة (٣٦) هـــ وقال له: سر فقد وليتكها، وأخرج إلى ظاهر المدينة واحمل إليك ثقاتك ومن أحببت أن يصحبك حتى تأتي مصر ومعـــك جند فإن ذلك أرعب لعدوك وأعز لوليك، فإذا أنت قدمتها إن شاء الله فأحسن إلى المحسن واشدد على المريب وارفق بالعامة والخاصة فإن الرفق يمن.

فقال قيس:

- رحمك الله يا أمير المؤمنين.. قد فهمت ما ذكرت أما الجند فإني أدعه لك فإذا احتجت إليهم كـــانوا قريبا منك وإن أردت بعثهم إلى وجه من وجوهك كان لك عدة ولكني أسير إلى مصر بنفسي وأهـــل بيتي وأما ما أوصيتني به من الرفق والإحسان فالله هو المستعان على ذلك.

وخرج قيس في سبعة نفر من أهله حتى دخل مصر فصعد المنبر خطيباً فحمد الله وأثنى عليه وقال: الحمد لله الذي جاء بالحق وأمات الباطل وكتب الظالمين. أيها الناس إنا بايعنا خير من نعلم بعد نبينـــا محمـــد (ص) فقوموا بايعوا على كتاب الله فإن نحن لم نعمل لكم بذلك فلا بيعة لنا عليكم.

لقد أكد مواقفه، وعقيدته في أن الحق قد جاء مع أمير المؤمنين وأميت الباطل، وأكد أن علياً هو خـير الناس بعد النبي (ص)..

وقام الناس فبايعوا واستقامت مصر وأعمالها لقيس وبعث عليها عمّاله إلاّ أن قرية منها يقال لها (خربتا) قد أعظم أهلها قتل عثمان وبها رجل من كنانة يقال له يزيد بن الحارث، فبعثوا إلى قيس أنا لا نقاتلـك فابعث عمّالك فالأرض أرضك ولكن أقرنا على حالنا حتى ننظر إلى ما يصير أمر الناس ووثب محمد بن مسلمة بن مخلد الأنصاري فنعى عثمان ودعى إلى الطلب بدمه فأرسل إليه قيس: ويحك أعليّ تثـب؟! والله ما أحب أنّ لي ملك مصر والشام وأني قتلتك فاحقن دمك.

فأرسل إليه محمد بن مسلمة: إني كاف عنك ما دمت أنت والي مصر [52].

واستطاع قيس ضبط أمور مصر، وبعد مصر ولاّه الإمام أمور آذربيجان.

إن قيساً حين يعين في البداية والياً على مصر، يقبل ذلك بطيبة نفس وحين يستدعى منها يتقبـل ذلك بهدوء خاطر بل إنه يواجه محاولات استثارته من قبل حسان بن ثابت يواجهها بـوعي كـاف، ويصده، فقد جاءه حسان شامتاً به (وكان عثماني الهوى) فقال له:

- نزعك علي بن أبي طالب، وقد قتلت عثمان، فبقي عليك الإثم و لم يحسن لك الشكر.

فزجره قيس وقال : يا أعمى القلب وأعمى البصر والله لولا أن ألقي بين رهطي ورهطك حربـاً لضربت عنقك.. ثم أخرجه من عنده.

وحينما أعلن معاوية التمرّد على حكم أمير المؤمنين (ع)، تجهّز الإمام لقتاله.. فكان استدعى قيساً من آذربيجان، نظراً لما يمثله قيس من شخصية مهمة بين الأنصار، ومن كفاءة استثنائية بـين أصـحاب الإمام فقد كتب إليه:

- " أما بعد فاستعمل عبد الله بن شبيل الأحمسي خليفة لك واقبل إلي فإن المسلمين قد أجمـع ملأهـم وانقادت جماعتهم فعجّل الإقبال فأنا سأحضرن إلى المحلين عند غرة الهلال إن شاء الله وما تـأخري إلاّ لك، قضى الله لنا ولك بالإحسان في أمرنا كله ".

ووصل من كان ينتظره الجيش وقائده إلى الكوفة واستقبله الإمام (ع) وجمع أصحابه، فقال لهم:

- أما بعد.. فإنكم ميامين الرأي، مراجيح الحلم، مقاويل بالحق مباركو الفعل والأمر، وقد أردنـا المسير إلى عدونا وعدوكم، فأشيروا علينا برأيكم.

---

52 / تاريخ الطبري ٥/ ٢٢٧.

كان قيس يعلم أن الموقف الشجاع يمكن أن يسيطر على الموقف، فيعشي خفافيش الخوف، وينير مصابيح الإقدام، وعكسه تماماً موقف التردد والجبن.. لذلك قام منتصباً بقامته الشامخة وقال، بعد أن حمد الله وأثنى عليه:

– يا أمير المؤمنين، انكمش (أسرع) بنا إلى قتال عدونا ولا تعرّج (تتوقف) فوالله لجهادهم أحب إليّ من جهاد الترك والروم لإدهانهم في دين الله واستذلالهم لأولياء الله من أصحاب محمد(ص) من المهاجرين والأنصار والتابعين بالإحسان، إذا غضبوا على رجل حبسوه أو ضربوه أو حرموه أو سيروه، وفيؤنا لهم في أنفسهم حلال، ونحن لهم فيما يزعمون قطين (رقيق).

وتتابع المتكلمون يستوحون من كلمات قيس محاور خطابهم.. وهكذا عقد الإمام الألوية، وأخرج لواء رسول الله (ص) ولم ير ذلك اللواء منذ قبض رسول الله. وكانت الأعين ترمقه فيثير فيها ذكريات بدر وأحد وخيبر وسائر الغزوات.. والجميع يتأمل لمن سيعطيه الإمام؟! وعاد إلى الذاكرة موقف الرسول (ص) في خيبر عندما قال: لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله كرار ليس بفرار يفتح الله على يديه، وتمنى الجميع أن يكون ذلك الواحد وحبست الأنفاس في اليوم التالي: ليروا أي ماجد يعطاها، ودعى رسول الله صاحبها عليّاً أمير المؤمنين (ع)..

وتعلقت الأنظار باللواء لما نشره أمير المؤمنين وبكى البدريون والأنصار.. بكوا فجيعتهم برسول الله وبكوا مظلومية أمير المؤمنين، وبكوا شوقاً إلى لقاء صاحب اللواء.

ولكن.. هل سيحتفظ الإمام به لنفسه؟! و إلاّ فلمن سيعطيه؟ من هو صاحب الشرف والشجاعة؟!.

قيس بن سعد بن عبادة، فقد دعى الإمام قيساً ودفع إليه اللواء واجتمعت الأنصار والبدريون إليه وهم يبكون فأنشأ قيس:

هذا اللواء الذي كنّا نحف به ... مع النبي وجبريل لنا مدد
ما ضر من كانت الأنصار عيبته ... ألايكون له من غيرهم أحد
قوم إذا حاربوا طالت أكفهم ... بالمشرفية حتى يفتح البلد

وانطلق قيس بهذا الإيمان الثابت، يتوسط جيش معاوية فيكثر القتل ويثخن فيغيب فيهم حتى يظن أنه لن يعود، ثم يرجع وهو يقول:

أنا ابن سعد زانه عبادة ... والخزرجيون رجال سادة
ليس فراري في الوغى بعادة ... إن الفرار للفتى قلادة

يا رب أنت لقنّي الشهادة والقتل خير من عناق غادة

حتى متى تثنى لي الوسادة

وهكذا فقد غم معاوية مواقف الأنصار وقتالهم.. فقد قال: لقد غمني ما لقيت من الأوس والخزرج، صاروا واضعين سيوفهم على عواتقهم يدعون إلى النزال حتى والله جبّنوا أصحابي الشجاع والجبان، وحتى والله ما أسأل عن فارس من أهل الشام إلاّ قالوا: قتلته الأنصار!!.

ويصل الخبر إلى قيس بن عبادة، فيمتلىء سروراً.. ها هو- ومعه الأنصار- يملأون قلب معاوية كمداً.. وجمع الأنصار فقام خطيباً:

-.. إن معاوية قد قال ما بلغكم وأجاب عنكم صاحبكم فلعمري لئن غظتم معاوية اليوم فقد غظتموه بالأمس، وإن وترتموه في الإسلام فقد وترتموه في الشرك وما لكم إليه من ذنب أعظم من نصر هذا الدين الذي أنتم عليه؟ فجدّوا اليوم جداً تنسونه به ما كان أمس وجذوا غداً تنسونه به ما كان اليوم، وأنتم مع هذا اللواء الذي كان يقاتل عن يمينه جبرئيل وعن يساره ميكائيل والقوم مع لواء أبي جهل والأحزاب.. [٥٣].

وكان قيس يهيئ لمعاوية يوماً أحمر، لو لم يتنكر، فقد قام برصده وتابع حركاته ثم قنعه بالسيف وشق رأسه، فإذا به غير معاوية، ذلك أن معاوية جعل عدداً من عسكره يتنكرون في مثل لبسه وحليته لكي ينجو. وانتهت صفين بمهزلة التحكيم التي حكم فيها الجاهلون على أهل الوعي والبصيرة تحت تهديد السلاح، وقتل الإمام (!!)، واستطاع أولئك القرّاء الذين يخرجون من الدين كالسهم من الرمية، أن يوقفوا الحرب، لصالح معاوية وجيشه، وأن يضطرّوا أمير المؤمنين (ع) للعودة بينما يرجعون هم لقيادة الفتنة من جديد، فبينما كانوا بالأمس شهروا السلاح بوجه أمير المؤمنين لأنه كان يريد مواصلة القتال ويرفض التحكيم ها هم اليوم يشهرون نفس السلاح لأن الإمام اضطر- بجهلهم وحمقهم- إلى التحكيم، ومادام قد عقد عقداً فلا يستطيع نقضه، والقتال، وها هم يكفّرونه لأنه قبل التحكيم الذي اضطروه إليه.

وتحزبوا في النهروان، بعد أن عاثوا في بلاد الله فساداً ، وخرج إليهم أمير المؤمنين (ع)، وأراد أن يقيم عليهم الحجة، فكان يبعث بالرسل إليهم واعظين محذرين، وقد أتت هذه الطريقة أكلها، فقد اعتزل عن الخوارج عدة آلاف.. ودعا الإمام قيساً وبعثه إليهم، فخرج إليهم وقال:

---

[53] / تاريخ الطبري ٦/ ٤٧.

– عباد الله.. اخرجوا إلينا طلبتنا منكم وادخلوا في هذا الأمر الذي خرجتم منه، وعودوا بنـــا إلى قتال عدونا وعدوكم، فإنكم ركبتم عظيماً من الأمر، تشهدون علينا بالشرك والشرك ظلـــم عظـــيم، تسفكون دماء المسلمين وتعدوهم مشركين!!.

وما كانت القلوب بعد أن أحاطت بها خطاياها تزيد إلاّ ضلالاً، وطغياناً. تلك القلوب المظلمـــة، هي التي سلت سيف حقدها المغموس في سم جهلها، لتعمم به سيد الخلق بعد الرسول في ليلة التاســـع عشر من شهر رمضان، فيهوي فائزاً سعيداً بلقاء ربه والأنس بحبيبه.

وبالرغم من عظم الخسارة التي شعر بها قيس بفقدانه معلمه وأميره علي بن أبي طالب إلاّ أنه كان يرتبط بأمير المؤمنين الذي يجسد خط الإمام الإسلام، والذي استمر ممثلاً بابنه الحسن السبط !، فكـــان المبرز بين أصحابه، وكيف لا وهو الذي أثبت جدارته وكفاءته في أكثر من موقع. فقد كان مستـــشار قائد الجيش الذاهب لحرب معاوية عبيد الله بن العباس ونائبه.

وهكذا عاد قيس مرة أخرى لقتال معاوية، وكان من الممكن ألاّ يقاتله إلاّ مرة واحدة، لولا أصـــحاب اللحى الطويلة والعقول القصيرة، وهل أضرّ الإسلام غير هؤلاء، وغير أولي الأطماع عبيد الذات؟!.

".. فأما معاوية فإنه وافى حتى نزل قرية يقال لها: الحيوضة بمسكن وأقبل عبيد الله بن عباس حتى نـــزل بإزائه فلما كان من غد وجّه معاوية بخيل إلى عبيد الله فيمن معه فضربهم حتى ردّهم إلى معسكرهم، فلما كان الليل أرسل معاوية إلى عبيد الله بن عباس: أن الحسن قد راسلني في الصلح وهو مسلم الأمر إليّ فإن دخلت في طاعتي الآن كنت متبوعاً و إلاّ دخلت وأنت تابع، ولك إن أجبتني الآن أن أعطيك ألف ألف درهم أعجل لك في هذا الوقت نصفها وإذا دخلت الكوفة النصف الآخر.

فأقبل عبيد الله إليه ليلاً فدخل عسكر معاوية فوفى له بما وعده وأصبح الناس ينتظرون عبيد الله أن يخرج، فطلبوه فلم يجدوه، فصلّى بهم قيس بن سعد بن عبادة ثم خطبهم فثبتهم وذكر عبيد الله فنـــال منـــه ثم أمرهم بالصبر والنهوض إلى العدو فأجابوه بالطاعة وقالوا له: انهض بنا إلى عدونا على اسم الله ، فـــترل فنهض بهم وخرج إليه بسر بن أرطأة فصاح إلى أهل العراق: ويحكم هذا أميركـــم عنـــدنا قـــد بـــايع وإمامكم الحسن قد صالح فعلام تقتلون أنفسكم؟!.

فقال لهم قيس بن سعد اختاروا إحدى اثنتين: إما القتال مع غير إمام وإما أن تبايعوا بيعة ضلال.. فقالوا: بل نقاتل بلا إمام فخرجوا فضربوا أهل الشام حتى ردوهم إلى مصافهم، فكتب معاوية إلى قيس يـــدعوه ويمنيه، فكتب إليه قيس:

– لا والله لا تلقاني أبداً إلاّ بيني وبينك الرمح [54]!!

*****

لا شيء أثقل على الأبطال من رؤية أعدائهم فاتحين !!

وأثقل من ذلك عندما يكون النصر من غير جدارة! وليس في ميدان المعركة، إن أفراد جيش الإمام أمير المؤمنين ! الذين تمنى فراقهم بعد أن جرعوه نغب التهمام أنفاساً، أسلموا ابنه الحسن وخانوه، بل تآمر بعضهم لاغتياله، وها هم يشهدون نتيجة ذلك..

(وأيمّ الله لتحتلبن ملء القعب دماً عبيطاً وذعافاً مبيداً..).

معاوية ابن أبي سفيان، الملعون على لسان الرسول، يدخل اليوم الكوفة يفترعها اغتصاباً. بعد أن ترك أهلها أسنة رماحهم، وعزّة سيوفهم وقيس يجد اليوم في حلقه مرارة الحنظل، ويلوك العلقم!! وتمر الذكريات بعينيه مخلفة وراءها دمعة الأسى.

ما الذي يستطيع أن يفعل؟! لقد تعاهد مع شرطة الخميس أن يستمروا على قتال معاوية، لكنهم بعد أن علموا أن الإمام الحسن (ع) تقديراً منه للوضع وحفظاً لدماء شيعته وصحابة أبيه، وأيضاً لفضح معاوية وإظهار حقيقة أمره (صالح)، ولم يلن قيس إلاّ بعد أن أرسل إليه معاوية بسجل قد ختم عليه في أسفله وقال: اكتب ما شئت فهو لك.. واشترط قيس له ولشيعة علي أمير المؤمنين (ع) الأمان على ما أصابوا من الدماء و الأموال [55].

وجلس معاوية للبيعة وأتاه قيس فقال معاوية: بايع يا قيس!!.

فقال قيس: إني كنت لأكره مثل هذا اليوم يا معاوية.

قال معاوية: مه رحمك الله.

فقال قيس: لقد حرصت أن أفرّق بين روحك وجسدك قبل ذلك فأبى الله يا ابن أبي سفيان إلاّ ما أحب.

قال معاوية: فلا يرد أمر الله!!.

وأقبل قيس على الناس بوجهه: يا معشر الناس، لقد اعتضتم الشرّ من الخير واستبدلتم الذلّ من العز، والكفر من الإيمان، فأصبحتم بعد ولاية أمير المؤمنين وسيد المسلمين وابن عم رسول رب العالمين، وقد

---

[54] / شرح النهج ١٤/٤.

[55] / الغدير ٢/ ١٥٤.

وليكم الطليق ابن الطليق يسومكم الخسف ويسير فيكم بالعسف فكيف تجهل ذلك أنفسكم أم طبع الله على قلوبكم وأنتم لا تعقلون.

وجلس قيس على كرسي، وأمر معاوية أن يوضع بينهما رمح ليبر يمينه، و لم يتحرك قيس من مكانه ووضع يده على فخذه فجاء معاوية من سريره وأكب على قيس متى مسح يده وما رفعها قيس إليه.

عزاؤه في ذلك أنه كان سابقاً إلى الرسول (ص). فقد شهد مشاهده كلها وسابقاً إلى ولاية أمير المؤمنين ، (ع) وسابقاً إلى معرفة حقيقة معاوية خصمه القديم العتيد، لقد كتب إليه أيام ولايته على مصر بعد أن حاول معاوية استمالته إلى جانبه: " أما بعد فإنما أنت وثن ابن وثن دخلت في الإسلام كرهاً وخرجت منه طوعاً، لم يقدم إيمانك و لم يحدث نفاقك ..) .

سلام على سيد الأنصار.. عليه السلام.

عبدالله بن عباس بن عبد المطلب

توفي سنة ٦٧ هـ (١)

ولد قبل الهجرة بثلاث سنوات

(اللهم فقهه في الدين وعلّمه التأويل)

الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)

كما ينطلق المارد الشرير من قمقمه، فيملأ الدنيا فحيحاً، وخراباً، انبعث أشقاها عبد الرحمان بن ملجم المرادي لينفذ مهمته القذرة.. اغتيال أمير المؤمنين علي (ع)... انطلق بعد أن شدت الشهوة قلبه وأعمت قطام المعتكفة (!) في المسجد بصيرته... وراح علي (ع) ضحية مهووس خارجي..

وكأن الله سبحانه وتعالى يأبى لأوليائه إلاّ القتل تشريفاً لمنازلهم العالية.

واختنق الإمام الحسن السبط(ع) بعبراته، وهو يتذكر أحداث اليومين الماضيين. وكان لا بد من كلمة تأبين، وإن لم تحط بشخصية الإمام الفقيد:

" لقد قبض في هذه الليلة رجل لم يسبقه الأولون بعمل ولا يدركه الآخرون بعمل، لقد كان يجاهد بين يدي رسول الله،(ص) فيقيه بنفسه وكان رسول الله (ص) يوجهه برايته فيكنفه جبرئيل عن يمينه وميكائيل عن شماله، ولا يرجع حتى يفتح الله على يديه، ولقد توفي في الليلة التي عرج فيها بعيسى ابن مريم، وقبض فيها يوشع بن نون وما خلف صفراء ولا بيضاء، إلاّ سبعمائة درهم فضلت من عطائه أراد أن يبتاع بها خادماً لأهله .."

وكان الموقف بحاجة إلى رجل مواقف..

عبد الله بن عباس، فارس القرآن، قام منتصباً وقال: معاشر الناس هذا ابن نبيكم ووصي إمامكم قوموا فبايعوه..

و لم يكن هذا الموقف اليتيم لابن عباس، فقصته في الولاء لأهل بيت النبوة قديمة.. فلنتتبع مواقف حبر الأمة الذي أجمع الفريقان على جلالة أمره وفقهه ومعرفته.. كيف لا.. وهو التلميذ المفضل لأمير المؤمنين علي (عليه السلام).

يبدأ ابن عباس. بتحديد موقفه منذ الأيام المبكرة لتطور الدعوة الإسلامية، حتى يصل إلى مفترق الطريق عند وفاة الرسول (ص) فيرى كيف كان الرسول لحرصه على مستقبل الأمة يسعى أن يكتب للمسلمين، وثيقة صريحة توضح المسار المطلوب والمرضي لله، إلاّ أن بعض من حضر وفي طليعتهم عمر بن الخطاب يأبى ذلك بزعم أن (الرسول يهجر)، ويتحرق ابن عباس أسى وحسرة.. أيمكن أن يصدر هذا الكلام من رجل يؤمن بأنه(لا ينطق عن الهوى * إن هو إلاّ وحي يوحى)؟!.

وتبقى عقدة الحزن والأسى هذه ترافق ابن عباس أينما حلّ وارتحل

وهو يقول:

- إن الرزية.. كل الرزية ما حال بين رسول الله (ص) وبين أن يكتب لكم ذلك الكتاب.

و لم يكن بعد أن آتاه الله قلباً واعياً، ولساناً قادراً، وعلماً جمّاً، بالذي يسكت عما يراه حقاً، فقد رأى الخليفة الثاني يمشي، فمشى معه، فقال له الخليفة:- أتدري ما الذي منع قومكم منكم بعد رسول الله؟!.

يقول ابن عباس، فقلت والله لا يسبقني بها أبداً.. فقلت: كلا..

فقال: كرهوا أن يجمعوا لكم النبوة والخلافة، فتبجحوا على قومكم بجحاً، فاختارت قريش لنفسها فأصابت ووفقت. لم يكن ابن عباس بالذي يسكت عما يعتقد أنه خطأ، خصوصاً فيما يرتبط بالمسائل العقيدية، فأجاب على الفور:

– أما قولك إن قريشاً اختارت فوفقت فلو أن قريشاً اختارت لأنفسها حين اختار الله لها لكان الصواب بيدها غير مردود ولا محسود وأما قولك أنهم كرهوا أن تكون لنا النبوة والخلافة فإن الله قد وصف قوماً بالكراهة فقال: (ذلك بأنهم كرهوا ما أنزل الله فأحبط أعمالهم).

فغضب الخليفة الثاني، وقال:

– بلغني أنك تقول أنهم إنما صرفوها عنّا حسداً وبغياً وظلماً.

فقال ابن عباس: أما. قولك ظلماً فقد تبين للحليم والجاهل، وأما قولك حسداً فإن آدم حسد ونحن ولده المحسودون [56].

وعندما تأتي الخلافة لأمير المؤمنين (ع)، إذ(لم تك تصلح إلاّ له) لا يلبث ذوو الدنيا، وعبدة المناصب أن يسجّروا عليه نار نكثهم وتمردهم، فكانت الجمل.. وكانت صفين، وكانت النهروان.. وفي كل هـذه المواقع كان ابن عباس السفير المحنك المعتمد والمقاتل الشجاع في صف أمير المؤمنين !.

فقبل أن تبدأ حرب الجمل.. أرسل أمير المؤمنين ابن عباس إلى الزبير، وقال له: لا تلقين طلحة، فإنك إن تلقه تجده كالثور عاقصاً قرنه يركب الصعب ويقول هو الذلول، ولكن ألق الزبير فإنه ألين عريكة، فقل له: يقول لك ابن خالك عرفتني بالحجاز وأنكرتني بالعراق، فما عدا مما بدا؟! [57].

وبالفعل فقد رأى الرسالة، لكن الدوامة التي صنعها عبد الله لأبيه الزبير، وأحلام الرئاسة كانت أقوى من الدعوات المخلصة تلك.. وهكذا وقعت الحرب بقيادة عائشة أم المؤمنين، ومعها جميع الخارجين على أمير المؤمنين من جهة، بينما كان علي بن أبي طالب ومعه البدريون من جهة أخرى.

ما إن انتهت حرب الجمل بهزيمة المعسكر المعادي لأمير المؤمنين (ع) حتى بعث (ع) بابن عباس إلى عائشة يأمرها بتعجيل الرحيل وقلة العرجة.. ولندع ابن عباس يكمل ما حدث:

" فأتيتها وهي في قصر بني خلف في جانب البصرة، فطلبت الإذن عليها فلم تأذن فدخلت عليها من غير إذنها فإذا بيت قفار لم يعد لي فيه مجلس ، فإذا هي من وراء سترين فضربت ببصري فإذا من جانب البيت رحل عليه طنفسة، فمددت يدي، فجلست عليها.

فقالت– من وراء الستر–: أخطأت السنة دخلت بيتنا بغير إذننا وجلست على متاعنا بغير إذننا.

فقلت لها: نحن أولى بالسنة منك ونحن علّمناك السنة وإنما بيتك الذي خلفك فيه رسول الله فخرجت منه ظالمة لنفسك غاشة لدينك عاتبة على ربك عاصية لرسول الله فإذا رجعت إلى بيتك لم ندخله إلاّ بإذنك

---

56 / بحار الأنوار ٢٨ / ٤٠٨

57 / نهج البلاغة / ٣١

و لم نجلس على متاعك إلاّ بأمرك. إن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب بعث إليك يـأمرك بالرحيـل إلى المدينة وقلة العرجة.

فقالت: رحم الله أمير المؤمنين، ذلك عمر بن الخطاب.

فقلت: هذا والله أمير المؤمنين وإن تربدت فيه وجوه ورغمت فيه معاطس (أنوف) أما والله لهـو أمير المؤمنين وأمس برسول الله (ص) رحماً وأقرب قرابة وأقدم سبقاً وأكثر علماً و أعلى مناراً وأكثـر آثاراً من أبيك ومن عمر.

فقالت: أبيت ذلك.

فقلت: أما والله إن كان إباؤك فيه لقصير المدة عظيم التبعة ظاهر الشؤم بين النكد مبين المنكر، وما كان إباؤك فيه إلاّ حلب شاة حتى صرت ما تأمرين ولا تنهين ولا ترفعين ولا تضعين ومـا مثلـك إلاً كمثل ابن الحضرمي بن نجمان أخي بني أسد حيث يقول:

مازال أهداء القصائد بيننا　　　شتم الصديق وكثرة الألقاب

حتى تركتهم كأن قلوبهم　　　في كل مجمعة طنين ذبـاب

قال ابن عباس: فأراقت دمعتها وأبدت عويلها وتبدى نشيجها، ثم قالت: أخرج والله عـنكم فمـا في الأرض أبغض من بلد تكونون فيه.

فقلت: فوالله ماذا بلاؤنا عندك ولا بصنيعنا إليك إن جعلناك للمؤمنين أماً وأنت بنت أم رومان وجعلنا أباك صدّيقاً وهو ابن أبي قحافة.

فقالت: يا ابن عباس تمنون عليّ برسول الله؟!.

فقلت: و لم لا نمن عليك بمن لو كان منك قلامة منه مننت به ونحن لحمه ودمه ومنه وإليه، وما أنت إلاّ حشية من تسع حشايا خلفهن بعده لست بأبيضهن لوناً ولا بأحسنهن وجهاً ولا بأرشحهن عرفـاً ولا بأنضرهن ورقآ ولا بأطراهن أصلاً، فصرت تأمرين فتطاعين وتدعين فتجابين وما مثلك إلاً كما قال أخو بني فهر:

مننت على قومي فأبدوا عداوة　　　فقلت لهم كفوا العداوة والنكرا

ثم نهضت فأتيت إلى أمير المؤمنين فأخبرته بمقالتها وما رددت عليها، فقال: أنا كنت أعلم بـك حيـث بعثتك [٥٨].

---

[58] / بحار الأنوار ٣٢/ ٢٧١

لقد كان ابن عباس، إضافة إلى علمه الوافر، شديد الذكاء، وخبيراً بفنون الجدال ولا يخدع، لذلك كان الإمام يعتمد عليه في مهماته التي تحتاج هذه الصفات فقد كان رأي الإمام أن يكون ابن عباس أحد الحكمين، قائلاً:

- إن معاوية لم يكن ليضع لهذا الأمر أحداً هو أوثق برأيه ونظره من عمر بن العاص وأنه لا يصلح للقرشي إلاّ مثله، فعليكم بعبد الله بن العباس فارموه به فإن عمراً لا يعقد عقدة إلاّ حلها عبد الله، ولا يحل عقدة إلاّ عقدها، ولا يبرم أمراً إلاّ نقضه ولا ينقض أمراً إلاّ أبرمه[٥٩] .

إلاّ أن خطوط النفاق الجاهلية وعلى رأسها الأشعث بن قيس أصرّ - وبدافع قبلي مقيت- إلاّ أن يوجه ضربة للإسلام قائلاً:

- لا والله لا يحكم فينا مضريان حتى تقوم الساعة، ولكن اجعل رجلاً من أهل اليمن إذا جعلوا رجلاً من مضر!!.

فقال أمير المؤمنين (ع): إني أخاف أن يخدع يمنيكم فإن عمراً ليس من الله في شيء إذا كان له في أمر هوى.

إلاّ أن الأشعث قال: والله لأن يحكما ببعض ما نكره وأحدهما من أهل اليمن أحب إلينا من أن يكون بعض ما نحب في حكمهما وهما مضريان..

وهكذا جاء أبو موسى الأشعري ولا ولاء عنده لأمير المؤمنين (ع). إضافة إلى كونه (قريب القعر، كليل المدية) كما قال الأحنف بن قيس، بعبارة أخرى كان شديد السذاجة.

وبالرغم من النصائح التفصيلية التي وجهت لأبي موسى الأشعري، حول كيفية لقائه وكلامه مع ابن العاص، إلاّ أن الطبع غلب التطبع.. فقد جاء إليه ابن عباس وقال له وكان عنده وجوه الناس وأشرافهم:

- يا أبا موسى إن الناس لم يرضوا بك ولم يجتمعوا عليك لفضل لا تشارك فيه وما أكثر أشباهك من المهاجرين والأنصار المتقدمين قبلك!! ولكن أهل العراق أبوا إلاّ أن يكون الحكم يمانياً ورأوا أن معظم أهل الشام يمان، وأيمّ الله إني لأظن ذلك شراً لك ولنا فإنه قد ضم إليك داهية العرب وليس في معاوية خلة يستحق بها الخلافة، فان تقذف بحقك على باطله تدرك حاجتك منه، وأن يطمع باطله في حقك يدرك حاجته منك. واعلم يا أبا موسى أن معاوية طليق الإسلام وأن أباه رأس الأحزاب وأنه يدعي الخلافة من غير مشورة ولا بيعة فإن زعم لك أن عمر وعثمان قد استعملاه فلقد صدق، استعمله عمر وهو الوالي عليه، بمنزلة الطبيب يحميه ما يشتهي ويوجره ما يكره ثم استعمله عثمان برأي عمر، وما

---

[59] / شرح النهج ٢/ ٢٢٩

أكثر من استعملا ممن لم يدع الخلافة، واعلم أن لعمرو مع كل شيء يسرك خبيثاً يسوءك، ومهما نسيت فلا تنس أن علياً بايعه القوم الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان وأنها بيعة هدى وأنه لم يقاتل إلاّ العاصين والناكثين [٦٠].

وجاء الأحنف ونصحه، وهكذا، إلاّ أن الرسالة تقرأ من عنوانها، بل لقد توقع الأكثر نتيجة المباحثـــات قبل وقوعها، مثل أيمن بن خزيم الأسدي وكان معتزلاً، فقد أنشأ:

لو كان للقوم رأي يعصمون به من الضلال رموكم بابن عباس

لله درّ أبيه أيما رجل ما مثله لفصال الخطب في الناس

لكن رموكم بشيخ من ذوي يمن لايهتدي ضرب أخماس لأسداس

أن يخل عمرو به يقذفه في لجج يهوي به النجم تيساً بين أتياس

انتهت مهزلة (التحكيم) بغباء الأشعري، إلى خلع الخليفة الشرعي، بواسطته بينما أثبت عمرو بن العاص ولاية معاوية!! وانتهت أيضاً إلى بروز فتنة الخوارج الذين شهروا السلاح هذه المرة في وجه أمير المؤمنين مطالبين باستمرار الحرب بعد أن شهروه في وجهه قبلئذ! بسبب استمرار الحرب! وما أقسى أن تكون السيوف مصلّتة بيد الشيوخ والقراء ذوي اللحى الصفراء، والعقول السوداء!!.

وهكذا.. خرجوا كما قال رسول الله (ص): يخرج ناس يقرأون القرآن لا يجاوز تراقيهم يمرقـــون مـــن الدين كما يمرق السهم من الرمية، ينظر أحدكم في نصله فلا يرى شيئاً فينظر في قذذه (ريش السهم) فلا يرى شيئاً، سبق الفرث والدم، يصلى بقتالهم أولى الطائفتين بالله ".

وللمرة الثالثة يبعث أمير المؤمنين سفيره وتلميذه ابن عباس، إلى هؤلاء قائلاً: لا تخاصمهم بالقرآن فـــإن القرآن حمّال ذو وجوه. تقول ويقولون ولكن حاججهم بالسنة فإنهم لن يجدوا. عنها محيصا [٦١].

وعندما يستشهد أمير المؤمنين ! بضربة سيف مسموم كقلب حامله، ولكيلا يفقد المصاب رشد الناس، يقوم ابن عباس في وسط الجمع داعياً إلى بيعة الإمام الحسن ! فهو (ابن نبيكم ووصي إمامكم).

وعندما يصدر معاوية الأوامر لأجهزته الدعائية من قصاصين، ووعاظ ،سلاطين ومحـــدثين كذبـــة، أن يقوموا باغتيال شخصية أمير المؤمنين بعد أن اغتال الخوارج شخصه، عبر منع التحديث بفضائل علـــي ومناقبه، ووضع الأحاديث الكاذبة على لسان الرسول في ذم علي !.. يستنفر ابن عباس كل طاقته لمـــا يراه عدواناً على الله ورسوله..

---

[60] / شرح النهج ٢/ ٢٤٦

[61] / نهج البلاغة رقم/ ٧٧.

فها هو يمر بعد أن كف بصره على جماعة جلسوا يسبون أمير المؤمنين، إذ كان سبّه (ع) في العهد الأموي يعتبر فاتحة المجلس والختام.. وكان سعيد بن جبير تلميذه يقوده، فلما سمعهم قال لسعيد: ردني إليهم! فلما رجع إليهم قال:

- أيكم السابّ لله عز وجل؟!.

قالوا: سبحان الله ما فينا أحد يسب الله!.

فقال: أيكم الساب لرسول الله؟.

قالوا: ما فينا من يسب رسول الله!.

فقال: أيكم الساب لعلي بن أبي طالب؟!.

قالوا: أما هذا فكان منه شيء..

فقال: شهدت على رسول الله بما سمعته يقول لعلي بن أبي طالب:

يا على من سبّك فقد سبّني ومن سبّني فقد سبّ الله ومن سبّ الله فقد أكبّه على منخريه في النار [٦٢].

وعندما يسأله معاوية بعد أن استقرّ له الأمر، عن رأيه في علي بن أبي طالب... يقول:

علي أبو الحسن.. صلوات الله عليه، كان والله علم الهدى وكهف التقى ومحل الحجى ومحتد الندى وطود النهى، وعلم الورى، ونوراً في ظلمة الدجى، وداعياً إلى المحجة العظمى ومستمسكاً بالعروة الوثقى وسامياً إلى المجد الأعلى، وقائد الدين والتقى وسيد من تقمص وارتدى، بعل بنت المصطفى وأفضل من صام وصلّى وأفخر من ضحك وبكى، صاحب القبلتين، فهل يساويه مخلوق كان أو يكون؟ كان كالأسد مقاتلاً، ولهم في الحرب حاملاً، على مبغضيه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين إلى يوم التناد [٦٣].

لقد عيّن بشكل واضح مسيره، فعرف صديقه وعرف عدوّه، وكانت تلك المعرفة عميقة، لذلك كان مستعداً في أي وقت لتوضيحها لغيره و لم يكن يخاف- كغيره- سطوة الحكم، لذلك ما كان يخلو مجلس يحضره وفيه أحد من مؤيدي الحكم الأموي إلاً وكان يتحول إلى مجلس مناظره وكنا قد أشرنا إلى أن هذه المناظرات لم تكن ترفاً، بل كانت تدعيماً لنظرية، وإبطالاً لأخرى، في وقت كان يحزك المسلمين الفكر، فحتى الذين لم يكونوا يمتلكون نظرية حقة، كانوا يحاولون أن يدعموا باطلهم بأدلة، يخفى بطلانها على العامة.

---

[62] / تنقيح المقال ٢/ ١٩١.

[63] / عوالم العلوم ١٦/ ٢٤٥.

وإذا كان عمرو بن العاص قد باع دينه في سبيل دنيا زائلة، فقد رتع فيها حتى شبع، وآن الأوان لكـــي يتقيأ ما بلع، فقد وصل به العمر نهايته، وها هو في مرضه الأخير، وابن عباس يدخل عليه، مسلماً:

- كيف أصبحت يا أبا عبد الله؟!.

فقال عمرو: أصبحت وقد أصلحت من دنياي قليلاً وأفسدت من ديني كثيراً فلو كان الذي أصـــلحت هو الذي أفسدت والذي أفسدت هو الذي أصلحت، فزت. ولو كان ينفعني أن أطلب طلبت ولو كان ينجيني الهرب هربت، فقد صرت كالمنخنق بين السماء والأرض لا أرقى بيدين ولا أهبط برجلين فعظني بعظة أنتفع بها يا ابن أخي!!.

الغريب أن الإنسان عندما يمد لنفسه في حبل الغي لا ينتبه إلاً حين يكون الوقت قد انتهى، وقطار التوبة قد غادر المحطة.. وهؤلاء الذين يفكرون أنهم يستطيعون خداع الله، فيقومون بكل المعاصي ويرتبطون في شتى الانحرافات، على أمل التوبة فيما بعد يغفلون عن الآية المباركة (وليست التوبة للـــذين يعملـــون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن..)

لذلك قال ابن عباس له: هيهات أبا عبد الله لقد صار ابن أخيك أخاك ولا تشاء أن تبلـــى إلاّ بليـــت. كيف يؤمر برحيل من هو مقيم؟!.

فقال عمرو: على حينها من حين، ابن بضع وثمانين تقنطني من رحمة ربي اللهم إن ابـــن عبـــاس يقنطني من رحمتك فخذ مني حتى ترضى!!.

فقال ابن عباس: هيهات أبا عبد الله أخذت جديداً وتعطي خلقاً!!.

قال عمرو: مالي ولك يا ابن عباس ما أرسل كلمة إلاّ أرسلت نقيضها! [٦٤].

وذهب عمرو بن العاص إلى خالقه مداناً وتبعه معاوية، ولم ينفعهما مكرهما وكيدهما في تجنـــب هذا المصير.. وجاء بعد معاوية ابنه يزيد، ليصبح (خليفة المسلمين) !!، وليقترف من الجرائم في ثـــلاث سنين ما لم يستطعه غيره في ثلاثين سنة.. وثار الإمام الحسين (ع) لطلب الإصلاح.. وانتهز ابن الزبير الفرصة فقد قام بعد شهادة الإمام الحسين ! ضد يزيد، وخلع بيعته ودعا إلى نفسه داعياً ابن عباس لمـــا يمثله ابن عباس من موقع قوي بين أصحاب الرسول وأمير المؤمنين !. وابن عباس الذي عاصر صراعات الناكثين والبغاة على أمير المؤمنين ، كان يجد أن مسجّر تلك النار كان عبد الله بن الـــزبير، وإن نـــسي أشياء كثيرة فلا يكاد ينسى كلام علي عليه السلام في حق ابن الزبير: مازال الزبير منا أهل البيت حتى نشأ ابنه الميشوم عبد الله.. لذلك رفض ابن عباس بيعة ابن الزبير بصورة قاطعة..

---

64 / شرح النهج ٢/ ٣٢٤.

سمع يزيد بن معاوية وهو في الشام بموقف ابن عباس من الزبير، فظن أن هذا الموقف يعني التمسك ببيعته، وأراد أن يستفيد من الفرصة فكتب لابن عباس:

أما بعد فقد بلغني أن الملحد ابن الزبير دعاك إلى بيعته وأنك اعتصمت ببيعتنا وفاء منك لنا. فجزاك الله من ذي رحم خير ما يجزي الواصلين لأرحامهم الموفين بعهودهم فما أنس من الأشياء فلمست بناس برك وتعجيل صلتك بالذي أنت له أهل، فانظر من طلع عليك من الآفاق ممن سحرهم ابن الزبير بلسانه فأعلمهم بحاله فإنهم منك أسمع ولك أطوع منهم للمحل..

و لم يكن ابن عباس بالغر الذي يخدع بكتاب، أو يزل بعطاء!! إنه الرجل الذي أفنى عمره في جهاد المحلين والظالمين، وقد عين مسيره منذ ذلك اليوم، فكتب إلى يزيد جواباً ساخناً:

أما بعد فقد جاءني كتابك.. فأما تركي بيعة ابن الزبير فوالله ما أرجو بذلك برك ولا حمدك ولكن الله بالذي أنوي عليم. وزعمت أنك لست بناس بري فاحبس أيها الإنسان عني برك فإني حابس عنك بري، وسألت أن أحبب الناس إليك من سرور ولا كرامة.. كيف وقد قتلت حسيناً وفتيان عبد المطلب مصابيح الهدى ونجوم الأعلام غادرتهم خيولك بأمرك في صعيد واحد مرملين بالدماء مسلوبين بالعراء مقتولين بالظلماء لا مكنفين ولا موسدين تسفي عليهم الرياح وينشيء بهم عرج البطاح، حتى أتاح الله بقوم لم يشركوا في دمائهم كفنوهم واجنوهم وبي وبهم عززت وجلست مجلسك الذي جلست، فما أنسى من الأشياء أطرادك حسيناً من حرم رسول الله (ص) إلى حرم الله وتسييرك الخيول إليه فمازلت بذلك حتى أشخصته إلى العراق فخرج خائفاً يترقب فزالت به خيلك عداوة منك لله ولرسوله ولأهل بيته الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً، فطلب إليكم الموادعة وسألكم الرجعة فاغتنمتم قلة أنصاره واستئصال أهل بيته وتعاونتم عليه كأنكم قتلتم أهل بيت من الشرك والكفر، فلا شيء أعجب عندي من طلبك ودي وقد قتلت ولد أبي وسيفك يقطر من دمي وأنت أحد ثأري ولا يعجبك إن ظفرت بنا اليوم فلنظفرن بك يوماً والسلام..

وبقدر ما يندم الخاطئون ساعة فراق الدنيا، إذ تزاح عن عيونهم حجب الغفلة وعن بصائرهم سكر الشهوة فيكتشفون في أي درك كانوا يتردّون، فإن أصحاب اليقين، والسائرين على الصراط المستقيم يرقبون قنطرة العبور إلى منازل السعداء في الآخرة، نظرة شوق وأمل.. ولا فرق عند هؤلاء بين أن يقتلوا وسط الملاحم، وميادين الحروب، أو يأتيهم الموت على فراشهم.. ماداموا على طريق الله، وضمن منهجه. ولسان حالهم.

ولست أبالي حين أقتل مسلماً على أي جنب كان في الله مصرعي

وهكذا كان ابن عباس، فقد عاش في حياته على بصيرة من أمره، مقتدياً بالصالحين ومتبعاً للأئمة الطاهرين، إلى أن قربت أيامه الأخيرة..

فها هو مسجى على فراش مرضه.. وقد أغمي عليه في البيت، ثم أفاق، وتوجه إلى جلسائه قائلاً:

إن خليلي رسول الله(ص) قال: إني سأهاجر هجرتين وإني سأخرج من هجرتي، فهاجرت هجرة مع رسول الله وهجرة مع علي (ع) وإني سأعمى فعميت، وإني سأغرق فأصابني حكة فطرحني أهلي في البحر فغفلوا عني فغرقت ثم استخرجوني بعد.

وأمرني أن أبرأ من خمسة من الناكثين وهم أصحاب الجمل، ومن القاسطين وهم أصحاب الشام ومن الخوارج وهم أهل النهروان..

ثم قال: اللهم إني أحيا على ما حيا به علي بن أبي طالب وأموت على ما مات عليه علي بن أبي طالب [(١)].

وبقدر ما كان ذلك معجزة للرسول (ص) حيث يقتحم أسرار الغيب مخبراً عن المستقبل فقد كان شهادة استقامة لابن عباس.

٤- كميل بن زياد النخعي

شهيداً بيد الحجاج الثقفي سنة ٨٣هـ

قال كميل :

أخذ بيدي أمير المؤمنين (ع) فأخرجني إلى ناحية الجبان (الصحراء) فلما أصحرنا جلس فتنفس الصعداء ثم قال :

يا كميل بن زياد : إن هذه القلوب أوعية فخيرها أوعاها فاحفظ عني ما أقول لك :

يَا كُمَيْل بْن زِيَاد، إِنَّ هذهِ الْقُلُوبَ أَوْعِيَةٌ، فَخَيْرُهَا أَوْعَاهَا، فَاحْفَظْ عَنِّي مَا أَقُولُ لَكَ:

النَّاسُ ثَلاَثَةٌ: فَعَالِمٌ رَبَّانِيٌّ، وَمُتَعَلِّمٌ عَلَى سَبِيلِ نَجَاة، وَهَمَجٌ رَعَاعٌ، أَتْبَاعُ كُلِّ نَاعِق، يَمِيلُونَ مَعَ كُلِّ رِيح، لَمْ يَسْتَضِيئُوا بِنُورِ الْعِلْمِ، وَلَمْ يَلْجَؤُوا إِلَى رُكْن وَثِيق. يَا كُمَيْلُ، الْعِلْمُ خَيْرٌ مِنَ الْمَالِ: الْعِلْمُ يَحْرُسُكَ وَأَنْتَ تَحْرُسُ الْمَالَ، وَالْمَالُ تَنْقُصُهُ النَّفَقَةُ، وَالْعِلْمُ يَزْكُو عَلَى الاْنْفَاقِ، وَصَنِيعُ الْمَالِ يَزُولُ بِزَوَالِهِ.

يَا كُمَيْل بْن زِيَاد، مَعْرِفَةُ الْعِلْمِ دِينٌ يُدَانُ بِهِ، بِهِ يَكْسِبُ الاِنْسَانُ الطَّاعَةَ فِي حَيَاتِهِ، وَجَمِيلَ الاُحْدُوثَةِ بَعْدَ وَفَاتِهِ، وَالْعِلْمُ حَاكِمٌ، وَالْمَالُ مَحْكُومٌ عَلَيْهِ.

يَا كُمَيْل بْن زِياد، هَلَكَ خُزَّانُ الاْمْوَالِ وَهُمْ أَحْيَاءٌ، وَالْعُلَمَاءُ بَاقُونَ مَا بَقِيَ الدَّهْرُ: أَعْيَانُهُمْ مَفْقُودَةٌ،أَمْثَالُهُمْ فِي الْقُلُوب مَوْجُودَةٌ.

هَا إِنَّ ها هُنَا لَعِلْماً جَمّاً (وَأَشَارَ إِلى صَدره) لَوْ أَصَبْتُ لَهُ حَمَلَةً! بَلَى أَصَبْتُ لَقِناً غَيْرَ مَأْمُون عَلَيْهِ، مُسْتَعْمِلاً آلَةَ الدِّينِ لِلدُّنْيَا، وَمُسْتَظْهِراً بِنِعَمَ اللهِ عَلَى عِبَادِهِ، وَبِحُجَجِهِ عَلَى أَوْلِيَائِهِ، أَوْ مُنْقَاداً لِحَمَلَةِ الْحَقِّ، لاَ بَصِيرَةَ لَهُ فِي أَحْنَائِهِ، يَنْقَدِحُ الشَّكُّ فِي قَلْبِهِ لاِوَّلِ عَارِض مِنْ شُبْهَة.

أَلاَ لاَ ذَا وَلاَ ذَاكَ! أَوْ مَنْهُوماً بِاللَّذَّةِ، سَلِسَ الْقِيَادِ لِلشَّهْوَةِ، أَوْ مُغْرَماًبِالْجَمْعِ وَالاِدِّخَارِ، لَيْسَا مِنْ رُعَاةِ الدِّينِ فِي شَيْء، أَقْرَبُ شَيْء شَبَهاً بِهِمَا الاْنْعَامُ السَّائِمَةُ! كَذلِكَ يَمُوتُ الْعِلْمُ بِمَوْتِ حَامِلِيهِ.

اللَّهُمَّ بَلَى! لاَ تَخْلُو الاْرْضُ مِنْ قَائِم لله بِحُجَّة، إِمَّا ظَاهِراً مَشْهُوراً، أَوْ خَائِفاً مَغْمُوراً، لِئَلاَّ تَبْطُلَ حُجَجُ اللهِ وَبَيِّنَاتُهُ.

وَكَمْ ذَا وَأَيْنَ أُولئِكَ؟ أُولئِكَ ــ وَاللَّهِ ــ الاْقَلُّونَ عَدَداً، وَالاْعْظَمُونَ قَدْراً، يَحْفَظُ اللهُ بِهِمْ حُجَجَهُ وَبَيِّنَاتِهِ، حَتَّى يُودِعُوهَا نُظَرَاءَهُمْ، وَيَزْرَعُوهَا فِي قُلُوبِ أَشْبَاهِهِمْ، هَجَمَ بِهِمُ الْعِلْمُ عَلَى حَقِيقَةِ الْبَصِيرَةِ، وَبَاشَرُوا رُوحَ الْيَقِينِ، وَاسْتَلاَنُوا مَا اسْتَوْعَرَهُ الْمُتْرَفُونَ، وَأَنِسُوا بِمَا اسْتَوْحَشَ مِنْهُ الْجَاهِلُونَ، وَصَحِبُوا الدُّنْيَا بِأَبْدَان أَرْوَاحُهَا مُعَلَّقَةٌ بِالْــمَحَلِّ الاْعْلَى، أُولئِكَ خُلَفَاءُ اللهِ فِي أَرْضِهِ، وَالدُّعَاةُ إِلَى دِينِهِ، آهِ آهِ شَوْقاً إِلَى رُؤْيَتِهِمْ!

انْصَرِفْ يَاكُمَيْلُ إذَا شِئْتَ .

****

" ... إِلهِي وَرَبِّي مَنْ لِي غَيْرُكَ أَسأَلُهُ كَشْفَ ضُرِّي وَالنَّظَرَ فِي أَمْري . إِلهِي وَمَوْلايَ أَجْرَيْتَ عَلَيَّ حُكْماً اتَّبَعْتُ فِيــهِ هَوى نَفْسِي وَلَمْ أَحْتَرِسْ فِيهِ مِنْ تَزْيينِ عَدُوِّي ، فَغَرَّني بما أَهْوى وَأَسْعَدَهُ عَلى ذلِكَ القَضاءُ فَتَجاوَزْتُ بما جَرى عَلَيَّ مِنْ ذلِكَ بَعْضَ حُدُودِكَ ، وَخالَفْتُ بَعْضَ أَوامِرِكَ ، فَلَكَ الحَمْدُ عَلَيَّ فِي جَمِيعِ ذلِكَ وَلا حُجَّةَ لِي فِيما جَرى عَلَيَّ فِيهِ قَضاؤُكَ، وَأَلْزَمَني حُكْمُكَ وَبَلاؤُكَ ، وَقَدْ أَتَيْتُكَ يا إِلهِي بَعْدَ تَقْصِيرِي وَإِسْرافِي عَلى نَفْسِي مُعْتَذِراً نادِمــاً مُنْكَــسِراً

مُسْتَقِيلاً مُسْتَغْفِراً مُنيباً مُقِرّاً مُذْعِنا مُعْتَرِفاً ، لا أَجِدُ مَفَرّاً مِمّا كانَ مِنِّي وَلا مَفْزَعاً أَتَوَجَّهُ إِلَيْهِ فِي أَمْرِي ، غَيْرَ قَبُولِكَ عُذْرِي وَإِدْخالِكَ إِيّايَ فِي سَعَةِ رَحْمَتِكَ . اللّهُمَّ فَاقْبَلْ عُذْرِي ، وَارْحَمْ شِدَّةَ ضُرِّي ، وَفُكَّنِي مِنْ شَدِّ وَثاقِي ، يا رَبِّ ارْحَمْ ضَعْفَ بَدَنِي ، وَرِقَّةَ جِلْدِي ، وَدِقَّةَ عَظْمِي ، يا مَنْ بَدَأَ خَلْقِ وَذِكْرِي وَتَرْبِيَتِي وَبِرِّي وَتَغْذِيَتِي ، هَبْنِي لابْتِداءِ كَرَمِكَ وَسالِفِ بِرِّكَ بِي ، ياإِلهِي وَسَيِّدِي وَرَبِّي ، أَتُراكَ مُعَذِّبِي بنارِكَ بَعْدَ تَوْحِيدِكَ وَبَعْدَما انْطَوى عَلَيْهِ قَلْبِي مِنْ مَعْرِفَتِكَ ، وَلَهِجَ بِهِ لِسانِي مِنْ ذِكْرِكَ ، وَاعْتَقَدَهُ ضَمِيرِي مِنْ حُبِّكَ وَبَعْدَ صِدْقِ اعْتِرافِي وَدُعائِي خاضِعاً لِرُبُوبِيَّتِكَ ، هَيْهاتَ ! أَنْتَ أَكْرَمُ مِنْ أَنْ تُضَيِّعَ مَنْ رَبَّيْتَهُ ، أَوْ تُبْعِدَ مَنْ أَدْنَيْتَهُ ، أَوْ تُشَرِّدَ مَنْ آوَيْتَهُ ، أَوْ تُسَلِّمَ إِلى البَلاءِ مَنْ كَفَيْتَهُ وَرَحِمْتَهُ ، وَلَيْتَ شِعْرِي ياسَيِّدِي وَإِلهِي وَمَوْلايَ ! أَتُسَلِّطُ النّارَ عَلى وُجُوهٍ خَرَّتْ لِعَظَمَتِكَ ساجِدَةً ، وَعَلى أَلْسُنٍ نَطَقَتْ بِتَوْحِيدِكَ صادِقَةً وَبِشُكْرِكَ مادِحَةً ، وَعَلى قُلُوبٍ اعتَرَفَتْ بِإِلهِيَّتِكَ مُحَقِّقَةً ، وَعَلى ضَمائِرَ حَوَتْ مِنَ العِلْمِ بِكَ حَتّى صارَتْ خاشِعَةً ، وَعَلى جَوارِحَ سَعَتْ إِلى أَوْطانِ تَعَبُّدِكَ طائِعَةً ، وَأَشارَتْ باسْتِغْفارِكَ مُذْعِنَةً ؟! ما هكَذا الظَنُّ بِكَ وَلا أُخْبِرْنا بِفَضْلِكَ عَنْكَ ياكَرِيمُ يارَبِّ ، وَأَنْتَ تَعْلَمُ ضَعْفِي عَنْ قَلِيلٍ مِنْ بَلاءِ الدُّنْيا وَعُقُوباتِها ، وَما يَجْرِي فِيها مِنَ المَكارِهِ عَلى أَهْلِها ، عَلى أَنَّ ذلِكَ بَلاءٌ وَمَكْرُوهٌ قَلِيلٌ مَكْثُهُ ، يَسِيرٌ بَقاؤُهُ قَصِيرٌ مُدَّتُهُ ، فَكَيْفَ احْتِمالِي لِبَلاءِ الآخِرَةِ وَجَلِيلِ وُقُوعِ المَكارِهِ فِيها ، وَهُوَ بَلاءٌ تَطُولُ مُدَّتُهُ وَيَدُومُ مَقامُهُ وَلا يُخَفَّفُ عَنْ أَهْلِهِ لأَنَّهُ لا يَكُونُ إِلاّ عَنْ غَضَبِكَ وَانْتِقامِكَ وَسَخَطِكَ ؟! وَهذا ما لا تَقُومُ لَهُ السَّماواتُ وَالأَرْضُ ، يا سَيِّدِي فَكَيْفَ لِي وَأَنا عَبْدُكَ الضَّعِيفُ الذَّلِيلُ الحَقِيرُ المِسْكِينُ المُسْتَكِينُ ، ... "

****

.. وخرج أمير المؤمنين عليه السلام ذات ليلة من مسجد الكوفة وقد مضى من الليل ربعه ومعه كميل بن زياد، فوصلا في الطريق إلى باب رجل يتلو القران في ذلك الوقت ويقرأ قوله تعالى: " **أمّن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه.. "**.

بصوت شجي حزين فاستحسن كميل ذلك في باطنه وأعجبه حال الرجل من غير أن يقول شيئا فالتفت أمير المؤمنين عليه السلام إليه وقال يا كميل لا يعجبك طنطنة الرجل إنه من أهل النار.. سأنبئك فيما بعد.

وتحيّر كميل لمكاشفة الإمام له على ما في باطنه ولشهادته بدخول ذلك الرجل النار مع كونه في هذا الوقت وعلى تلك الحالة الحسنة من قراءة القرآن ومضت مدة طويلة إلى أن آل حال الخوارج إلى ما آل وقاتلهم أمير المؤمنين عليه السلام في النهروان.

وانتهت المعركة تماماً كما أخبر عنها الإمام قبل نشوبها حيث قال: مصارعهم دون النطفة (النهر) والله لا يهلك منكم عشرة ولا ينجو منهم عشرة..

وصافحت تلك الجباه السود تراب الأرض في حالة البغي على الإمام الشرعي، وجاء أمير المؤمنين عليه السلام ليتفقد القتلى، ومعه كميل أيضاً فوقف على جثة رجل، وأشار إلى رأسه بذباب سيفه، وقال:

يا كميل" **أمّن هو قانت آناء الليل**...".

أي هذا هو الرجل الذي أعجبك حاله تلك الليلة، وقراءته للقران**!!**.

لم يلتق كميل رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم ولكنه تتلمذ على يد علي عليه السلام حتى اختص به.. والمقاطع المتقدمة هي جزء مما كان يلقيه الإمام أثناء تربيته لكميل.. تجد في المقطع الأول منها تحليلاً لحركة المجتمع وأقسامه على ضوء العلم، ثم موقع العلم والعلماء في المنظور الإسلامي قياساً إلى أصحاب المال والمترفين.

ثم يعلمه طريقة المناجاة والحديث مع الله في دعاء من أعظم الأدعية والذي عرف فيما بعد بدعاء كميل، ويقرأ في ليالي الجمعة، وتشعر وأنت تقرأه بأنفاس أمير المؤمنين ساخنة بين سطوره، وتعرف أي قلب محب لله كان يملكه هذا الرجل، وأي عطف يشتمل عليه تجاه أصحابه حين يعرفهم منازل القرب من خالقهم.

وأخيراً فهو يعلمه وبشكل عملي كيف أن قراءة القرآن من دون وعي قد تكون ضد القرآن و (كم من تال للقرآن والقرآن يلعنه) وأن الاتجاه الذي تحدده ولاية المرء للصالحين هو الذي ينفعه في عاقبة سليمة.

* * *

نلتقي مع أول ظهور لكميل بن زياد في الساحة السياسية الإسلامية في الكوفة ثم في الشام ثم في حمص، ضمن الوفد الذي قدم للخليفة عثمان احتجاجه على والي الكوفة سعيد بن العاص.

ذلك أن سعيداً الذي جاء عوض الوليد بن عقبة، بعد أن شهد على هذا الأخير صلحاء الكوفة وثقاها بأنه شرب الخمر وجاء إلى صلاة الفجر وصلّى بالناس ثمان ركعات، وتقيأ في المحراب ثم التفت إلى المصلحين، و قال: أزيدكم؟.

جاء سعيد بن العاص، بنفس العقلية ليدير الكوفة والياً عليها من قبل الخليفة عثمان.. وبدأ عهده برفع التقارير والوشايات إلى الخليفة ضد كبار أهلها.. فقد كتب إلى عثمان:

إني لا أملك من الكوفة مع الأشتر وأصحابه الذين يدعون القراء وهم السفهاء شيئاً.

وبدلاً من أن يرسل الخليفة جماعة لتقصي حقيقة الأمر كتب إليه أن يسيرهم إلى الشام، وكان هذا أول " تسفير " جماعي لعدد من المسلمين من أرضهم.. وانطلق كميل بن زياد النخعي ومعه مالك الأشتر وزيد وصعصعة

ابنا صوحان والحارث الهمداني، وعدد آخر من كبار شيعة أمير المؤمنين مهجّرين إلى الشام.

لم يستطع معاوية أن يتحمل وجود هذه الجماعة في الشام بعد أن كانت له معهم مجالس ومناظرات وجدهم فيها وعاة عارفين ورجالاً شجعاناً، وسمع أن قوماً من أهل دمشق يجلسون إليهم ويسمعون كلامهم وتلك هي الطامة الكبرى لدى معاوية، فكتب إلى عثمان: أنه قدم عليّ قوم ليست لهم عقول ولا أديان، أضجرهم العدل (!) لا يريدون الله بشيء ولا يتكلمون بحجة إنما همهم الفتنة والله مبتليهم وفاضحهم (!) وليسوا بالذين نخاف نكايتهم وليسوا الأكثر ممن له شعب ونكير، فردهم إلى الكوفة ثم كتب الخليفة لسعيد يأمره بتسييرهم إلى حمص وكان الوالي عليها عبد الرحمان بن خالد بن الوليد وكان هذا- بخلاف أخيه المهاجر الذي استشهد فيما بعد مع أمير المؤمنين بصفين- شديد الحقد على شيعة أمير المؤمنين وعنيفاً عليهم.

لما وصلوا متعبين إلى حمص، استقبلهم عبد الرحمان بن خالد استقبالاً يليق بمدى حقده عليهم.. فقد جمعهم وقال:

يا بني الشيطان لا مرحباً بكم ولا أهلاً، قد رجع الشيطان محسوراً وأنتم بعد في ضلالكم وغيكم، جزى **الله** عبد الرحمان إن لم يؤذكم، يا معشر من لا أدري أعرب هم أم عجم! أتراكم تقولون لي ما قلتم لمعاوية؟! أنا ابن خالد بن الوليد. أنا ابن من عجمته العاجمات. أنا ابن فاقئ عين الردة. والله يا ابن صوحان لأطيرن بك طيرة بعيدة المهوى!!.

* * *

تاريخه هذا في المعاناة مع الظالمين من الولاة أهلّه- إضافة إلى صفاته الأخرى- لكي يكون والياً للإمام علي عليه السلام بعد خلافته على منطقة هيت، ذلك أنه لا يعرف مرارة الظلم إلاّ المظلوم، فإنها تبقى في لسانه لاذعة تمنعه من ظلم الآخرين عادة.

وبالفعل أصبح كميل والياً لأمير المؤمنين عليه السلام.

وبعد صفين بدأ معاوية بأعمال إرهابية على أطراف مناطق أمير المؤمنين عليه السلام، فإذا كان لا يستطيع الثبات في ميدان الحرب فإنه يستطيع أن يشن الغارة على المناطق المدنية ويستطيع إرهاب الكبار والنساء والأطفال!!.

وتصدى ولاة أمير المؤمنين عليه السلام بالرغم من قلة عددهم وعددهم لحملات جيش معاوية، فقد واجه كميل بن زياد عبد الرحمان بن قباث فقد هاجم بلاد الجزيرة، فواجههم كميل وغلب على عسكرهم وأكثر القتل فيهم.

وفكر كميل أن يتابع حملاته المباغتة والفجائية بمن معه على مواقع معاوية، ربما باعتبار أن أفضل وسيلة للدفاع هي الهجوم فاستمر في مهاجمتهم وتتبعهم، لكن هذا بالرغم من فائدته من جهة إلاّ أنه من جهة أخرى سوف يشغل الوالي عن متابعة شؤون منطقته، لصالح الحملات العسكرية، إضافة إلى المشاكل التي ستنتج عن الاستمرار في الأعمال العسكرية هذه.

وقد يكون لهذا السبب، وجه الإمام أمير المؤمنين عليه السلام رسالة عتاب ونقد وتوجيه لكميل بالامتناع عن الاستمرار في الأعمال العسكرية خارج دائرته في الوقت الذي تتعطل فيه لهذا. الدورة الحياتية في المنطقة التي يشرف عليها..

(أما بعد فإن تضييع المرء ما ولي وتكلفه ما كفي لعجز حاضر ورأي متبر وأن تعاطيك الغارة على أهل قرقيسيا وتعطيلك مسالحك التي وليناك ليس بها من يمنعها ولا يرد الجيش عنها لرأي شعاع) .[٦٥]

* * *

وجاء الحجاج الثقفي..

وهو رجل ولع بالدماء منذ طفولته، إذ ينقل أنه لم يقبل ثدي أمه إلاّ بعد أن لطخ له بالدماء.. رجل قال عنه بعض من عاصره (لو جاءت الأمم بجميع مجرميها، وجئنا بالحجاج لغلبناهم)!!.

جاء كنار لم تبق للإسلام أسود ولا أخضر إلاّ وأتت عليه، وكان في الطليعة أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام والحسنين.

وبدأ يبحث عن كميل بن زياد النخعي، الذي توارى واختفى، واستخدم الحجاج وسيلة ضغط، ليحصل عليه، هي أنه منع جميع قومه من (النخع) عطاءهم، وهو المصدر الرئيسي لمعيشة كثير منهم، حتى يأتوه بكميل.

فلما رأى كميل ما حلّ بقومه، وعرف أن الحجاج لا يرعى في مؤمن إلاّ ولا ذمة، قال: أنا شيخ كبير وقد نفذ عمري ولا ينبغي أن أحرم قومي عطاءهم..

دخل كميل إلى قصر الحجاج، الذي ما أن رآه حتى قال: قد كنت أحب أن أجد عليك سبيلاً!!.

---

[65] / نهج البلاغة/ ٦١.

فقال كميل: لا تصرف عليّ أنيابك، ولا تهدم عليّ فوالله ما بقي من عمري إلاّ كواسر الغبار فاقض ما أنت قاض فإن الموعد الله وبعد القتل الحساب، ولقد أخبرني أمير المؤمنين عليه السلام إنك قاتلي..

فقال الحجاج: الحجة عليك إذن!!.

قال كميل: ذاك إذا كان القضاء إليك[٦٦].

ولأن الطغاة لا يبحثون عن التهمة إلاّ بعد الحكم وتنفيذه فقد تدحرج عنق هذا الرجل العظيم، بينما كان يتلمظ الحجاج بريقه وهو يرى منظر الدماء تغطي شيبة كميل.. وتمتم في سرور: لقد كان فيمن قتل عثمان !!.

---

[66] / رجال الخوئي ١٤/ ١٢٩.

٥- أبو الطفيل

عامر بن واثلة الكناني

توفي سنة ١٠٠ هـ

ولد سنة ٣ هـ

طحنّا الفوارس وسط العجاج ... وسقنا الزعانف سوق النقد

وقلنا عليّ لنا والد ... ونحن له طاعة كالولد

أبو الطفيل

(١)

قال الراوي:

دخل ضرار بن ضمرة على معاوية بعد وفاة علي عليه السلام فقال له: يا ضرار صف لي عليّاً، فقال: اعفني من ذلك. قال: أقسمت عليك لتصفنّه لي.

قال: إن كان لا بد من ذلك، فإنه والله بعيد المدى شديد القوى يقول فصلاً ويحكم عدلاً يتفجر العلم من جوانبه وتنطق الحكمة من لسانه يستوحش من الدنيا وزهرتها ويستأنس بالليل ووحشته وكان غزير الدمعة طويل الفكرة يعجبه من اللباس ما خشن ومن الطعام ما جشب وكان فينا كأحدنا، يجيبنا

إذا سألناه ويأتينا إذا دعوناه ونحن والله مع تقريبه إيانا وقربنا منه لا نكاد نكلمه هيبة له، يعظم أهل الدين ويعطف على المساكين، لا يطمع القوي في باطله ولا ييأس الضعيف من عدله، وأشهد بالله يا معاوية لقد رأيته في بعض مواقفه وقد أرض الليل سدوله وغارت نجومه قابضاً على لحيته الشريفة يتململ تململ السليم ويبكي بكاء الحزين ويقول: إليك عني يا دنيا غري غيري أبي تعرضت؟ أم إليّ تشوقت، هيهات هيهات لقد طلقتك ثلاثاً لا رجعة لي فيك فعمرك قصير وخطرك كبير وعيشك حقير.

ثم بكى ضرار.. فسأله معاوية: فكيف حزنك عليه يا ضرار؟!.

قال (ضرار): حزن من ذبح ولدها في حجرها فهي لا ترقا لها دمعة ولا تسكن لها زفرة.

(٢)

وقال الراوي:

ولما استقام لمعاوية أمره لم يكن أحب إليه من لقاء عامر بن واثلة فلم يزل يكاتبه، ويلطف له حتى أتاه، فلما قدم عليه، سأله عن عرب الجاهلية..

ودخل عليه عمرو بن العاص ونفر معه فقال له معاوية:

- تعرفون هذا؟! هذا فارس صفين وشاعرها. هذا خليل أبي الحسن.. ثم قال: يا أبا الطفيل ما بلغ من حبك عليّاً؟!.

قال (عامر): حب أم موسى لموسى.

قال: فما بلغ من بكائك عليه؟!.

قال: بكاء العجوز الملقاة والشيخ الرقوب و إلى الله أشكو تقصيري..

* * *

عرفوا في الإمام الرسول فاستجابوا لدعوته لما يحييهم ورأوا في علمه سعة جنة الله فتبادروا يتفيئون ظلالها، وينهلون من معين كوثرها، ووجدوا فيه الأب الحاني، والأخ الشفيق، والقائد المظلوم.. فأطاعوه طاعة الولد البار، وأحبوه محبة الأخ ودافعوا عنه في حياته، وبقوا أوفياء له بعد وفاته.

أبو الطفيل، عامر، يولد في عام أحد، ولذلك لم يستطع أن يدرك أكثر من ثمان سنوات من حياة الرسول صلى الله عليه و آله و سلم، و لم يشارك- لصغر سنه- في أي موقعة من مواقع الرسول صلى الله عليه و آله و سلم أو غزواته، كذلك لم يلحظ له دور أساسي أو مشاركة هامة في الحياة السياسية آنئذٍ، إلاّ مع خلافة الإمام أمير المؤمنين عليه السلام، إلاّ أنه لم يكن بعيداً عن تلك الساحة الصاخبة بالأحداث، فقد كان يراقب من قرب كيف تولى الخليفة الثالث الخلافة إذ أنه كان (بواب) الدار التي اجتمعوا فيها

(للشورى)، يقول عن تلك الحادثة راويا مناقشة أمير المؤمنين عليه السلام للحاضـــرين حـــول أحقيتـــه بالخلافة، ووصية النبي صلى الله عليه و آله و سلّم ما يلي:

لما احتضر عمر بن الخطاب جعلها (الخلافة) شورى بين ستة..بين علي بن أبي طالب وعثمان بـــن عفان وطلحة والزبير، وسعد ابن أبي وقاص وعبد الرحمان بن عوف وعبد الله بن عمر فيمن يشاور ولا يولى.. فلما اجتمعوا أجلسوني على الباب أرد عنهم الناس فقال علي لهم:

– لأحتجن اليوم عليكم بما لا يستطيع عربيّكم ولا عجميكم تغيير ذلك، ثم قال: أنشدكم الله أيها النفر جميعا أفيكم أحد وحّد الله قبلي؟! قالوا: لا، قال: فأنشدكم الله هل فيكم أحد له أخ مثل جعفر الطيار في الجنة مع الملائكة؟ قالوا: اللهم لا، قال: فأنشدكم الله أفيكم أحد له عم كحمزة أسد الله وأسد رسوله سيد الشهداء غيري؟ قالوا: اللهم لا.. قال: فأنشدكم الله هل فيكم أحد له زوجة مثل زوجتي فاطمة بنت محمد سيدة نساء أهل الجنة غيري؟ قالوا: اللهم لا.. قال: فأنشدكم **الله** هل فيكم أحد له سبطان مثل سبطي الحسن والحسين سيدي شباب أهل الجنة غيري؟! قالوا: اللهم لا، قال: فهل فيكم أحد ناجى رسول الله مرّات قدم بين يدي نجواه صدقة قبلي؟! قالوا: اللهم لا قال: فأنشدكم الله هل فيكم أحد قال له رسول الله: من كنت مولاه فعلي مولاه اللهم والِ من والاه وعاد من عاداه وانصر من نصره، ليبلغ الشاهد الغائب غيري ؟ قالوا:اللهم لا [٦٧].

إلاّ أن رياح عبد الرحمان بن عوف لم لكن تعرف غير قبلة صاحبه عثمان، وسفينة (الشورى) تلك لم تكن لتنتهي إلى غير هذا الساحل، وبالفعل فقد (صغا رجل منهم لصفته ومال الآخر لصهره مع من وهن إلى أن قام ثالث القوم نافجاً حضيه بين نثيله ومعتلفه وقام معه بنو أبيه يخضمون مال الله خضمة الإبل نبتة الربيع إلى أن انتكث عليه فتله وأجهز عليه عمله وكبت به بطنته)[٦٨] .

وقام علي عليه السلام بأمر الخلافة، بينما قامت قيامة أصحاب الدنيا و لم تقعد ضد أمير المؤمنين عليه السلام، فكانت الجمل، ثم كانت صفين وتألق أبو الطفيل وهو فارس مضر وحكيمها..

وإذا كانت بعض النفوس لا تزال تعيش عقد العصبيات القبلية، وتراث الجاهلية، فإن ذلك لم يكن ليجد إلى أبي الطفيل طريقاً، بل إنه يحول ذلك الشعور بالذات إلى عمل إيجابي وتنافس في الخير، فقد روى نصر بن مزاحم في كتاب صفين أن عليّاً عليه السلام كان لا يعدل بربيعة أحداً من الناس فشق ذلك على مضر فقال حصين بن المنذر شعراً أغضب فيه مضراً.

---

67 / الغدير ١ /١٦٠

68 / نهج البلاغة خ ٣.

وكان من الممكن أن تتحول هذه الحادثة إلى إسفين في وحدة عسكر أمير المؤمنين عليه السلام في موقع من أحرج المواقع إلاّ أن أبا الطفيل وهو مضري، جاء إلى أمير المؤمنين باقتراح يجنب الموقف سلبيات الفرقة، ويحول العصبية إلى دفع إيجابي وتسابق في الجهاد قال:

يا أمير المؤمنين إنّا والله لا نحسد قوماً خصهم الله منك بخير أن حمدوه وشكروه، وأن هذا الحي من ربيعة قد ظنوا أنهم أولى بك منا وأنك لهم دوننا، فاعفهم عن القتال أياماً واجعل لكل امرئ منّا يوماً نقاتل فيه فإنا إن اجتمعنا اشتبه عليك بلاؤنا (جهادنا).

كان الاقتراح الذي قدمه أبو الطفيل حسناً فهو إضافة إلى كونه يرفع (حالة التأزم) التي كانت على وشك البروز بين مقاتلي أمير المؤمنين من ربيعة ومضر، ويجعل التنافس بينهم على عدوهم لا في داخلهم، فهو يوفر فرصة للراحة وتجديد القوى لكل فئة، إذ بينما تقاتل فئة تستريح أخرى..

لذلك أجابه أمير المؤمنين عليه السلام قائلاً: أعطيتم ما سألتم وذلك يوم الأربعاء، وأمر ربيعة أن تكف عن القتال وكانت بإزاء اليمن من صفوف أهل الشام فغدا أبو الطفيل وقومه من كنانة (مضر) يوم الخميس فتقدم أمام الخيل وهو يقول: طاعنوا وضاربوا ثم حمل وهو يقول:

قد صابرت في حربها كنانة	والله يجزيها به جنانه
من أفرغ الصبر عليه زانه	أو غلب الجبن عليه شانه
أو كفر الله فقد أهانه	غداً يعض من عصى بنانه

فاقتتلوا قتالاً شديداً ثم انصرف أبو الطفيل **إلى** علي عليه السلام فقال: **يا** أمير المؤمنين نبأتنا أن أشرف القتل الشهادة وأحظى الأمر الصبر وقد والله صبرنا حتى أصبنا فقتيلنا شهيد وحيّنا ثائر فاطلب بمن بقي ثأر من مضى، فإنا وإن كنا قد ذهب صفونا وبقي كدرنا فإن لنا ديناً لا يميل به الهوى ويقيناً لا يزحم الشبهة.. فأثنى عليه علي خيراً.. وهكذا قاتلت بقية القبائل في **الأيام الأخرى**.

* * *

وكان معاوية يستدعي أصحاب أمير المؤمنين بعد شهادته، خصوصاً البارزين فيهم ليناظرهم، و (يغير) قناعاتهم، كما تصور.. فاستدعى أبا الطفيل، وكان في مجلس معاوية عدد من أصحابه قد حضروا يستهزئون بأبي الطفيل! فلما استقر قال معاوية: هذا عمرو بن العاص السهمي وهذا مروان بن الحكم الأموي، وهذا عبد الرحمان ابن أم الحكم السفياني وهذا عتبة ابن أبي سفيان الأموي.

فقال أبو الطفيل: نعم يا معاوية نطقوا بغير ألسنتهم فتكلموا على غير ذلك.

قال معاوية: وكيف ذلك؟!.

قال: أما عمرو الأبتر الشاني لنبي الله صلى الله عليه و آله و سلم ولولي الله فأنطقته مصر وأنطقت الحجاز مروان الوزغ طريد رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم وعبد الرحمان أنطقته أم الحكم فلا جواب لمن لا حياء له دنيا ولا ديناً وقد وهبناه لها، وأما أخوك عتبة فإنه ممن لا يرجى ولا يخشى ولا يضر ولا ينفع، وابن أبي سرح لقد طالما كاد الله ورسوله ووليّه وصد عن سبيله وبغاها عوجاً فويل للقاسية قلوبهم، وأنطقت سعيداً مكة.

ثم قال لعمرو: أكفراً بعد إيمان؟! ونقضاً بعد توكيد وأنا من الحكمين بريء ومنكم براء..

* * *

و إذا كان العمر قد امتد بأبي الطفيل، حتى قارب المئة فقد أتيح له أن

يشهد كيف استمرت الحالة الإسلامية بالانحدار كلما امتد الزمان، تماماً كضلعي الزاوية يبدءان من نقطة ثم يبتعدان عن بعضهما وكلما امتدا زادا تباعداً وتنافراً.. وهكذا أصبح الناس يترحمون على عهد معاوية بعد أن ابتلوا بعهد الحجاج الثقفي.. إذ أصبح حتى الغزو الذي كان يفر إليه الناس طمعاً في النجاة من ظلم الحاكم، أصبح في عهد الحجاج مقصلة يوجه إليها كل من لا يرضاه، فمن لم يمت بسيفه في العراق قضى بسيف عدوه في الديلم، أو هلك عطشا ًفي صحاري الأفغان.. وكان لسان الحجاج في تلك البعوث التي يرسلها: لا أبالي أيهما قتل صاحبه. لذلك فإن الحجاج لما فني الجيش الذي أرسله إلى بلاد رتبيل ولم ينج منه إلاّ القليل، جهز جيشاً آخر وندب إليه زعماء العرب وقادتهم، وعهد بقيادته إلى أحد ألدّ أعدائه وهو عبد الرحمان بن الأشعث.

ومع أن الجيش هذا بلغ غاياته من الفتح والنصر إلاّ إن غايات الحجاج لم تتحقق في فناء قادة العرب الذين كانوا في الجيش وكان يخشى من عودتهم سالمين.. لذلك كتب إلى عبد الرحمان أن يتوغل في أراضي العدو.. وعقد عبد الرحمان الذي لم تكن تخفى عليه أهداف الحجاج مؤتمراً عاماً للجيش،

وخطب فيهم، وكان مما قال: .. وقد كتبت إلى أميركم الحجاج فجاءني منه كتاب يعجّزني و يضعفني و يأمرني بتعجيل الوغول بكم في أرض العدو وهي البلاد التي هلك فيها إخوانكم بالأمس و إنما أنا رجل منكم أمضي إذا مضيتم و أبى إذا أبيتم.

فقام أبو الطفيل و كان أول متكلم، فقال بعد أن حمد الله و أثنى عليه..أما بعد فإن الحجاج والله ما يرى بكم إلا ما رأى القائل الأول إذ قال لأخيه احمل عبدك على الفرس فإن هلك هلك وإن نجا فلك، إن الحجاج ما يبالي أن يخاطر بكم فيقمعكم في بلاد كثيرة اللهوب واللصوب فإن ظفرتم وغنمتم أكل

البلاد وحاز المال وكان ذلك زيادة في سلطانه وإن ظفر عدوكم كنتم أنتم الأعداء البغضاء الذين لا يبالي عنتهم ولا يبقي عليهم.. اخلعوا عدوّ الحجاج[٦٩] .

وصافحت هذه الخطبة أفئدة المقاتلين فصاحوا بأجمعهم: خلعنا عدوّ الله !! .

وفي المعركة التي حدثت بين عبد الرحمان وجيشه مع الحجاج وعسكره في منطقة الزاوية بالبصرة، قتل الطفيل بن عامر.

* * *

ورغم تمادي الحكام في الظلم، على امتداد السنين التي عاشها أبو الطفيل عامر بن واثلة الكناني، فإنه يعيش بأمل دائم.. هو دولة الحق الكريمة التي يعز فيها الإسلام وينعم فيها المسلم.

وإن لأهل الحق لا شك دولة   على الناس إياها أرجى وأرقب

ثم قال: أنا والله ممن يرجى ويرقب[٧٠].

69 / تاريخ الطبري ٥/ ١٤٧

70/ تنقيح المقال ٢/ ١١٨

الحسين بن علي (الشهيد) عليه السلام

الإمام أبو عبد الله

٤ – ٦١ هـ

ولد الإمام أبو عبد الله الحسين (عليه السلام) سنة ٤ هـ . واستشهد سنة ٦١ هـ. بالغ النبي (ص) في الاهتمام به وبأخيه الحسن منذ ولادهما. باعتبارهما الامتداد الطبيعي له حيث ستكون ذرية الرسول من طريقهما ، والامتداد المعنوي والرسالي حتى لقد أثر عنه (ص) قوله: " حسين مني وانا من حسين"، ولقد نقل المحدثون من الفريقين من أحاديث النبي (ص) ما لا يحصى كثرة قي فضله وأخيه الحسن(عليهم السلام).

كان دوره أيام أبيه أمير المؤمنين (عليه السلام) ظلاً لدور الوالد ، ذلك أن الإمام الحسين (عليه السلام) أيام أبيه كان " صامتاً " أي مع فعلية دور الإمام السابق ، لا يبقى للإمام اللاحق من دور خاص به.

مع شهادة أمير المؤمنين (عليه السلام) بدأ الإمام الحسين يتحمل مسؤولية أكبر في عونه لأخيه الإمام الحسن (عليه السلام) ومع شهادة الإمام الحسن (عليه السلام) وتولي الحسين مقاليد الإمامة ، أيام معاوية. عمل في اتجاهات عديدة لصيانة الإسلام من التحريف الأموي ، فمن جهة عمل على مقاومة السياسة الأموية الرامية إلى إسقاط النموذج العلوي في الحكم والإيمان بإرساء " سنة الشتم" لأمير المؤمنين (عليه السلام) والتعمية على فضائله وصفاته من خلال حرمان رواة أخباره من عطائهم وأحياناً بإيذائهم

وهدم بيوتهم. عمل على مقاومة ذلك فكان دائم التحديث بسيرة أمير المؤمنين وكان يجمع الـــرواة في موسم الحج لكي يحدثوا بفضائل أمير المؤمنين وسيرته ، وينقل بعضهم لبعض ما يعملون.

كان يعارض معاوية ويكشف حقيقته للناس من خلال التنديد بقتله لأصحاب أمـــير المـــؤمنين كحجر بن عدي وبالرغم من دعوة البعض الإمام الحسين (عليه السلام) للثورة على معاوية إلا أنه كان لا يستجيب ، لأن الظرف لا يسمح بذلك ، ولأن بينه وبين معاوية عهداً.

عندما هلك معاوية في سنة ٦٠هـــ ، أرسل يزيد للوالي على المدينة (الوليد بن عتبة) بأن يأخـــذ البيعة من الناس عموماً ومن الحسين خصوصاً ، و لم يكن الحسين بالذي يبايع يزيد وهو (شارب الخمـــر عامل بالفسق والفجور) ، فرفض بيعته وخرج إلى مكة المكرمة وكان ذلك التاريخ بدايـــة الانطـــلاق الثوري الذي انتهى إلى عاشوراء وكان خروج الحسين من المدينة إلى مكة في الثامن والعشرين من رجب سنة ٦٠هـــ .

عند وصوله إلى مكة تحول الحسين (عليه السلام) إلى محور لتوجهات المسلمين ، حيث كـــانوا يرونه أفضل الناس وأولى الناس بقيادة المسلمين. وجاءت الكتب للإمام من الكوفة داعية إياه للنـــهوض بالأمر وأن يأتي إلى الكوفة فقد (اخضر الجناب وأينعت الثمار فإنما تقدم على جند لك مجندة) .

استجابة لرسائل أهل الكوفة أرسل الإمام الحسين (عليه السلام) لهم ابن عمه (مسلم بن عقيل) ، ومع أن أهل الكوفة قد أقبلوا عليه في البداية مبايعين ، إلا أن الموقف تحول مع مجيء عبيد الله بن زياد إلى الكوفة حيث ضم يزيد إليه الكوفة بعدما كان والي البصرة بتخطيط من سرجون الرومي وهو أحـــد المتسللين إلى مركز القرار في البلاد الإسلامية منذ أيام معاوية.

في ذي الحجة من نفس السنة غادر الإمام الحسين مكة المكرمة بعدما علم أن هناك خطة لاغتياله ولو كان متعلقاً بأستار الكعبة ، فقصد العراق. وفي الطريق كان أصحاب المطامع الذين خرجوا معه من مكة آملين في الغنيمة يتراجعون ويتسللون لواذاً. و لم يبقى معه إلا أهل بيته وخلص أنصاره .

في الجهة المقابلة كان الأمويون يحشدون الجيوش لقتال الحسين (عليه السلام) فبعد أن سيطر عبيد الله بن زياد على الكوفة ، واستطاع قتل مسلم بن عقيل بعدما تخلى عنه أنصاره ، أمر أن يخرج كل قادر على حمل السلاح إلى قتل الحسين (عليه السلام) تحت تهديد القتل لمن يتأخر.

نزل الإمام الحسين (عليه السلام) كربلاء بمعسكره الصغير الذي لم يكن يتجاوز عدد رجالـــه المائة إلا بقليل ، بينما تكاملت جيوش بني أمية ثلاثين ألفاً .

في اليوم العاشر من المحرم دارت معركة تمثلت فيها البطولة الحقة والدفاع عن القيم بأعلى صورها من جهة ، واللؤم وعبودية الدنيا بأدنى دركاتها في جهة الأمويين .. وكانت النتيجة أن استشهد أصحاب الإمام الحسين (عليه السلام) وأهل بيته وعددهم (١٧) ثم استشهد صلوات الله عليه بعد قتال عنيـــف .. في عصر العاشر من المحرم سنة (٦١) هـــ ودفن حيث مصرعه في كربلاء .

خلفت ثورة الإمام الحسين (عليه السلام) آثار مهمة في حياة الأمة الإسلامية ، كان منها على الصعيد الديني نزع الصفة الدينية عن بني أمية ، وإظهارهم – على واقعهم- أعداء للدين ، ومن كـــان حاله هكذا فلا يصلح لزعامة المسلمين. وعلى الصعيد الاجتماعي خلقت حالة ندم وتأنيب للضمير بين الناس مما أدى إلى اندلاع ثورات بعد الحسين (عليه السلام) كان منها ثورة التوابين وثورة المختار الثقفي اللتان اندلعتا تحت شعار يالثارات الحسين (عليه السلام) ، وأصبح قتل الحسين (عليه السلام) عنوان لكل من يريد الإنتقام من الأمويين ، وجامعاً لكل الفئات على اختلاف مذاهبها ضدهم.

الحر بن يزيد الرياحي
الوفاة: سنة ٦١ هـ بكربلاء

" أنت الحر كما سمتك أمك "

الإمام الحسين (ع)

لا تولد المواقف الكبرى من غير نطفة ومخاض !! .

ولا يوجد في حياة الأفراد طفرات !! وما يحدث من انتقال مفاجىء – بحسب الظاهر – في موقف إنسان فإنما هو نهاية المعركة المحتدمة في داخله أياماً أو شهوراً .. وأحياناً سنين !! لكن لما كان صراع الداخل في النفس عير ملحوظ عادة عند الآخرين فإنهم يتعجبون ويفاجأون بما يحدث .

يضاف إلى ذلك أن الموقف الذي يتخذه المرء في لحظة حساسة من لحظات عمره ، فيصبح بطلاً ، أو يصنع عاراً دائماً .. هذا الموقف ليس من خلق تلك اللحظة ولا من صناعة ظروفها ، بل هو من تراكم عدد هائل من مفردات البطولة وأفكار التضحية ، أو تسافل الهوى وعبادة الدنيا في نفس الإنسان !! .

ولذلك نجد في التاريخ – بل والحاضر – فئتين تتعرضان لهدى القرآن وأحاديث الرسول (ص) ، الأولى تهتز { ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعاً } .
وتسمع الثانية لنفس الكلمات ، فلا تزيدها إلا استكباراً وعتواً ! .

ويتحدث الحسين (عليه السلام) ، عما سيصير إليه نتيجة الصراع بينه وبين بني أمية ، فإذا ببعض من صحبه من مكة يتسللون لواذاً، بينما تشتعل في قلب الحر الرياحي جمرة التفكير الحر ، ولا تنتهي إلا عندما يكون أول شهيد بين يدي الحسين (عليه السلام) .

*   *   *

لا ينقل التاريخ عن حياة الحر إلا أياماً ، تبدأ بخروجه على رأس قوة عسكرية من ألف فارس ، وتنتهي في عصر يوم عاشوراء وكأنها بذلك تختصر الزمن الممتد في حياة الناس حيث يعيشون حياتهم العادية وهمومهم الشخصية من السنين إلى الأيام ، فهل يخلد التاريخ سوى المواقف ، سواء مواقف الفخر أو مواقف اللعنة؟! .

وسوف نرى في حياة الآخرين أيضاً نفس المعنى ، ذلك أن وجه التمايز بين الناس إنما هو بمواقفهم وطريقة حياتهم المترتبة عليها ، فإذا كانوا يشتركون في كثير من الفعاليات الحياتية (يأكلون ويشربون .. وينامون .. الخ) فإنهم يختلفون ويتميزون في المواقف فإذا هذه المواقف تختصر حياة الإنسان ، وإذا بالبطولة تغدو كل حياته مع أنها في ميدان الصراع الخارجي لم تستغرق سوى ساعات.

ولذلك فإن التاريخ بما فيه من مليارات القصص والأحداث لا يستطيع التوقف أمام كل شخص ، لكنه لا يملك إلا أن يخلد مواقف الرجال ورجال المواقف!! .

نعم إن الحر بن يزيد اليربوعي الرياحي من بني تميم ، كان من رؤساء أهل الكوفة ، وكان شريفاً في قومه ، وكان ذلك شجاعاً ، ولم يكن كل ذلك ليعطيه بطاقة الدخول إلى نادي الخالدين لولا موقفه الأخير.

ها هو يستعد للخروج على رأس قوة عسكرية أعدها الوالي الجديد عبيد الله بن زياد بعد أن دخل الكوفة وسيطر عليها وقتل مسلم بن عقيل وهانئ بن عروة وسجن أشراف الشيعة من أنصار الحسين ، ثم أعلن التعبئة العامة في الكوفة ، لتخرج إلى قتال الإمام الحسين (عليه السلام)

وكان لا بد من استباق دخول الإمام إلى الكوفة ، وحصره في موضع بعيد عن الكوفة ، لأن وصوله الكوفة كفيل بزعزعة الوضع الأموي فيها فكان يحتاج إلى فارس شجاع وقائد قادر يمكن الاعتماد عليه في هذه المهمة ، ووقع الاختيار على الحر الرياحي !! .

* * *

خرج الحر من منزله بعد أن استلأم وتسلح ، وقصد قصر الإمارة ليستلم مهمته ، وفيما هو كذلك إذا به يسمع من خلفه منادياً :

يا حر أبشر بالجنة !! .

والتفت خلفه ثم في كل صوب باحثاً عن مصدر الصوت ، فلم يجد أثراً وغرق من جديد في لجة أفكاره حول طبيعة المهمة القادمة ، ومن جديد عاد الصوت .. يا حر أبشر بالجنة !! ومرة أخرى لم ير أحداً ..

قاتل الله الشيطان .. أتراه يمدني في الغي أكثر ؟ كيف أبشر بالجنة وأنا خارج لقتال الحسين بن علي ، وابن فاطمة بنت رسول الله ؟! أترانا على صواب ؟! وهل يقاس ابن زياد بالحسين ؟! .

ترى من قائل ذلك الصوت الذي يتكرر على سمعي؟! وماذا يعني ؟! وهل يستطيع أحد ألا يخرج ؟! بل هل يسمح له ابن زياد بالتفكير؟.

وبعد أن تسلم مهمته وهي قيادة (١٠٠٠) فارس من أهل الكوفة ، من أجل منع الحسين (عليه السلام) من دخول الكوفة فاتحاً ، وأسره والانطلاق به إلى الأمير ابن زياد.

و لم تترك الأفكار والهواجس الحر الرياحي يعيش لحظة من الاستقرار النفسي لقد كان " يتقلى" على نار الأفكار ، طول مسيره .

* * *

هنا شراف ..

منطقة في وسط الطريق بين الكوفة وكربلاء ، وفيها نزل الحسين (عليه السلام) مع أصحابه ، وفي اليوم التالي ، وبعد أن استقوا من الماء فأكثروا ، وساروا .. باتجاه الكوفة...

الله أكبر .. الله أكبر رأيت النخل – صاح أحد أصحاب الحسين (عليه السلام) قبل منتصف النهار بفرح ، ذلك أن رؤية – النخل يعني أنهم على مشارف الكوفة وهو يعني النصر والظفر ، فها هي الكوفة عاصمة أمير المؤمنين (عليه السلام) تفتح أحضانها لاستقبال ابنه الحسين (عليه السلام) بشرى

لكم أيها الكوفيون لقد وصل الغيث الساقي لصحراء بلادكم وأنفسكم .. فرك يديه جذلاً وهو يعيد التكبير ..

ـــ إن هذا المكان ما رأينا به نخلة قط .. قال اثنان من بني أسد. بل هي هوادي الخيل وأسنة الرماح .

ـــ أما لنا ملجأ إليه ونجعله في ظهورنا ونستقبل ونستقبل القوم من وجه واحد؟! سأل الإمام الحسين (عليه السلام) أصحابه.

ومال الجميع إلى جبل ذو حسم مسرعين ، وطلعت عليهم خيل الحر الرياحي وقد أهلكها العطش ، وفتك بها التعب.

كان الوقت مناسباً للقضاء عليهم !! فهم متعبون عطاشى ، وخيولهم أذاها السير الحثيث والبدء بمعركة معهم وهم على هذه الحالة كان يعني بلا شك هزيمتهم ، وهكذا فكر بعض أصحاب الحسين (عليه السلام). وأيضاً تخوف من نفس الأمر أصحاب الحر الرياحي .

وما أن وصلوا حتى قال الإمام الحسين (عليه السلام) لفتيانه:

- اسقوا القوم وارووهم من الماء .. ورشفوا الخيل ترشيفاً !! .

بقدر ما أثار هذا الأمر الحسيني من الفرح لدى جيش الحر ، فقد أشعل أوار الصراع من جديد وبشكل أعنف في نفس الحر الرياحي ..

- أي نمط من الأخلاق يحمله هذا الرجل ، فها هو يقوم من مكانه ، بعد أن وصل علي بن الطعان المحاربي (من جيش عدوه) متأخراً ، فقال له: اخنث السقاء ، فلما لم يدر ما يصنع لشدة العطش ، قام الحسين بنفسه وعطف السقاء حتى شرب وارتوى !! .

ها هو الحسين يواجه الحرب بالسلام ، والقتال بالأخلاق !! وكان هذا يزيد الصراع الداخلي لدى الحر اشتعالاً .

وحضر وقت صلاة الظهر ، فلما أذن المؤذن قام الحسين (عليه السلام) خطيباً وقال :

أيها الناس إنها معذرة إلى الله عز وجل وإليكم ، إني لم آتكم حتى آتتني كتبكم ، وقدمت علي رسلكم أن أقدم علينا فإنه ليس لنا إمام لعل الله يجمعنا بك على الهدى فإن كنتم على ذلك فقد جئتكم

، فإن تعطوني ما أطمئن إليه من عهودكم ومواثيقكم ، أقدم مصركم وإن لم تفعلوا وكنتم لمقدمي كارهين انصرفت عنكم إلى المكان الذي أقبلت منه إليكم.

وبعد أن أنهى خطابه ، أمر المؤذن أن يقيم واتجه إلى الحر ..

- أتريد أن تصلي بأصاحبك؟! .
- لا بل تصلي أنت ونصلي بصلاتك .. أجاب الحر..

فصلى بهم الحسين ثم أنه دخل واجتمع إليه أصحابه وانصرف الحر إلى مكانه الذي كان به فدخل خيمة قد ضربت له فاجتمع إليه جماعة من أصحابه.

فلما كان وقت العصر أمر الحسين أن يتهيأوا للرحيل ثم إنه خرج فأمر مناديه فنادى بالعصر وأقام فاستقدم الحسين فصلى بالقوم ثم سلم وانصرف إلى القوم بوجهه فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

أما بعد أيها الناس فإنكم إن تتقوا وتعرفوا الحق لأهله يكن أرضى لله ونحن أهل البيت أولى بولاية هذا الأمر عليكم من هؤلاء المدعين ما ليس لهم والسائرين فيكم بالجور والعدوان ، وإن أنتم كرهتمونا وجهلتم حقنا وكان رأيكم غير ما أتتني كتبكم وقدمت به علي رسلكم انصرفت عنكم .

فقال له الحر بن يزيد : إنا والله لا ندري ما هذه الكتب التي تذكر ! .

فقال الحسين : يا عقبة بن سمعان أخرج الخرجين الذين فيهما كتبهم إلي ..

فأخرج خرجين مملوئين صحفاً فنشرها بين أيديهم .

فقال الحر : فإنا لسنا من هؤلاء الذين كتبوا إليك وقد أمرنا إذا نحن لقيناك ألا نفارقك حتى نقدمك على عبيد الله بن زياد.

فقال الحسين : الموت أدنى إليك من ذلك .

ثم قال لأصحابه : قوموا فاركبوا .. فركبوا وأرادوا الانصراف فحال القوم بينهم بين الانصراف ، فقال الحسين للحر : ثكلتك أمك ! ما تريد ؟.

فقال الحر : أما والله لو غيرك من العرب يقولها لي وهو على مثل الحال التي أنت عليها ما تركت ذكر أمه بالثكل كائناً من كان ، ولكن والله مالي إلى ذكر أمك من سبيل إلا بأحسن ما يقدر عليه .

وساير الحر الحسين (عليه السلام) ، فلما وصلوا إلى (البيضة) قام الحسين خطيباً في أصحابه وأصحاب الحر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

أيها الناس إن رسول الله (ص) قال : من رأى منكم سلطناً جائراً مستحلاً لحرام الله ناكثاً لعهد الله مخالفاً لسنة رسول الله (ص) يعمل في عبادة بالإثم والعدوان فلم يغير ما عليه بفعل ولا بقول كان حقاً على الله أن يدخله مدخله .

ألا وإن هؤلاء قد لزموا طاعة الشيطان وتركوا طاعة الرحمن وأظهروا الفساد وعطلوا الحدود واستأثروا بالفيء وأحلوا حرام الله وحرموا حلال الله وأنا أحق من غير .

ثم سار حتى نزل بذي حسم فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

إنه قد نزل من الأمر ما قد ترون وإن الدنيا قد تغيرت وتنكرت وأدبر معروفها ، واستمرت حذاء فلم يبق منها إلا صبابة كصبابة الإناء وخسيس عيش كالمرعى الوبيل ، ألا ترون إلى الحق لا يعمل به وإلى البطل لا يتناهى عنه ، ليرغب المؤمن في لقاء الله محقاً فإني لا أرى الموت إلا سعادة والحياة مع الظالمين إلا برماً.

فقام زهير بن القين البجلي فقال لأصحابه : تكلمون أم أتكلم ؟!

قالوا : بل تكلم .

فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: قد سمعنا هداك الله يا ابن رسول الله مقالتك ، والله لو كانت الدنيا لنا باقية وكنا فيها مخلدين إلا أن فراقها نصرك ومواساتك لآثرنا الخروج معك على الإقامة فيها .. فدعى له الحسين وقال له خيراً.

وأقبل الحر يسايره وهويقول له: يا حسين إني أذكرك الله في نفسك فإني أشهد لئن قاتلت لتقتلن ، ولئن قوتلت لتهلكن فيما أرى .

فقال له الحسين (عليه السلام) : أفبالموت تخوفني؟! وهل يعدو بكم الخطب أن تقتلوني؟! ما أدري ما أقول لك. ولكن أقول لك ما قال أخو الأوس لابن عمه حين لقيه وهو يريد نصرة الرسول (ص) فقال له : أين تذهب فإنك مقتول فقال :

سأمضي وما بالموت عار على الفتى	إذا ما نوى حقاً وجاهد مسلماً [١]
وواســـى الرجال الصالحين بنفسه	وفارق مثبوراً وخالف مجرمـــاً

---

[1] مقتل الحسين / لأبي مخنف / ٨٧ .

مع وصول ذلك الفارس. كانت إرهاصات الشهادة قد لاحت في الأفق فما أن وصل الحسين نينوى ، يسايره الحر ويمنع من يريد الاقتراب منه ، فإذا راكب مستلئم في السلاح مقبل من الكوفة فوقفوا جميعاً ينتظرونه ، فما انتهى سلم على الحر وأصحابه و لم يسلم على الإمام الحسين (عليه السلام) .. وكان هذا كافياً كرسالة ، إلا أنه سلم رسالة للحر من ابن زياد جاء فيها:

أما بعد فجعجع بالحسين حين يبلغك كتابي ويقدم عليك رسولي فلا تنزله إلا بالعراء في غير حصن وعلى غير ماء وقد أمرت رسولي أن يلزمك ولا يفارقك حتى يأتيني بإنفاذك أمري .. والسلام .

وبعد يومين وقد الحسين (عليه السلام) والحر يسايره إلى كربلاء ، وبانت عندها أي في الثاني من محرم سنة (٦١) هـ طلائع الجيش الذي يقوده عمر بن سعد الذي خرج إلى قتال الإمام الحسين (عليه السلام) بعد صراع ي داخله حسم خلال يوم لصالح ملك الري !! الذي كان ثمنه قتل الحسين (عليه السلام) .

وهنا نلتقي بشخصين .. عاشت (صراع القتل) ، وشتان بين نتيجتهما !! عمر بن سعد ابن أبي وقاص الزهري .. الذي يلتقي مع الإمام الحسين (عليه السلام) ، في النسب القرشي ، كان الثمن الذي سيدفعه لو امتنع عن الذهاب لقتل الحسين (عليه السلام) ، كان الثمن إمارة الري!! التي لم تحصل له حتى بعد تنفيذه المهمة .. وكان صراع الدين مع الدنيا في نفسه ، وانتصرت الدنيا .. فقد كان عبيد الله بن زياد قد أمره بالخروج إلى الديلم بجيش وكان أهلها قد تمردوا وغلبوا عليها ، وكتب له كتاب الولاية على الري .. وقبل أن يتوجه استدعاه فقال له :

- سر إلى الحسين فإذا فرغنا مما بيننا وبينه سرت إلى عملك .

فقال له عمر : إن رأيت – رحمك الله – أن تعفيني فافعل.

لقد كان ابن زياد يعرف نقطة الضعف لدى عمر بن سعد لذلك قال له فوراً :

- نعم على أن ترد لنا عهدنا!!

لقد أنشب السهم في عين الغرض ، وأفتر ثغره عن ابتسامة ، فقال له عمر :

- أمهلني اليوم حتى أنظر !!

وذهب يستشير (!) فلم يلق أحداً إلا نهاه عن ذلك : أنشدك الله أن تسير إلى الحسين فتأثم بربك وتقطع رحمك فوالله لأن تخرج من دنياك ومالك وسلطان الأرض كلها لو كان لك خير لك من أن تلقى الله بدم الحسين .

وبات الليل يتقلب على جمرة الضمير مرة وعلى برد الدنيا أخرى ، حتى أصبح الصباح وقد اتخذ قراره ..

فوالله ما أدري وإني لحـــــائر	أفكر في أمري علي خطرين
أأترك ملك الري والري منيتي	أم أرجع مأثوماً بقتل حسين
حسين ابن عمي والحوادث جمة	ولكن لي في الري قرة عــين
يقولون إن الله خالق جنـــــة	ونار وتعذيب وغل يــــدين
فإن صدقوا فيما يقولــون إنني	أتـــوب إلى الرحمن من سنتين

وهكذا نسي نداء الضمير ، وتجاهل موقع رحم الحسين ، وأضل نفسه عن عذاب الله ، واتجه يحدوه وهم الرئاسة ، وخيال الإمارة ، لأداء الثمن المطلوب منه: رأس الحسين (عليه السلام) .

والشخصية الأخرى .. الحر بن يزيد الرياحي. الذي أصبح بمجيء (الأمير) عمر بن سعد ابن أبي وقاص ، جندياً كسائر الجنود ، وانظم إلى البحر القادم من الكوفة لقتال الإمام (عليه السلام) .

مع كل حدث في الخارج كان الحر يشهد انعطافاً في داخله. فها هو الجيش الأموي يسيطر على شريعة الماء ويمنع أصحاب الحسين من الاستقاء ، حتى يضطروا لدخول معركة للحصول على الماء ، ويعود بذاكرته أياماً قليلة حينما جاء لحرب الحسين فقام الحسين بنفسه بسقي الماء !! .

ها هي المفاوضات تبدأ ويبدو كلام الحسين منطقياً في مفرداته ، وعروضه عليهم ن فما لهم لا يقبلون ؟! .

كان عمر بن سعد يريد أن يجمع ملك الري وعدم التورط بقتل الحسين في البداية ، ولم يكن ذلك ممكناً لأن أميره كان قد جعل الأول نتيجة للثاني ، ومترتباً عليه. وكان الحر يتحرى مواقع الصواب !! فورد الأول مهلكة الدنيا وعذاب الآخرة ن وفاز الثاني بالخلود في الدارين .

لم يكن هناك مناص من الحرب ، ذلك أن شمر بن ذي الجوشن الضبابي الطامع هو الآخر بقيادة الجيش ، والحصول على ولاية أو إمارة والممثل للتصعيد في أسوأ مراتبه ، جاء بكتاب من ابن زياد يحتوي على تعليمات جديدة كان فيه ... انظر فإن نزل حسين وأصحابه على الحكم واستسلموا فابعث بهم إلي سلماً وأن أبوا فازحف إليهم حتى تقتلهم وتمثل بهم فإنهم لذلك مستحقون ، فإن قتل الحسين فأوطيء الخيل صدره وظهره فإنه عاق مشاق قاطع ظلوم (!) وليس دهري في هذا أن يضر بعد الموت شيئاً ولكن على قول لو قد قتلته فعلت هذا به . إن أنت مضيت لأمرنا جزيناك جزاء السامع المطيع وإن أبيت فاعتزل عملنا وجندنا وخل بين شمر ذي الجوشن وبين العسكر فإنا قد أمرناه ، بأمرنا والسلام.

وهكذا وقف الجيشان وجهاً لوجه ..

في الجانب الأيمن معسكر صغير العدد ، كبير الهمة ، قليل العدة كثير الإيمان ، يحتوي أصحاب البصائر وقوماً مستميتين ،يقدمهم نجوم الأرض من بني هاشم،على رأسهم الإمام الحسين بن علي بن أبي طالب ، سبط الرسول صلى الله عليه و آله و سلم و ابن فاطمة الزهراء عليها السلام...جمع هؤلاء هدف التغيير على الإمام الجائر و الأمر بالمعروف و إحياء سنة رسول الله عليه الصلاة و السلام....

و في الجانب الأيسر همج رعاع...جمعهم هذا الجيش حيث لا قلوب مجتمعة، و لا هدف مشترك..هم حطب الفتن، و وقود الحروب العبثية، على أجسادهم تمر سنابك خيول الأمراء، و على أكتافهم يتسلق طالبوا الزعامة..إن شرق أمراؤهم شرقوا، أو غربوا فكذلك..(لم يستضيئوا بنور العلم و لم يلجأوا إلى ركن وثيق..)..لا يعرفون لماذا يقاتلون ، و يقاتلون من لا يعرفون...

مع هؤلاء العبيد و قف الحر.. وكان موقفه متميزاً بينهم ، فقد طغى الصراع الداخلي عنده على كل ما حوله من أصوات ، فلم يسمع إلا وجيب قلبه ، وإلا احتدام الأفكار فيه ، فلا ميدان إلا ميدان النفس .

وغاب عن عسكره .. وتصور الجنة ونعيمها ، والنار وعذابها ومر أمامه شريط حياته سريعاً ، وتوقف عند ذلك النداء الذي سمعه وقتما خرج من بيته : ابشر بالجنة !! .

تحركت الخيل بعد أن خطب الإمام الحسين (عليه السلام) عازمة على اقتحام مخيمه ، وهنا جاء الحر إلى عمر بن سعد :

- أصلحك الله أمقاتل أنت هذا الرجل؟! سأله الحر .
- أي والله قتالاً أيسره أن تسقط الرؤوس وتطيح الأيدي .
- أما لكم في واحدة من الخصال التي عرض عليكم رضى ؟! .
- أما والله لو كان الأمر إلي لفعلت ولكن أميرك أبى ذلك- أجابه ابن سعد .

وعاد لموقفه مرة أخرى ، ولكنه كان يعد للموقف الجديد (طريقة إخراج) فمن المحتمل أن يمنع أو يقتل فبل أن يتحول إلى معسكر الحسين عليه السلام..لذلك قال لرجل بجانبه:هل سقيت فرسك اليوم..؟؟

قال: لا ...

قال:أما أن تسقيه؟؟ و هكذا صنع لنفسه تغطية في التحرك إلا أن ما كان يجول بداخله كان قد خلف أثراً على خارجه،فقال له المهاجر بن أوس:

- ما تريد يا بن يزيد و الله ان أمرك لمريب و الله ما رأيت منك في موقف قط مثل شيء أراه منك الآن،و لو قيل لـــي من أشجع أهل الكوفة رجلاَ ما عدوتك فما هذا الذي أرى منك..؟
- إني و الله أخير نفسي بين الجنة و النار، و الله لا أختار على الجنة شيئاً و لو قطعت و حرقت...

و ضرب فرسه باتجاه معسكر الحسين عليه السلام..و بهذه النقلة انتقل من عالم إلى عالم، و من دين إلى دين!!!و وضع حداً لصراع المواقف في داخله..و ألقت نفسه عصا ترحالها و استقر بها النوى...

- يا بن رسول الله أنا صاحبك الذي حبستك عن الرجوع وسايرتك في الطريق وجعجعت بك في هذا المكان والله الذي لا إله إلا هو ما ظننت أن القوم يردون عليك ما عرضت عليهم أبداً ولا يبلغون منك هذه المترلة فقلت في نفسي لا أبالي أن أطيع القوم في بعض أمرهم ولا يرون أني خرجت من طاعتهم ، وأما هم فسيقبلون من حسين هذه الخصال التي يعرض عليهم ، والله لو ظننت أنهم لا يقبلونها ما ركبتها منك .

وإن قد جئتك تائباً مما كان مني إلى ربي ومواسياً لك بنفسي حتى أموت بين يديك .. أفترى ذلك لي توبة ؟! .

قال له الإمام : نعم يتوب الله عليك ويغفر لك .

وهكذا حقق بفعله اسمه ن ومارس حريته ، فإذا به ينتقل من موقع العداوة لأهل البيت إلى موقف النصير الفدائي ..

وأراد أن يقوي خط الحرية عند عسكر عمر بن سعد فذهب إليهم وقابلهم وخطب فيهم ، ويقال أن عدد من أقرانه قد التحقوا به بعدئذ .. لكنه لما :

عرف المواعظ لا تفيد بمعشـــــــــــر   صموا عن النبأ العظيم كما عموا

فانصاع يخطب بالجماجم والكلى   والسيف ينشـــــــــر والمثقف ينـــــــــظم

لذا خرج ومعه زهير بن القين يحمي ظهره فكان إذا شد أحدهما واستلحم ، شد الآخر واستنقذ ففعلا ساعة وإن فرس الحر لمضروب على أذنيه وحاجبيه والدماء تسيل منه وهو يتمثل بقول عنترة :

ما زلت أرميهم بثغرة نحـــره   ولبانه حتى تسربل بالـــــــــــــدم

فقال الحصين ليزيد ن سفيان : هذا الحر الذي تتمنى قتله !

قال : نعم

وخرج إليه يطلب المبارزة فما أسرع أن قتله الحر ثم رمى أيوب بن مشرح الخيواني فرس الحر بسهم فعقره وشب به الفرس فوثب عنه كأنه ليث. وبيده السيف وجعل يقاتل راجلاً حتى قتل نيفاً وأربعين ثم شدت عليه الرجالة فصرعته ..

شريط مسيرة هذا الفارس يمر بذهن الإمام ، وهو واقف على مصرعه ، يوم أن التقاه وسقاه مع خيله ، ثم أدبه الكبير واحترامه لفاطمة الزهراء .. وتوبته .. .

وكان بالحر رمق ، فقال له الحسين (عليه السلام) وهو يمسح الدم عنه : أنت الحر كما سمتك أمك أنت الحر في الدنيا وفي الآخرة .. وتبسم الحر ، فقد عرف معنى النداء خلفه في الكوفة :

- يا حر أبشر بالجنة !! .

جون بن حوى (مولى أبي ذر الغفاري)

شهيد كربلاء سنة ٦١ هـ

" اللهم بيض وجهه وطيب ريحه واحشره مع محمد (ص) "

الإمام الحسين (ع)

يختزن في ذاكرته نصف قرن من الزمان والأحداث ، تمتد من أواخر أيام الرسول (ص) حتى شهادته في كربلاء وهو لم يكن في متن صفحة صانعي الأحداث إلا أنه لم يكن بعيداً عنها ذلك أنه نشأ في بيوت صانعي الأحداث وكان يمضي في حوائجهم ، ويحل بحلولهم ويرتحل برحلتهم . فقد كان مع أبي ذر الغفاري في منفاه في الربذة ، وبعده كان في بيت أمير المؤمنين (عليه السلام) معه ، ثم مع الحسنين (عليهما السلام) .

فمن هو هذا العبد الأسود ؟ هلم نفتح الغطاء عن ذاكرته ونطلع منها على ما جرى في تلك الخمسين الأولى من عمر الإسلام .

مائة وخمسون ديناراً ، من كد يمينه في استنباط الآبار سلمها أمير المؤمنين علي (عليه السلام) للفضل بن العباس بن عبد المطلب ثمناً لشراء جون . ووضع في يده ، وجاء به إلى أبي ذر الغفاري واهباً إياه له ليخدمه .

مع مجيئه إلى بيت أبي ذر الغفاري بدا له أنه يتعلم الإسلام من جديد على يد أصدق الناس لهجة ، ذلك الثائر المتحفز دائماً لإنكار المنكر ومواجهة الظلم .

إنه يتعجب من هذا الرجل الذي تعرض عليه الدنيا فيركلها بكلتي رجليه ، ويفضل أن يعيش الفقر وجشوبة العيش على نضارة النعيم .. لقد ركب الكثير من الصحابة قطار الدنيا و لم يتوقفوا .

الكل ينتظر الوصول إلى المحطة الأخيرة .البعض جمع من الذهب ما يكسر بالفؤوس!!

والبعض الآخر باع صحبة النبي ،وفقه الدين لذوي المال والسلطة ،" وبقي رجـــال غض أبصارهم خوف المرجـــع وأراق دموعهم خوف المحشر ، فهم بين شريد ناد وخائف مقموع وداع مخلص وثكلان موجع " .

بقي من تعجل مرارة الدنيا بحلاوة الآخرة ، وكان في طليعتهم مخدومة أبو ذر الغفاري . عفواً هل يمكن أن نسميه مخدوماً؟! ومتى كان لأبي ذر من الشؤون ما يستحق الخدمة ، وهل كان يسمح بذلك لو كان له تلك الشؤون ؟.

إنه لم يشعر يوماً إلا أنه أخ لأبي ذر .

ها هو جون أمام مدرسة جديدة في فهم الإسلام ، مديرها علي بن أبي طالب ، وأبو ذر أحد معلميها ، وخلص صحابة النبي (ص) معالمها الرئيسية .

من يصدق جون ؟! هل يعقل أن يكون المنهج الذي يسير عليه " كبار" الصحابة وزناً ومالاً ومنزلة اجتماعية غير صحيح ؟! وإذاً .. فلماذا يضربهم أبو ذر بقوارض من كلامه دونها لسع النحل ؟!

وهل ما يقوله من أحاديث الرسول (ص) وتفسير آيات القرآن لم يمر على مسامعهم؟! أو ليس أبو ذكر من قال فيه الرسول : " ما أظلت الخضراء ولا أقلت الغبراء على ذي لهجة أصدق من أبي ذر" لقد سمعوا ورأوا ولكن للصدق ثمناً باهظاً لا يستطيع هؤلاء تحمله.

ها هو يرد رسول الخليفة عثمان يصل إلى أبي ذر ومعه مائتا دينار : عثمان يقرئك السلام ويقول لك هذه مائتا دينار تستعين بها على ما نابك .

فرد عليه أبو ذر : وهل أعطى أحداً من المسلمين مثل ما أعطاني ؟!

– كلا .. إنه يقول هذا من صلب مالي وبالله الذي لا إله إلا هو ما خالطها حرام ولا بعثت بها إليك إلا من حلال .

كان العرض مغرياً ، فالأموال حلال !! ومن صلب ماله !! ومن يريد الحيلة الشرعية يستطيع الاعتماد على هذا الكلام ثم يأكل هنيئاً مريئاً !! لقد كان غيره لا يطمع في هذا التوضيح وبهذا القسم والإيمان !! وبقدر ما كان العرض مغرياً كان الجواب مفاجئاً !! لقد قال أبو ذر :

– لا حاجة لي فيها وقد أصبحت يومي هذا وأنا من أغنى الناس !! تعجب جون ، وتعجب الرسول أكثر منه .. أغنى الناس؟! أما البيت فيرثي الكوخ لحاله ، وأما الأثاث !! .

– عافاك الله وأصلحك ما نرى في بيتك قليلاً ولا كثيراً مما يستمتع به .

– بلى تحت هذا الأكاف (برذعة الحمار) الذي ترون رغيفا شعير قد أتى عليهما أيام فما أصنع بهذه الدنانير ، لا والله حتى يعلم الله أني لا أُدر على قليل ولا كثير وقد أصبحت غنياً بولاية أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وعترته الهادين المهديين الراضين المرضيين الذين يهدون بالحق وبه يعدلون [1] .

كانت هذه الجزرة التي استخدمها الخليفة عثمان مع أبي ذر بعد أن بدأ تحركه في وجه الإسراف و الفساد الاقتصادي . وبعد أن أصبح كعب الأحبار اليهودي سابقا مفتي المسلمين اليوم .

وهكذا كان جون يتابع طريقة سيده أبي ذر في الحياة ويتأثر بها ،وبالمدرسه التي ينتمي إليها .حتى كان يوم النفي ، عندما ضاق الخليفة ذرعاً بخطوات أبي ذر فنفاه إلى الشام ،ولما كان الحاكم في الشام أسوأ إسرافاً وأكثر عبثاً قي أموال المسلمين ، فقد كان شغل أبي ذر هناك فضيحته ، حتى أعاده معاوية إلى المركز الأول ، المدينة ، لأن بقاءه في الشام كان كفيلاً بإثارة أهلها ، وتجميع المؤمنين الفقراء ضد حاكمها .

[1] تنقيح المقال ٢٣٥/١ .

عاد وهو يحمل معه عهده مع الرسول (ص) حين آمن أن لا تأخذه في الله لومة لائم ، ولم يحتمله الخليفة فنفاه إلى الربذة .

في كل رحلاته تلك ومعاناته ، كان جون معه متابعاً ومتألماً لما صار إليه حال الأمة والإسلام ، فهذا الدين الذي قام على أساس الدعوة إلى الله ها هو يصبح ألعوبة بيد أبناء أبي العاص ، الذين اتخذوا مال لله دولاً وعباده خولاً .

ذهب أبو ذر ومعه أهله ومولاه جون مودعاً بكلمات أمير المؤمنين (عليه السلام) : إن القوم خافوك على دنياهم وخفتهم على دينك .

وكما عاش وحده ، هاهو أبو ذر يموت وحده بأرض فلاة بعيداً عن دار هجرة الرسول (ص) الأرض التي أحبها أبو ذر .

وعاد جون في سنة ٣٢ للهجرة بعد وفاة أبي ذر الغفاري ، مرة أخرى إلى دار علي بن أبي طالب (عليه السلام) وكان معه .

وتكامل فهمه للإسلام ، فقد كان محظوظاً إذ أنه في السنوات الماضية كان تلميذ أبي ذر ، إلا أنه اليوم تحت رعاية أمير المؤمنين (عليه السلام) والحسنين (عليهما السلام) .

ها هو يراقب كيف يمتد هذا الخط الخالص المضحي لأجل الإسلام ، من مترل الرسول ، إلى مترل حمزة ، وإلى أمير المؤمنين ، وإلى أبي ذر والمقداد وسلمان وعمار ...

هذا الخط الذي قاتل ، وقاتل حتى استوى الإسلام على سوقه ، وحتى بدأ يعجب الزراع . وكيف كانت سائر الخطوط الأخرى ، التي اتخذت من الإسلام جسراً لأطماعها ورغباتها .. سواء أولئك الذين قاتلوا دعوة الإسلام قتال المستميت حتى أذن الله لدينه أن يظهره على الدين كله أو أولئك الذين غيروا تكتيك العمل ليحافظوا على مواقعهم ، فبدلاً من اللات والعزى ، أصبح التكتيك الجديد : الصوم والصلاة !!

هذا الخط الرسالي الذي يقاتل في سبيل إقامة الدين ، ويبلغ في سبيل نشر الإسلام ، ويظلم في سبيل وحدة المسلمين ، ويتحمل كل ذلك من أجل الله ..

التصق به جون وعرف أي كتر قد أرسله الله إليه عندما عرفه الطريق السليم والمحجة الواضحة ، وحجته وقيادته .

ومرت الأيام ، واستشهد أمير المؤمنين (عليه السلام) ، وقتل الإمام الحسن (عليه السلام) وجون لا يزال في هذا البيت الطاهر ، يحل بحلولهم ويرتحل برحلتهم ، حتى كانت رحلة الإمام الحسين (عليه السلام) ليأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويسير بسيرة جده محمد (ص) .

وكانت الرحلة هذه من المدينة باتجاه العراق .

وفي كربلاء كان للعبيد والموالي مواقف الأحرار ، بينما كان الأحرار – ظاهراً– مواقف العبيد . فالموالي الذين كانوا في معسكر الإمام أثبتوا أنهم بمواقفهم ارتقوا منازل عالية ، بينما أولئك الأحرار نسباً في المعسكر الأموي ارتموا في حضيض الذلة والعبودية .

نلتقي في كربلاء مع واضح التركي الذي قاتل فلما صرع استغاث بالحسين (عليه السلام) فأتاه أبو عبد الله واعتنقه فتبسم وقال : من مثلي وابن رسول الله واضع خده على خدي ؟! ثم فاضت روحه.

ونلتقي مع أسلم مولى الحسين (عليه السلام) الذي كان ينازع بعد أن صرع فمشى له الحسين (عليه السلام) واعتنقه أيضاً حتى أستشهد .. ويؤكد الإمام (عليه السلام) بموقفه ذاك حيث لما وضع خده على خد ابنه علي الأكبر وعلى خد واضح التركي مؤكداً بأن مواقف الإنسان هي التي تصنع أمجاده ، فرب شريف النسب يكون وقود جهنم لموقفه السيىء ، ورب مولى عديم القيمة (في نظر الناس) يصبح شهيد كربلاء ويقفز بهذا الموقف خطوة لا نهائية المدى في الارتفاع والسمو .. وجاء جون إلى الإمام الحسين (عليه السلام) يستأذنه للقتال ، فقال له الإمام :

– ياجون إنك إنما تبعتنا طلبا للعافية فأنت في إذن مني . لقد كان الإمام الحسين (ع) يكرر على أصحابه هذه الكلمة: أنت في إذن مني وأنت في حل مني .. وذلك ليبقى معه من عزم على الوصول إلى نهاية المشوار في النصرة ، لكيلا يبقى أحد حياء، أو تورطا . كذلك فإن الكثير من الموالي والعبيد يتبعون ساداتهم مادامو احياء ، ولايكلفون بأن يلزموا مواقفهم السياسية والدينيـــــة فضلا عن الموت في سبيلها .لذلك أراد الإمام أن يفتح خط الرجعة إلى الحياة العادية، إن كان يريد ذلك.

إلا أن (جون) الذي تابع هذه المسيرة منذ البدايات ، وتعلم على يد أبي ذر ، ثم في بيت الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) رأى أن الاستمرار في هذا الطريق والشهادة فيه ، تنتهي إلى الجنة ، وما قيمة الحياة الباردة الرتيبة التي سيعود إليها في مقابل جنة عرضها كعرض السموات والأرض ؟!

لذلك انتفض لتصوره هذا المصير ، ووقع على قدمي الإمام يقبلها ويقول : أنا في الرخاء ألحس قصاعكم وفي الشدة أخذلكم ، إن ريحي لنتن وحسبي للئيم ولوني لأسود ، فتنفس علي بالجنة ليطيب ريحي ويشرف حسبي ويبيض لوني . لا والله لا أفارقكم حتى يختلط هذا الدم الأسود مع دمائكم .

لقد كان ينطلق من موقع الوفاء الأخلاقي ، أولاً، ومن موقع البحث عن الجنة من خلال الشهادة مع الإمام الحسين ، ويرى أن حسبه وشأنه موقوف على الموقف الذي سيتخذه.

وأذن له الإمام الحسين (عليه السلام) فمشى إلى المعركة مستبشراً بالمصير الذي سيلاقيه وهو يرتجز ويقول :

كيف يرى الكفار ضرب الأسود   بالسيف ضرباً عن بني محمد
أذب عنهم باللسان واليـــــــد   أرجو به الجنة يوم المـــــورد

فلم يزل يقاتل حتى قتل خمسة وعشرين مقاتلاً ، وبعدها قتل ، وجاءه الإمام الحسين (عليه السلام) ووقف على مصرعه قائلاً :

– اللهم بيض وجهه وطيب ريحه واحشره مع محمد (ص) وعرف بينه وبين آل محمد (ص).

وأرسلت الشمس خيوط أشعتها الذهبية صباح الثالث عشر من محرم سنة ٦١ هـــ ، خجلى من فعل البشر تصافح أقماراً على أرض كربلاء ... ومع الصباح كانت الأسديات متجهات إلى شريعة الفرات ، فرأين نوراً أبيض ينبعث من جسد أسود ، وقد عبق الجو برائحة المسك ..

وكانت الروح ترفرف في عليين على موعد لقاء مع الرسول الكريم .

مسلم بن عقيل ابن أبي طالب

العمر: ٦٠ سنة

الوفاة: شهيداً في الكوفة

" .. إنما شق العصا معاوية وابنه يزيد والفتنة ألحقها أبوك وأنا أرجو أن يرزقني الله الشهادة على يد شر بريته ... "

ما أن استلم الكتاب من الشام حتى طار فرحاً ، يغذ السير من البصرة باتجاه الكوفة .. لقد تحقق أمله الأكبر فأصبح (والي العراقيين) وهكذا اتجه مع مجموعة من رجاله بعد أن عين أخاه خليفة له. وانطلق يلهب ظهر مركوبه بالسوط لكي يسرع .

لقد كان كل شيء مهيئاً ليقوم بمهمة القضاء على مسلم بن عقيل رسول الحسين إلى الكوفة ، فهو يمتلك من العداء لأهل البيت أكثر ما كان يمتلك أبوه ، بالرغم من أن أباه لم يكن قاصراً في فن التنكيل والاضطهاد لشيعة أهل البيت إذ جرد فيهم سيف بغيه وعدوانه ، بعد أن استلحقه معاوية كابن سفاح لأبي سفيان ، وبقي أن ينفذ مهمة قتل أتباع أهل البيت وأراد أن يكون
تنفيذها بطريقة تثبت(أمويته) وكما أنه (لا تلد الحية إلا حية) فإن الابن تجاوز طغيان أبيه وان لم يحصل على جميع مناصبه ! وهاهي الفرصة تأتي دون أن يسعى إليها. كتاب من يزيد ، بعد مشورة سرجون الرومي عليه :

(أ ما بعد : فقد كتب إلي شيعتي من أهل الكوفة يخبرونني أن ابن عقيل بالكوفة يجمع الجموع لشق عصا المسلمين ، فسر حين تقرأ كتابي هذا حتى تأتي الكوفة فتطلب ابن عقيل كطلب الخذرة حتى تثقفه فتوثقه أو تقتله أو تنفيه . والسلام)

وهكذا خطب في البصرة مودعاً ومعيناً أخاه : " يا أهل البصرة قد استخلفت عليكم عثمان بن زياد ابن أبي سفيان وإياكم والخلاف والإرجاف فوالله لا إله غيره لئن بلغني عن رجل منكم خلاف لأقتلنه وعرينه (رهطه) ووليه ، ولأخذن الأدنى بالأقصى ، حتى تسمعوا لي .. أنا ابن زياد أشبهه بين من وطأ الحصى و لم ينتزعني شبه خال ولا عم " .

إنه الآن على مشارف الكوفة بعد أن سقط وتأخر أكثر من رافقه إعياء من السفر المستمر والمجهد .. وفكر كثيراً .. ما الذي يعمل ، لو عرفه أهل الكوفة فمن الممكن أن يعتقل ويسلم إلى مسلم بن عقيل الذي بايعه أكثر أهل الكوفة .

لذلك لبس ثياباً يمنية ، وعمامة سوداء وتلثم ليوهم من رآه أنه الحسين ، وسار وحده فدخل الكوفة ، بينما كانت جماهير الناس التي يمر بها ترحب قائلة مرحباً بابن رسول الله !! قدمت مصرك وأهلك .

ولم يكن ينبس ببنت شفة ، لأنه لو تكلم عرف ، وكانت المهمة دقيقة فبمقدار ما كان يستثيره ذلك الكلام إلى حد رغبته في الانتقام ، كان عليه أن يظل ساكتاً ، وأن لا يعرف .

وأسرع إلى قصر الإمارة ، وطرق بابه ، فجاء النعمان بن بشير من أعلى القصر وقد ظنه الحسين ، وقال له : ما أنا بمؤد أمانتي إليك يا ابن رسول الله ومالي في قتالك من أرب ..

فصاح به ابن زياد : افتح لا فتحت فقد طال ليلك .

لما تكلم .. صاح بعض من كان حاضراً بالناس : إنه ابن مرجانه ورب الكعبة .

وهكذا أصبح ابن مرجانه عبيد الله بن زياد أمير الكوفة ، وأزاح النعمان بن بشير الأنصاري الذي لم يكن له في القتال أرب أو رغبة .

وأعلن الأحكام العرفية ، ناشراً الخوف والإرهاب ، فقد قبض على جماعة من أهل الكوفة فقتلهم فوراً ..

وتنبه مسلم بن عقيل وافد الحسين (عليه السلام) إلى ما يعنيه مجيء ابن زياد إلى الكوفة .. فهو يعرفه جيداً كما يعرف أباه من قبله ، ويدرك مدى الحقد الذي يحمله اللقطاء للشرفاء ، ولذلك كان عليه أن يحيط نشاطه بمقدار أكبر من التكتم ، وأن يغير موقع إدارته للتحرك فخرج من بيت المختار ابن أبي عبيدة الثقفي إلى دار هانئ بن عروة المرادي ذلك أن هانئاً بما يتمتع به من عزة العشيرة ومنعة الرجال ، لا يجاريه غيره ، فقد كان يركب في أربعة آلاف دارع من مراد .

واستمر المبايعون يفدون على مسلم في دار هانئ بن عروة حتى وصل عددهم إلى ثمانية عشر ألفاً

كان شريك بن الأعور وهو من شيعة أمير المؤمنين (عليه السلام) ومن أشراف البصرة ، قد قدم إلى الكوفة ونزل ضيفاً على هانئ بن عروة في بيته في نفس الفترة التي قدم فيها ابن زياد إلى الكوفة ، ومرض شريك مرضاً شديداً ، فأرسل إليه ابن زياد بأنه آت لعيادته ..

وبدأ شريك يخطط للأمر ، فقال لمسلم بن عقيل :

ــ إنما غايتك وغاية شيعتك هلاك هذا الطاغية وقد أمكنك الله منه وهو صائر إلي ليعودني فقم إلى قصر الإمارة فاجلس فيه فإنه لا ينازعك فيه أحد من الناس فإن رزقني الله العافية صرت إلى البصرة فكفيتك أمرها وبايع لك أهلها .

وسمع ذلك هانئ ، وكره أن يقتل في داره ، ربما تمسكاً بالعادات العربية التي تحترم الضيف الوافد للبيت .. غير أن شريكاً الذي كان ينصح هانئاً على القيام بأمر مسلم والاهتمام بإنفاذ أمره .. ل يسمع لهانئ وقال له :

ـــ و لم ؟! فوالله إن قتله لقربان إلى الله [1] .

ثم قال لمسلم : لا تقصر في ذلك .

فبينما هم على ذلك إذ قيل لهم : الأمير بالباب .

فدخل مسلم الخزانة ، ودخل عبيد الله بن زياد على شريك ، فجعل يسأله عن علته ، وهو يجيبه .. بينما قد أخذه القلق بشأن المهمة المنتظرة ، فلما أبطأ عليه جعل يقول ـــ مشيراً إلى مسلم بضرورة الإسراع في تنفيذ المهمة ـــ :

ما تنظرون بسلمى أن تحيوهـــا حيوا سلمى وحيوا من يحييها

هل شربة عذبة أسقى على ظمأ ولو تلفت وكانت منيتي فيها

ثم قال : لله أبوك اسقونيها ولو كانت فيها نفسي !!

يقول ذلك مرتين أو ثلاثة .. فقال عبيد الله (بن زياد) ـــ وهو لا يفطن ـــ : ما شأنه أترونه يهجر ؟! فقال هانئ : نعم ـــ أصلحك الله ـــ ما زال هكذا منذ أصبح .

وقام ابن زياد وانصرف .. بينما كانت نفس شريك تتقطع حسرات على فوات الفرصة ، وقام إلى مسلم قائلاً : ما منعك من قتله ؟!

فقال مسلم : منعتني منه خصلتان : إحداهما كراهية هانئ أن يقتل في داره ، والأخرى قول رسول الله (ص) : الإيمان قيد الفتك لا يفتك مؤمن .

فقال شريك : أما والله لو قتلته لاستقام لك أمرك واستوسق لك سلطانك [1] .

وكان في هذا الموقف تصوير لثلاث شخصيات : الأولى شخصية شريك بن الأعور الشريف البصري ، الذي كان يهمه بالدرجة الأولى تحقيق الهدف السياسي بقتل ابن زياد والسيطرة على الكوفة ثم البصرة ، لأن ذلك كفيلاً في رأيه بانتصار الحسين (عليه السلام) ، وثبات أمر مسلم بن عقيل . وكان مندفعاً لتحقيق هذا الهدف بكل ما استطاع .

والثانية شخصية هانئ بن عروة المرادي الذي أجار مسلماً ، وأصبح حاميه ، ولكنه لم يشأ أن يكون حل الأزمة بهذه الطريقة تبعاً لحسابات أخلاقية واجتماعية تمنع قتل الضيف ـــ كائنا من كان ـــ في بيت مضيفه .

---

[1] الأخبار الطوال .

[1] المصدر السابق / ٢٣٥ .

والثالثة : شخصية مسلم بن عقيل ، والذي يلتزم في كل تحركه بمنهج أئمته القائم على رفض الغدر والفتك ، وإن كان هذا في قاموس السياسيين النفعيين من الأدوات العادية للعمل .. إلا أنه في منهج أهل البيت يعتبر خطيئة أخلاقية ومخالفة للهدف الذي يسعون إليه .. وبالرغم من أن (خائنة الأعين) وما يتبعها من التآمر محرمة على النبي (اختصاصاً) فكان بعض مهدوري الدم يفوتونه ولا يستطيع أن يشير ــ بعينه ــ بقتلهم ، إلا أنها ــ في من بعده من أهل البيت ــ تبين المنهج العام .

وهكذا .. نجى ابن زياد بجلده لأن الضوابط الأخلاقية والدينية منعت مسلماً من الإجهاز عليه ، إلا أن أي نوع من الضوابط لم يكن ليوقف ابن زياد عن تنفيذ مهمته ، فاستدعى معقلاً مولاه ، وناوله كيساً فيه ثلاثة آلاف درهم وقال له :

ــ خذ هذا المال وانطلق فالتمس مسلم بن عقيل وتأن له بغاية التأتي .

وانطلق معقل حتى دخل المسجد الأعظم وجعل لا يدري كيف يتأتى الأمر ، ثم أنه نظر إلى رجل كثير الصلاة إلى سارية من سواري المسجد فقال في نفسه :

ــ أن هؤلاء الشيعة يكثرون الصلاة واحسب هذا منهم .

فجلس الرجل حتى إذا انفتل من صلاته قام فدنا منه وجلس فقال :

ــ جعلت فداك إني رجل من أهل الشام مولى لذي الكلاع الحميري وقد أنعم الله علي بحب أهل بيت رسول الله (ص) وحب من أحبهم ومعي هذه الثلاثة آلاف درهم ، أحب إيصالها إلى رجل بلغني أنه قدم هذا المصر داعية الحسين بن علي (عليه السلام) فهل تدلني عليه لأوصل المال إليه؟ ليستعين به على بعض أموره ويضعه حيث أحب من شيعته .

وهكذا وقع مسلم بن عوسجة في فخ معقل مولى بن زياد ، وكان ينبغي التريث في أمره أو على الأقل عدم إيصاله إلى موقع مسلم بن عقيل ، فأخذ منه ذمة الله وعهده أن يكتم ، فأعطاه معقل ما شاء .. واتفقا على اليوم التالي ليوصله إلى مسلم بن عقيل .

ووصل إلى مسلم وبقي إلى المساء ، وكان يغدو في كل يوم فيكون نهاره كله هناك يتعرف أخبارهم ثم ينقلها إلى ابن زياد .. وأعلمه أن مسلماً في بيت هانئ بن عروة .

ابن زياد الذي كان لا يقر له قرار ن بعد معرفته نزول مسلم في بيت هانئ ، فكر كثيراً قبل أن يقدم على خطوة اعتقال هانئ ، وذلك لما يعرفه من قوة عشيرته أنه يحتاج إلى اعتقاله دون أن يثير ذلك أحداً من عشيرته .. فبعث إليه محمداً ابن الأشعث وأسماء بن خارجة اللذين قالا له :

ــ أقسمنا عليك ألا قمت معنا إليه الساعة لتسل سخيمة قلبه .

وقام معهم ، وكان عليه أن يقدر الظروف السياسية المحيطة بالكوفة فيحترز بعدم الذهاب أو الاحتياط حين الذهاب .. ولكن يبدو أن هذه هي مشكلة أتباع أهل البيت أنهم على مستوى عال من الأخلاق والفضائل التي تمنعهم عن الغدر والارتياب ويتصوروه أن الناس كلهم كذلك ، بينما يقف أعداؤهم على الطرف النقيض فلا دين يردعهم ولا أخلاق تحجزهم أو ذمام .

هاهو هانئ الذي منعته أخلاقه أن يسمح بقتل ابن زياد ـــ وهو عدوه ـــ في مترله ، يستدرجه ابن زياد نفسه ـــ بالخديعة ـــ إلى حيث سيكون مقتله قي قصر ابن زياد ..

ودخلوا جميعاً على ابن زياد .. الذي تمثل قائلاً :

أريدحياته ويريد قتلـــي عذيـــرك من خليـــلك من مراد

فاستغرب هانئ من هذا الاستقبال ، وقال :

ـــ وما ذاك أيها الأمير؟!

ـــ وما يكون أعظم من مجيئك بمسلم بن عقيل وإدخالك إياه في مترلك ، وجمعك له الرجال ليبايعوه .

ـــ ما فعلت وما أعرف من هذا شيئاً .

فدعا بمعقل .. فجاء إليه ، وخاطب هانئ : أتعرف هذا ؟!

فلما رآه علم أنه كان عيناً عليهم ، قص على ابن زياد كيفية مجيء مسلم إلى داره .. وأنه سوف يخرجه من داره لينطلق حيث يشاء . إلا أن ابن زياد لم يكن ليفوت الفرصة عليه. فقال :

ـــ لا والله لا تفارقني حتى تأتيني به ..

ـــ أو يجمل بي أن أسلم ضيفي وجاري للقتل؟ والله لا أفعل ذلك أبداً .

ومرة أخرى ، فإن تلك أخلاق الأشراف العربية تمنع هانئاً من تسليم مسلم إلى ابن زياد.

ـــ لتأتيني به أو لأضربن عنقك . .

ـــ إذن .. تكثر البارقة حولك .. قال هانئ .

ـــ والهفا عليك أبالبارقة تخوفني؟ وأمر ابن زياد غلمانه فأخذوا بضفيرتي هانئ وأخذ ابن زياد القضيب فاستعرض به وجهه ، وضربه ضرباً عنيفاً حتى كسر أنفه ونثر لحم خديه وجبينه على لحيته حتى تحطم القضيب وسالت الدماء على ثيابه ، وعمد هانئ إلى قائم سيف شرطي محاولاً اختطافه ليدافع به عن نفسه فمنعه منه وقال ابن زياد : احروري احللت بنفسك وحل لنا قتلك . وأمرنا باعتقاله في أحد بيوت القصر .

مع اعتقال هانئ لم يبقى أمام مسلم غير إعلان الثورة فنادى بشعاره :

يا منصور أمت ، فاجتمع أنصاره إليه وأحاطوا بقصر الإمارة .

وإذا كان لكل شيء آفة ، فإن آفة الحركات الجماهيرية هي الطابور الخامس الذي ينفذ بين الثائرين فيميت فيهم روح الشجاعة ، والحس والمسؤولية ، ويحيي فيهم الدوافع الذاتية ، يغطي عن أعينهم آمال المستقبل ، بينما يسلط الضوء على الماضي ، تخويفاً وترغيباً .. وهذا مذبح الثورات .

وبالفعل فإن الدور الذي قام به كثير الحارثي ومحمد بن الأشعث وشبث بن ربعي ، وشمر بن ذي الجوشن الضبابي ، في تخذيل الناس عن مسلم ، وكذلك الدور الذي قام به عشرون من " أشراف الكوفة الذين كانوا مع ابن زياد يشرفون من أعلى القصر على الناس فيمنون أهل الطاعة ويخوفون أهل الثورة ..

فلما سمع الناس مقالة أشرافهم أخذوا يتفرقون حتى أن المرأة تأتي ابنها وأخاها وتقول : انصرف !! الناس يكفونك ، ويفعل الرجل مثل ذلك فما زالوا يتفرقون حتى بقي ابن عقيل في المسجد في ثلاثين رجلاً .

فرغ من الصلاة ، وخرج من المسجد ولم يبقى معه أحد فمضى في أزقة الكوفة لا يدري أين يذهب .. فانتهى إلى باب امرأة يقال لها طوعة..

وهكذا بعد أن باء أولئك الرجال بمواقف (النساء) ، جاءت هذه المرأة لتتحمل موقف الرجال ، فكانت الرجل الوحيد بين عشرات الألوف من النساء !! .

فجلس عل باب دارها ، ولما خرجت وسألته عما يريد .. استسقى ماء ، فسقته وجلس .. فسألته : يا عبد الله ألم تشرب ؟! قال : بلى !

ــ فاذهب إلى أهلك .. وسكت مسلم .. فكررت عليه ذلك ثلاثاً وهو واقف ..

ــ إني لا أحل لك الجلوس على بابي .. اذهب إلى أهلك .

ــ ليس لي في هذا المصر مترل ولا عشيرة ، فهل لك إلى أجر ومعروف ولعلي أكافئك به بعد يوم ؟ .

ــ أنا مسلم بن عقيل كذبني هؤلاء القوم وغروني ..

وبقدر ما أذهلتها المفاجأة فقد سرت لكونها ستخدم رسول الحسين في مترلها . وهكذا أدخلته إلى دار في بيتها ، وبقي يصلي ليلته تلك ..

مع مجيء ابنها (بلال) إلى المترل ، لاحظ حركة غير عادية فيه ، فكثرة دخول أمه لتلك الدار وخروجها ، ينبيء عن أمر فيها .. وهكذا ألح عليها في إخباره وعلم بالتالي بوجود مسلم في تلك الدار .

وظل يتقلب ليلة على حرير الآمال مترقباً الجائزة الكبرى التي سيحصل عليها من الأمير!! لذلك ما إن أصبح الصباح حتى سبقته قدماه إلى مجلس ابن زياد مخبراً ..

وبهذا الخبر تسابقت الخيل إلى منزل طوعة طمعاً في القبض على مسلم ، سبعون فارساً، استطاع مسلم أن يردهم إلى مواضعهم ، وكان يأخذ الفارس منهم من على ظهر فرسه فيجلده أرضاً .. فطلب محمد بن الأشعث قائد تلك الفرقة المدد ، فلم يقدروا عليه ، فكانوا يصعدون على سطح البيت ويرمونه بالحجارة ويلهبون النار في القصب ويلقونها عليه ، فلما رأى ذلك خرج إليهم في السكة يقاتلهم فقال له محمد بن الأشعث : لك الأمان فلا تقتل نفسك ! لم يكن مسلم يطلب الأمان لنفسه. بل كان يسعى لتوفير الأمن للناس جميعاً .

بينما كان يتمثل :

أقسمت لا أقتــل إلا حــراً	وإن رأيت المــوت شــيئاً نكــرا
رد شعاع النفس فاستقرا	أخــــاف أن أقتــل أو أغــــرا [1]

وهكذا استمر يقاتل حتى ضعف عن القتال ، وأثخن بالحجارة أعياه نزف الدم فأسند ظهره إلى حادثة ، وتكاثروا عليه فوقع أسيراً بيدهم . .

وأخذ سيفه فبكى ..

أترى هل بكى لفراق سيفه ، أم لخذلان الناس لأنفسهم وتراجعهم عن ما يصلحهم ؟! أو لولاية الفاسقين على المؤمنين ؟! وكم هو شجي منظر البطل الفارس وهو يبكي ، بعد أن رأى أن حرصه على إنقاذ الناس قابله هؤلاء بهزيمة ورأى أن سيده الحسين .. سيريق دمه في سبيل هذا المجتمع ..

بعض من حوله ممن لا يفهم طبيعة المؤمنين الثائرين ، ظن أن بكاء مسلم سببه الخوف والإشفاق من الموت .. فقال له : يا مسلم إن من يطلب مثل ما تطلب إذا نزل به مثل ما نزل بك لم يبك !! .

فأجابه مسلم : ما أبكي لنفسي ولكني أبكي لأهلي المنقلبين إليكم أبكي الحسين وآل الحسين ..

أدخل مسلم أسيراً إلى قصر الإمارة على ابن زياد . فلم يسلم عليه بالإمارة فقال له الحرسي : هلا تسلم على الأمير ؟ .

أجابه مسلم : ما هو لي بأمير .

فقال ابن زياد : سلمت أم لم تسلم لتقتلن !! .

---

[1] الكامل لأبن الأثير ٤/ ٣٣ .

ثم خاطبه مهدداً : يابن عقيل أتيت الناس وأمرهم جميع وكلمتهم واحدة لتشتت بينهم وتفرق كلمتهم ؟!

فرد عليه مسلم : كلا ولكن أهل هذا المصر زعموا أن أباك قتل خيارهم وسفك دماءهم وعمل فيهم أعمال كسرى وقيصر فأتيناهم لنأمر بالعدل وندعو إلى حكم الكتاب والسنة.

فقال ابن زياد : وما أنت وذاك ؟ ألم يكن يعمل بذلك فيهم إذا أنت تشرب الخمر بالمـــدينة (!!) فقال مسلم غاضباً : أنا أشرب الخمر؟! والله إن الله يعلم أنك تعلم أنك غير صادق وإني لست كما ذكرت وأن أحق الناس بشرب الخمر مني من بلغ دماء المسلمين فيقتل النفس التي حرم الله قتلها على الغضب والعداوة وهو يلهو ويلعب كأن لم يصنع شيئاً .

وكما تكون نهاية الحوار بين سيف السلطة وضمير الأمة .. كانت نهاية الحوار :

ـــ قتلني الله إن لم أقتلك قتلة لم يقتلها أحد في الإسلام .

فأجابه مسلم : أما أنك أحق من أحدث في الإسلام ما ليس فيه ، أما أنك لا تدع سوء القتلة وقبح المثلة وخبث السريرة ونوم الغلبة ولا أحد من الناس أحق بها منك [1] .

وبينما كان الناس ينتظرون الخبر .. وإذا بجثتين زكيتين يسبقهما نور رأسين شريفين قد ارتطمتا بالأرض .. لمسلم وهانئ ..

العباس بن علي بن أبي طالب
ولد سنة ٢٦هـــ
شهيد كربلاء سنة ٦١ هـــ

" كان عمي العباس بن علي نافذ البصيرة صلب الإيمان جاهد مع أخيه الحسين وأبلى بلاء حسنا ومضى شهيدا في كربلاء "

---
[1] الكامل لأبن الأثير ٤/ ٣٥ .

ها هي تجد أول حلقة من تفسير رؤياها قد أصبحت حقيقة.. وحمدت الله سبحانه وتعالى.. فمن مثلها وقد أصبحت قرينة سيد الخلق بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم..

رجل ــ ملء الميدان ساعة الحرب، وملء المنبر حين الخطابة وملء الأسماع حين يعلّم.. من مثلها وقد كانت تتمنى أن تخدم أمير المؤمنين بأجفان عينيها، وأذا بها تصبح زوجته.

نعم لقد رأت في المنام ذات ليلة أن كوكبا منيرا تتبعه أربعة نجوم قد نزلت دارها، فملأت الدار ضياء وسرور ا ، ولما أفاقت سألت أمها .

ــ أبشري يا بنتاه سيتزوجك رجل عظيم تنجبين منه أربعة أولاد.

ومرت الأيام .. وذات يوم ، طرق باب مترل أم البنين فاطمة بنت حزام الكلابية ، وكان الطارق عقيلا ، وقد جاء خاطبا فاطمة لأمير المؤمنين عليه السلام ..

وهكذا انتقلت على بيت زوجها المتواضع بأثاثه الكبير بصاحبه وملأ البيت حياتها .. بمن فيه بعليه وحسنيه.

ألم تقل أمها أنها ستتزوج رجلا عظيما !! ومن أعظم عند الله من علي عليه السلام بعد النبي صلى الله عليه وآله وسلم !؟ وبقيت تنتظر باقي الرؤيا

*** ***

ها هو الوليد الأول..الكوكب المنير.. طلة هاشمية وملامح علوية، عيناه تتوقدان بذكاء غريب ، وقد جمع خلاصة صفات من أبيه عليه السلام ،ومن أمه أبنة ملاعب الأسنة وفارس قزرل.

وشب أبو الفضل العباس عليه السلام تحت رعاية والده، وتربية أخويه.وأخذ العلم من أبيه وأخويه، حتى قال فيه أبوه:إن ولدي العباس زق العلم زقا.

وكما زق العلم زقا ، فقد ورث من أبيه شجاعة فائقة ، أعانه عليها جسم قوي متكامل فقد كان يركب الفرس المطهم ورجلاه تخطان الأرض خطا . وقد كان وسيما جسيما .

وبعد شهادة والده العظيم في سنة ٤٠ هــ وحيث عمر العباس آنئذ أربعة عشر عاما ، كان في خدمة أخيه وإمامه الحسن السبط عليه السلام ، وبعده في خدمة أخيه الحسين عليه السلام ، وبعده في خدمة

أخيه الحسين وكان ـ على علمه ومعرفته ـ لا يرى في نفسه أكثر من مقام التابع للحسين بل يستفاد من بعض النصوص الموجودة أنه لم يكن يخاطب الحسين إلا يقوله : سيدي ، بدلا من أخي.

ولعمري أن هذا المقام في المعرفة كبير ذلك أن إتباع أصحاب الكفاءات والقدرات الاستثنائية لقادتهم أمر في غاية الصعوبة ، وأبو الفضل إضافة إلى ميزاته تلك في عمله وشجاعته ، هو ابن أمير المؤمنين عليه السلام ، ولقد وجدنا في فترات متأخرة أن بعض أبناء الأئمة كانوا ينازعون إخوانهم الأئمة ، إمامة الناس لا لشيء إلا لكونهم أبناء لمعصوم !!

ولكن أبا الفضل يعرف الفضل لأهل الفضل .

وبقدر ما كان يكن لإماميه الاحترام ، كانا يختصانه بمقدار أكبر من الحب ، إلى القدرة الذي يخاطبه الإمام الحسين عليه السلام بقوله له في كربلاء :

اركب بنفسي أنت ..

ومعلوم أن المفضول هو الذي يفدي الفاضل ، وهو هنا الحسين عليه السلام غير أن إطلاق هذه الكلمة (بنفسي أنت) في حق أخيه أبي الفضل يفتح لنا أبوابا واسعة في معرفة مكانة العباس عليه السلام عند أخيه ولنعم ما قال العلامة المقرم في حاشية هذه الكلمة : " غير خاف ما في هذه الكلمة الذهبية من مغزى دقيق ترى الفكر يسف عن مداه وأنى له أن يحلق إلى ذروة الحقيقة من ذات طاهرة تفتدى بنفس الأمام علة الكائنات والفيض الأقدس للممكنات ."

نعم عرفها البصيرة النافدة بعد أن جربها بمحك النزاهة فوجدها مشبوبة بجنسها ثم اطلق عليه تلك الكلمة الغالية " ولا يعرف الفضل إلا أهله" [1] .

وكان العباس على موعد مع القدر في كربلاء لكي يترجم إخلاصه واحترامه وحبه لإمامه وأخيه الحسين عليه السلام،وإذا كان استشهد في كربلاء من أولاد أمير المؤمنين (١٠) أبطال في نصرة أخيهم فإن اسم العباس عليه السلام يتألق ينهم كما يتألق الكوكب المنير بالنسبة إلى سائر النجوم ، تماما كما رأته في المنام ، وكما ظن أبيه "فتلد لي غلاما شجاعا يكون ناصرا لابني الحسين ".

تجمعت كل ميزات أبي الفضل عليه السلام في مصرعه لتجعل صاحب هذا المصرع أسطوريا في دفاعه ، وفي شجاعته ، وفي إيثاره وفي مأساته أيضا ، فلندخل ركب الحسين ، لنتابع رحلة حياة أبي الفضل عليه السلام قائد العسكر ، وحامل اللواء ، وقمر بني هاشم .

---

[1] مقتل الحسين / ٢٥٥ .

ها هو على فرسه المطهم ، جبل من القوة والثقة ، يرصد القافلة ، يتقدم مرة ويتأخر أخرى، ساعة عند نساء أهل البيت يطمئن قلوبهن ، وأخرى عند الأنصار يشد من عزائمهم وثالثة يتحدث مـــع الإمـــام الحسين عليه السلام .

كان يلحظ أبو الفضل في مسيره مع الإمام أعدادا جاءت بهم رغبة الدنيا فلما رأوا عنـــد الحـــسين الآخرة رغبوا عنها ، وتسللوا لواذا من معسكره ، وهكذا كان العدد يقل مرة بخروج من أطاع هـــواه ويزيد أخرى بانضمام ذوي البصائر ..وبعد تسعة عشر منزلا ، بقي معه من كان ينبغي أن يبقـــى مـــن ذوي الدين والوعي ، وهكذا وصل كربلاء في اليوم الثاني من محرم الحرم عام ٦١ هـــ

*** ***

تتابعت الأيام وكل يوم يحمل خبرا أسوء من سابقه ، وكتابا شرا من أمسه ، وبينما كان أبو عبد الله الحسين عليه السلام قد أمر أصحابه بسقي عسكر الكوفة الذين قدموا مع الحر الرياحي أولا ، ثم أخلى لهم شريعة الفرات ليشربوا بعد أن تكاثرت أعدادهم ، وجاء المدد يتبع بعضه بعـــضا ، إلا أن العـــسكر الأموي سيطر على الفرات وفرض حصارا عليه مانعا أصحاب الحسين من الاستقاء . وكان كل طرف يمثل عقلية خاصة وطريقة ..

وهكذا أحكم الحصار على الفرات .. ونفذ الماء في معسكر الإمام الحسين وإذا كـــان بإمكـــان الرجال الصبر على الجوع فهم أقل صبرا على العطش ، وأقل منهم الأطفال والنساء .

واستثيرت في أبي الفضل ، فضل عزيمة هاشمية ، واستأذن أخاه الحسين الذي ضم إليه عشرين فارســـا ، وكان على المشرعة أربعة آلاف .

فتحرك أبو الفضل يقود تلك الكوكبة ليلا ، ومعهم القرب و الأسقية ، ولما تعرض لهم عمر بن الحجاج المكل بحراسة المشرعة ومنعوهم من حمل الماء قاتلوهم حتى أوصلوا الماء إلى الخيـــام ، وســـقى ســـاقي العطاشى في اليوم السابع أطفال الرسالة ، ومخدرات النبوة .

وكما أبو الفضل (علامة) معسكر الحسين عليه السلام فقد كان الطرف الآخر يعرف له موقعه وبطولته ، لذلك فقد حاولوا استمالته (!!) فقد جاء شمر بن ذي الجوشن الضبابي لأبي الفضل بكتاب أمان !!

يتعجب المراقب من تسافل البعض في دركات حب الدنيا ، وتألق البعض في درجات العلى .

فبنما ترى القسم الأول يخاف الموت ويرغب في الحياة فيقوده ذلك إلى سلسلة من الأخطاء والانحرافات توصله إلى حتفه وهو ما كان يحذر ويخاف . بينما القسم الثاني هذه المسألة بالهجوم على مصدر الخوف . فيواجهون خوف الموت بالموت نفسه ، فتوهب لهم الحياة والخلود الدائم .

وهكذا إذا جاء شمر يسوقه الشر ويقوده الخسران حتى وقف قريبا من مخيم الإمام الحسين فنادى :

ـــ أين بنو أختنا؟!أين العباس وأخوته ؟!.

فأعرضوا عنه و لم يجيبوه كأنهم يريدون في تلك اللحظة أن يتجردوا من القرابة ، فقال لهم الإمام الحسين عليه السلام :

ـــ أجيبوه وإن كان فاسقا.

فقالوا لشمر : ما شأنك وما تريد ؟!.

قال : يا بني أختي أنتم آمنون لا تقتلوا أنفسكم مع الحسين والزموا طاعة أمير المؤمنين يزيد .

لعنك الله ولعن أمانك أتؤمننا وابن رسول الله لا أمان له ! وتأمرنا أن ندخل في طاعـــة اللعنـــاء وأولاد اللعناء ؟!. قال العباس

في تلك اللحظات كان أصحاب الحسين يعيشون في قلق واضطراب ، بالرغم من معرفتهم بأبي الفـــضل العباس ، إلا أن مجرد (تصور) كون العباس خارج معسكر الحسين ، مجرد هذا التصور كان كـــابوس ليل ، ماذا يحدث لو ..؟! من بعيد كان الأصحاب يرقبون الحوار بين العباس وأشقاءه من جهة ، وشمر من جهة أخرى ، وقد حبسوا الأنفاس بانتظار النهاية ، وعاد أبو الفضل ، ومع عودته عادت الابتسامة إلى قلوب النساء في الخيام ، وإلى الأصحاب خارجها ، واقبل زهير بن القين إلى أبي الفضل :

أحدثك بحديث وعيته ، قال له زهير؟

ـــ: بلى

لما أراد أبوك أن يتزوج طلب من أخيه عقيل وكان عارفا بأنساب العرب أيختار له أمرة ولدتها الفحولـــة من العرب ليتزوجها فتلد غلاما شجاعا ينصر الحسين في كربلاء وقد ادخرك أبوك لمثل هذا اليوم فـــلا تقصر عن نصرة أخيك وحماية أخوتك .

أتشجعني يا زهير في مثل هذا اليوم؟! والله لأرينك شيئا ما رأيته.

*** ***

لم ينفع سعي عمر بن سعد في أن يجمع دنيا الري و آخرة اجتناب قتل الحسين عليه السلام ذلك لأن الأحداث كانت تتسارع وقد زادها عنفا (دخول شمر على الخط)!! قائلا لابن سعد : أخبرني ما أنت صانع أتمضي لأمر أميرك ؟ و إلا خل بيينك وبين العسكر ..

وهكذا لم يكن بد من الحرب .. وفي التسع من محرم زحفت خيل عمر بن سعد باتجاه معسكر الإمـــام الحسين عليه السلام بينما كان جالسا في الخيمة مع أخيه أبي الفضل وأخته زينب ...

فلما سمعت زينب صوت الخيل ، قالت لأخيها : قد اقترب العدو منا .

اركب بنفسي أنت حتى تلقاهم واسألهم عمّا جاءهم وما الذي يريدون ؟!

أمر الحسين أخاه أبا الفضل .

ونهض العباس وجاء للإمام بالخبر ..يقولون : جاء أمر الأمير أن بفرض عليكم النزول على حكمـــه أو ننازلكم الحرب.

ارجع إليهم واستمهلهم هذه العشية إلى غد لعلنا نصلي لربنا الليلة وندعوه ونستغفره فهو يعلم أني أحب الصلاة له وتلاوة كتابه وكثرة الدعاء والاستغفار ..

وهكذا أجلت المعركة لليوم التالي أي العاشر ، وفي تلك الليلة انضم إلى معسكر الحسين عليه الســـلام اثنان وثلاثون رجلا .

أشهدوا لي عند الأمير أني أول من رمى !! وقذف سهما تجاه مخيم الإمام

" أول من رمى " هذا ما يريده عادة ضعفاء النفوس ، أتباع الهوى ، أنه يريد من هذا العمل أن يـــصل للأمير ، وأن يشهد له الجنود أنه كان الأول ، لتكون له جائزته أكبر !! وغفل أن التاريخ سجل له هذا الموقف لكي يصبح لعنة على كل فم ..

وجاءت السهام يسبق بعضها بعضا .. آلاف السهام ضلت هدفها كما ضل أصحابها طريق الهدايـــة .. وكانت تلك إشارة البدء ، فبالرغم من أن الإمام عليه السلام كان يقول : أكره أن أبدأهم قتـــال ، لأن السلام هدفا ووسيلة كان جوهر حركة أهل البيت عليهم السلام ، إلا أن هذه السهام كانـــت تحيـــة الأمويين .. فمزقت بعض الأخبية وأصابت بعض الأصحاب والنساء أيضا.

ـ قوموا رحمكم الله إلى الموت الذي لابد منه فإن السهام رسل القوم إليكم.

وهكذا التحمت الفئتان ((فئة تقاتل في سبيل الله وأخرى كافرة)) وكانت الحملة الأولى وأبو الفـــضل يخوض في أوساطهم وقد صدق زهيرا عندما قال له يوم أمس : والله لأرينك شيئا ما رأيته !!.

وعندما كان ينقطع بعض أصحاب الحسين عليه السلام في جموع العسكر الأموي كان العباس يـــذهب إليهم ليستنقذهم كما حصل لعمر بن خالد الصيداوي ومولاه وجابر بن الحارث ومجمع بـــن عبـــد الله العائذي[1].

ولقد أبلى أصحاب الحسين عليه السلام أي بلاء ولكن (غلبت الكثرة الشجاعة) ، وكان أصـــحاب الحسين أحرص على الشهادة منهم على الحياة ، وتساقطوا كالزهور اليانعة في الريح الهوجاء ، وتصاعدوا إلى منازل قدس كانت معدة لهم ، وكان الواحد منهم يكتفي أن يسلم على الإمام من بعيد وينطلق إلى حيث موعده ، فاستشهد مسلم بن عوسجة ، والحر بن يزيد الرياحي ، وزهير بن القين ،وهكذا كانوا يتسابقون على ورود حياض الشهادة ، فيصدرون منها مخضبين دماء .

وبعد الأصحاب برز أهل البيت فاستشهد الأكبر ، والقاسم ، وجعفر ، وعون ، وعثمان ، وسواهم .. وبقي أبو الفضل عليه السلام وقد أترع قلبه بالأسى ، على مصير هذه الأمة التي تجيش الجيوش على إمام هداها وابن نبيها ، وفاض بالغضب قلبه لما يسمع من نداء الأطفال العطاشى .

أو تشتكي العطش الفواطم عنده وبصدر صعدته الفرات المفعم

وهكذا جاء إلى أخيه يستأذنه في القتال ، فقال له الحسين عليه السلام :

أنت صاحب لوائي ..

واللواء هو العلم العظيم الذي يعطى لأشجع الفرسان في الجيش لأنه علامة النصر والهزيمة ، وكان العباس يعلم بموقعه ، ولكن إناء قلبه قد فاض بقلبه .

قد ضاق صدري من هؤلاء المنافقين وأريد أن آخذ ثأري منهم . قال أبو الفضل

وأخذ القربة وذهب للميدان فلما أصبح قريبا منهم وعظهم وحذرهم فلم ينفع ذلك ، فنادى بـــصوت رفيع :

يا عمر بن سعد .. هذا الحسين ابن بنت رسول الله قد قتلتم أصحابه وأهل بيته وهـــؤلاء عيالـــه وأولاده عطاشى فاسقوهم من الماء قد أحرق الظمأ قلوبهم .

فلم يجبه عمر بن سعد ، إلا أن شمرا أجابه قائلا :

يا ابن أبي تراب لو كان وجه الأرض ماء وهو تحت أيدينا لما سقيناكم منه قطرة إلا أن تدخلوا بيعة يزيد !!.

نعم .. كيف يتمكن الظلمة والطاغوت من حكم البلاد ، وظلم العباد لو لم يكن من الحمقى الأدعياء أمثال شمر ، أن هؤلاء يصبحون (ملكيين أكثر من الملك) يدافعون عن الباطل أكثر من مؤسـسيه !!

---

[1] مقتل الحسين / ٢٩٤ .

وبينما تمتلئ ساعات الحاكم باللهو والعبث وتلبية نداء الشهوات ، تمتلئ ساعات هؤلاء بالكدح لتثبيت باطله بأكثر ما كان يتوقع !!وعاد أبو الفضل:

عرف المواعظ لا تفيد بـــمعشرٍ — صموا عن النبأ العظيم كما عموا

فانصاع يخطب بالجماجم والكلى — والسيف ينشر والمثقف ينـــضمُ

واستلأم ، وحمل عليهم كصاعقة سماوية فإذا بهم ينشرون أمامه وينتثرون !! ويخترق كصل غاضـــب ، وعينه على شريعة الفرات ، وقد أحاط بها أربة آلاف دارع فلم يعبأ بكثـــرتهم ولا يـــرى الجميـــع إلا الرؤوس تطير ، وصرخات الترع تعلو ، والأكف تهوي و..

كأن لعزرائيل قد قال سيفه — لك السلم موفورا ويوم الكفاح لي

وهكذا وصل الشريعة ، قمر العشيرة ، وقد انفرج عنها بقية الدارعين ضناً بحياتهم .

لك أن تتصور الموقف كالتالي :

الوقت بعد الظهر ، حيث الشمس تسطع عموديا فتحيل الأرض جمرا ، والوقت أيام الـــصيف ، وأبـــو الفضل قد بذل الجهود قبل قليل حتى وصل إلى الشريعة ، تجمعت هذه العوامل كلها لتـــشكل حاجـــة أساسية لدى أبي الفضل لكي يشرب من الماء ، يضاف إليها أن وصوله إلى المشرعة لـــيس إلا الخطـــوة الأولى إذ انه لابد أن يملأ القربة ويعود ثانية ليوصلها إلى الخيام ولذلك فهو يحتاج على بذل جهد أكـــبر من السابق وشربة من الماء يمكن أن تخفف هذا التعب ، وتجعله أقدر على القتال..

وبحركة لا شعورية كما يصنع العطشان عادة ، مد يده إلى الماء البرد واغترف بكلي كفيه ، وأدناهـــا من فمه ليشرب ..

ودمعت عيناه .. وعاد إلى ذاكرته شريط الأعين العاطشة والشفاه الذابلة في مخيم الحسين عليه السلام ، عطش الإمام الحسين ، وشفاه النساء الذابلة ، وسكينة تلك التي تترقب على باب المخيم عودة عمها ، وقد وعدها بالماء .

وألقى الماء من يده .. نعم ألقى الماء من يده .

لو أن الإيثار أراد أن يتجسد في صورة لما لقي أبلغ من صورة يدي أبي الفضل وهما ترتخيان ليعود الماء ثانية إلى مجراه ، ولو أن الوفاء ركز أبعاده في شخص لما كان غير أبي الفضل ،

فأبت نقيبته الزكية ريها — وحشا أبن فاطمة يشب ضرامها

ألقى الماء من يده وتمثل بقوله :

يا نفس من بعد الحسين هوني — وبعده لا كان ان تكوني

هـــــذا حسين وارد المـــنون — وتشربين وارد المـــعين

تالله ما هذا فعال ديني

كل هذه الصور مرت في لحظات سريعة ، لأن الموقف لم يكن يسمح بالمزيد من التأمـــل والـــتفكير ، والأعداء تطل من سيوفهم عيون العطش لدم أبي الفضل عليه السلام لذلك ملأ القربة وامتطى جواده ، قاصدا المخيم لإيصال القربة ، وقطع عليه الطريق ، لقد كانوا يتحلقون عليه كقطع الليل المظلم ، وهـــو يفري أوداجهم بمهنده ، فلا تسمع إلا وقع السيوف على الرؤوس وهو يدمدم فيهم كليث غاضب :

لا أرهب الموت إذا الموت زقا　　　حتى أدري في المصاليت لقى

نفسي لسبط محمد الطهر وقى　　　إني أنا العباس أغدو بالسقا

ولا أخاف الشر يوم الملتقى

و لم يستطع أولئك البغاث أن يقفوا أمام النسر المحلق و لم يكن يثبت له أحد في الميدان وجها لوجـــه ، لذلك اعملوا المكيدة والخداع فكمن له زيد بن الرقاد الجهني ، وعاونه حكيم بن الطفيل وبينما العباس يحصد الرؤوس ، ضربه زيد على يمينه فيراها ، و لم يتوقف أبو الفضل فقد تمثل قائلا :

والله أن قطعتم يميني　　　أني أحامي أبدا عن ديني

وعن إمام صادق اليقين　　　نجل النبي الطاهر الأمين

ووجد الرجلان أن هذه الطريقة فعالة بعد أن عجز الجميع عن مواجهته من الأمام ، فكمن له حكيم بن الطفيل مرة أخرى له ، ولما مر العباس يطرد جمعا ، ضربه حكيم على شماله فقطعها وتكاثروا عليه واتته السهام كرشق المطر ..وانتشرت الجروح في جميع جسده، فقد أصاب صدره سهم وآخر أصاب كتفه ، كل ذلك وأبو الفضل لا يزال قويا كالجبل ..

وأصاب القربة سهم فأصيب ماؤها .. ومع الماء أريق الأمل ، وهى الجبل .. وظهرت آثار الجـــروح ، والعطش ، والترف كلها في هذه اللحظة بين يدي أبي الفضل .. هل يستطيع الوصول إلى الخيام ؟! ولماذا يذهب وقد تحطمت آماله في إرواء الأكباد الحرى لبنات رسول الله ؟! لو وصل كيف يجيب على أسئلة الأطفال ؟! وقف حائرا في الميدان والسهام لا تقف ، ولكن كيف يدفعها وهو بلا سواعد وأصاب عينه سهم وضربه رجل بعمود من الحديد على رأسه ففلق هامته ..

وهوى بجنب العلقمي فليته　　　للشاربين به يداف العلقم

وأرسل صيحة ووقع على الأرض :

عليك مني السلام أبا عبد الله .

ومع شهادة أبي الفضل .. انتهى عسكر الإمام الحسين عليه السلام

***   ***

كل حي سائر إلى لقاء حتفه يوما ، ولكن خير الموت ما اختاره المرء على بصيرة وما جلب له مجـــدا و فلاحا، مجد الدنيا وفلاح الأخرى.

أبو القاسم حبيب بن مظاهر الأسدي

العمر ٧٥ سنة

الوفاة : شهادة في كربلاء سنة ٦١ هـ

" لما قتل حبيب بن مظاهر، هدّ ذلك حسينا وقال : عند الله أحتسب نفسي وحماة أصحابي"
مقتل أبو مخنف

ترى عمن يبحث ميثم التمار ؟!وما الذي أتى به في هذه الساعة؟!

لقد سار يتخطى المجالس حتى وصل إلى حي بني أسد ، واستقبله حبيب بن مظاهر وامتطيا من جديد صهوة فرسيهما أيضا يتحدثان بهمس :

لكأني بشيخ أصلع ضخم البطن يبيع البطيخ عند دار الرزق وقد صلب في حب أهل نبيه عليهم السلام ويبقر بطنه على الخشبة .

قال حبيب ذلك وانفرجت أساريره عن ابتسامة ذات معنى !.

إني لأعرف رجلا أحم له ظفيرتان يخرج لينصر ابن نبيه صلى الله عليه وآله وسلم فيقتل ويجال برأسه بالكوفة . قال ميثم في جواب حبيب

الجالسون وهم عادة ممن لا نصيب لهم كثير لهم في علم أو معرفة ، ممن يجعلون كل خبر او كلمة موضعا لمناقشات عقيمة لا تنتهي إلا مع حلول الظلام يحكمون على الأشياء بالوهم ، ولا يحتاجون إلى وقت للحكم علىالقضايا ،هؤلاء عندما سمعوا كلام ميثم وحبيب ، قالوا :

ما رأينا اكذب من هذين ..

وعادوا إلى الخوض في أحاديثهم التي لا تنتهي ..ولن الوقت يطول وهؤلاء لا عمل لديهم ، لذلك فهم يتحولن إلى (دائرة استعلامات)مجانية لمن يطلب حاجة ، فما أن وصل رشيد الهجري يسأل عنهما حتى قالوا له كامل القصة ، والحوار الذي دار بينهما فلما سمع رشيد ذلك قال :

رحم الله ميثما لقد نسي .. ويزاد في عطاء الذي يجيء بالرأس مائة درهم .. قال ذلك وذهب باحثا عن رفيقه.

لم يكن هؤلاء الثلاثة نكرة في الكوفة ، فهم أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام وحمله علمه ، ومن خواصه،ولم يكونوا ليبلغوا هذه المترلة لولا كفاءتهم العملية ،إلا أن أهل المجلس كما قدمنا .. فقالوا :

وهذا والله اكذب الثلاثة ..

ومرت الأيام ، تلد في كل يوم جديدا من الإرهاب والبطش الأموي ، فما أن لي ابن زياد الكوفة حتى بدأت الرؤوس تندر عن كواهلها ،ليثبت العرش الأموي ، وكان في الطليعة ميثم ..

قال من حضر المجلس بعد سنوات :

فوالله ما ذهبت الأيام والليالي حتى رأينا ميثما مصلوبا على باب دار عمر بن حريث وجيء برأس حبيب بن مظاهر وقد قتل مع الحسين عليه السلام ورأينا كل ما قالوا [1] .

ها هو حبيب خارج الكوفة تاركا خلفه خمسا وسبعين عاما من الجهاد والعمل والتعلم على يد أمير المؤمنين عليه السلام التفاني في خدمة أهل البيت عليهم السلام . يمر أمام عينيه شريط طويل من الذكريات ..

من بداية البدايات عندما نزل الكوفة مع أمير المؤمنين عليه السلام وستقر فيها وتمر في خاطره صور المعارك التي خاضها مع أمير المؤمنين: الجمل ، وصفين والنهروان وهكذا الحرب التي لم تنشب بقيادة الإمام الحسن ضد معاوية لتخاذل أصحاب الحسن عليه السلام .

وكم يحز في نفسه ، ويجد في حلقه طعم العلقم عندما يتذكر مواقف معاوية من الإسلام .. ومن أهل الدين ، ما قاتلتكم لتصلوا ولا لتصوموا وإني أعلم أنكم تفعلون ذلك ..إنما قاتلتكم لأتأمر عليكم ..

وأسوأمن ذلك عندما يتسلط على الأمة وال مثل يزيد !!.

ياللعنة .. أيمكن أن تسقط الأمة إلى درك أسفل من هذا وإذا لم تحرك الأمة إنقاذا لكرامتها فما الذي يحركها ؟!

لقد رفض حبيب هذا الواقع الذي فرض عليه وعلى المسلمين وكانوا لا بد من خطوة عملية في ذلك ، فاجتمع إلى كبار شيعة الكوفة وأهل الرأي فيهم ، واتفقوا على نوع من العصيان المدني للوالي الأموي على الكوفة ،وإعلان البعة للحسين عليه السلام ، والطلب منه أن يقدم إلى الكوفة .. ما دام هو بدوره قد رفض البيعة ليزيد وهكذا كتبوا إلى الإمام الحسين الرسالة التالية :

"بسم الله الرحمن الرحيم .. إلى الحسين بن علي عليه السلام من سليمان بن صرد والمسيب بن نجبة ورفاعة بن شداد وحبيب بن مظاهر وشيعته من المؤمنين والمسلمين من أهل الكوفة .. سلام عليك فإنا نحمد الله إليك الذي لا إله إلا هو ..أما بعد.. فالحمد لله الذي قصم عدوك الجبار العنيد الذي انتزى على هذه الأمة فابتزها وغصبها فيئها وتأمّر على عليها بغير رضى منها ثم قتل خيارها واستبقى شرارها وجعل مال الله دولة بين جبابرتها وأغنيائها فبعدا له كما فعلت ثمود . إنه ليس علينا إمام فأقبل لعل الله يجمعنا بك على الحق . والنعمان بن بشير في قصر الإمارة لسنا نجتمع معه في جمعة ولا نخرج معه إلى عيد

[1] تنقيح المقال ٢٥٢/١ .

ولو قد بلغنا أنك معه أقبلت إلينا أخرجناه حتى نلحقه بالشام إن شاء الله والسلام علـــيكم ورحمـــة الله وبركاته عليك.." ما الذي يعيق الناس ؟! حب الحياة ؟! وهل تسمى هذه حياة في ظل الخوف والسيف والمصادرة ؟!

لقد جاء مسلم بن عقيل سفيرا من الحسين إلى أهل الكوفة ، وكما حزمة النور تجتمع حولها الفراشات ، اجتمع إليه الناس ، وكان الذي يأخذ بيعتهم له حبيب ومسلم بن عوسجة ، أربعة وعشرون ألفا أحصى ديوان مسلم من بايع من الناس !. تباً للنفوس الضعيفة !! أهكذا يثير اسم ابن زياد في قلوب الناس؟!

أربعة وعشرون ألفا ، وفي قصر الإمارة مع ابن زياد ثلاثون حارسا ..فقط ثلاثون !! لو كانـــت هـــذه الألوف حشرات لشردت أولئك الثلاثين !!.

وهكذا خدلت الألوف الغير الواعية سفير إمامها حتى قتل ورميت جثته من أعلى القـــصر ، واختفـــى صفوة الأصحاب ، وغاص حبيب ومسلم بن عوسجة في أعماق قبيلتهما (بني أسد) حتى خرج الإمام الحسين في طريقه إلى كربلاء .. وخرجا من الكوفة يقصدانه يكمنان نهارا ، ويجدان السير ليلا ، ليأمنا الطلب وينجوا من المفارز المسلحة التي وضعت على الطريق .

وتنهد قاذفا حسراته من أعماقه .. لا ضير ، ليس على المرء إلا أن يتحمل مسؤوليته ،وإن كان يأســـى ويحزن لما آل إليه أمر الدين .

لم يبق للوصول إلى كربلاء إلا منازل قليلة ، وهناك يلتقي بالقدر الذي أعد له أليس هو ذلك الرجـــل الأحمر ذو الظفيرتين الذي يخرج لنصرة ابن بنت نبيه؟!

أجل أنه لكذلك ، لكن بقي الفصل الأخير ، الذي سيلقي برداء التصديق على نبوءة أمير المؤمنين الـــتي علمها ميثا التمار .. وأنه لأشوق إلى هذا الفصل الأخير منه إلى سائر الفصول .

ما الذي ترغب أكثر من ذلك .. لقد خلفت وراءك خمسة وسبعين عاما من الزمن سبقك فيها أحبتـــك وإخوانك إلى جنان الخلد .. ها أنت تقدم على ابن بنت رسول الله وريحانته وسبطه الحسين .

تلك معالم كربلاء .. وذاك المخيم الصغير _الكبير حيث سيحط حبيب رحله ويخط بسيفه مجده .

ما أن وصل حافظ القرآن حبيب إلى المخيم حتى استقبله الإمام الحسين عليه السلام وبينما كانت علائم السرور تظهر على أنصار الحسين عليه السلام لمقدم حبيب لم يستطع حبيب أن يقاوم دمعـــة ســـاخنة قفزت من عينيه ، لما رأى قلة عدد أنصار الحسين ، والتفت في المقابل إلى معسكر الأمويين حيث يمتـــد مفترشا على مد البصر .. وهنا قال للإمام عليه السلام :

إن ها هنا حيا من بني أسد فلو أذنت لي لسرت إليهم ودعوتهم إلى نصرتك لعل الله يهديهم وان يـــدافع بهم عنك .

ما إن أذن له الإمام حتى أسرع يركض فرسه حتى وصل إليهم ، و لم يكن بحاجة إلى تعريف التفوا حوله واحتفوا به ، كيف ..لا وهو صاحب أمير المؤمنين وسيد بني أسد ..

يا بني أسد !

وأصاخ الجميع أسماعهم ، ترى ما الذي يريد حبيب ؟!

" قد جئتكم بخير ما أتى به رائد قومه .. هذا الحسين بن علي أمير المؤمنين وابن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقد نزل بين ظهرانيكم في عصابة من المؤمنين وقد أطافت به أعداؤه ليقتلوه ، فأتيتكم لتمنعوه وتحفظوا حرمة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيه ، فوالله لئن نصرتموه ليعطينكم الله شرف الدنيا والآخرة ، وقد خصصتكم بهذه المكرمة لأنكم قومي و بنو أبي وأقرب الناس مني رحما "

هز هذا الخطاب قلوب الحاضرين ..

فالغالب منهم اهتزوا استجابة لهذا النداء ، لكأن خطابه المطر ، عندما يلامس الأرض الهامدة فإذا بها ((اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج)).

وقلة قليلة مظلمة القلوب يؤذيها النور ، ولا تألف غير العتمة والظلمة ، اهتزت خوفا على حياتها الذليلة ، ومتاعها القليل .

قام عبد الله بن بشير الأسدي قائلا :

شكر الله سعيك يا أبا القاسم فوالله لو لجئتنا بمكرمة يستأثر بها المرء الأحب فالأحب ..

ولأن المواقف الشجاعة تخلق شجعان المواقف ، فقد أجابه جماعة وقاموا معه إلا أن رجلا من الفئة الثانية انسل مسرعا وأخبر عمر بن سعد الذي أرسل خمسمائة فارس لمنع الأسديين من الالتحاق بالإمام فقاتلوهم وأجبروهم على الجلاء عن المنطقة وهكذا عاد حبيب إلى الحسين عليه السلام مخبرا إياه بالأمر .

عاد ليستعد لفخر الشهادة ،ومع ذلك فإنه ماانفك يثير الحماس والشجاعة والاستهانة بالموت في سبيل نصرة الدين وقائده الحسين عليه السلام .

وبالرغم من انه يقف في وجه المعسكر الأموي إلا أنه كان لا يترك فرصة إلا وانتهزها في توجيه الجنود لتغير موقفهم ، فها هو قرة بن قيس الحنظلي مقبل إلى مخيم الحسين عليه السلام حاملا رسالة عمر بن سعد ويراه الحسين فيسأل عنه : أتعرفون هذا ؟!

فقال حبيب : نعم هذا رجل ممن حنظلة تميم وهو ابن أختنا ولقد كنت أعرفه بحسن الرأي ، وما كنت أراه يشهد هذا المشهد .

فجاء قرة وأبلغ الرسالة للإمام فقال له الحسين ــ في جوابه ــ: كتب إلي أهل مصركم هذا أن أقدم ،فأما إذا كرهتموني فأنا أنصرف عنهم .

وأراد قرة العودة بهذا الجواب فاستوقفه حبيب :

ويحك يا قرة بن قيس أنى ترجع إلى القوم الظالمين ؟!انصر هذا الرجل الذي بآبائه أيـــدك الله بالكرامـــة وإيانا معك[1]

وهكذا فعل أيضا مع العباس ابن أمير المؤمنين عليه السلام ساعة حمل جنود ابن سعد ، فقد كلمهم قائلا : أما والله لبئس القوم عند الله غدا يقدمون عليه قد قتلوا ذرية نبيه عليه السلام وعترته وأهـــل البيـــت وعباد أهل هذا العصر المجتهدين بالأسحار والذاكرين الله كثيرا .

وكان لابد لهذا الفارس أن يترجل !! لابد له أن يوجه الساعة المنتظرة .. وبينما يتمسك أصحاب الدنيا بثمالة كأس الحياة ويعضون عليها بالنواجذ ، فإن لسان حال أصحاب الدين : الرواح ..الرواح والجنـــة الجنة ، يستأنسون بالموت كأنهم ذاهبون إلى حفلة عرس وأي عرس !!.

لقد خرج حبيب للمعركة وهو يضحك ويمزح ، فقال له برير بن خضير وكان يقال له (شيخ القراء): أخي ليست هذه بساعة ضحك أو باطل ، كان برير يظن أن حبيبا يضحك لأنه نسي أن الموقف موقف جدي حيث يصطرع فيه الحق والباطل وحيث تصطلم النفوس .

إلا أن حبيب الواعي ، الشجاع ، بين له أنه يعرف حراجة الموقف الحاضر ولكنه ينظر إلى فرح المستقبل ، فأوضح له قائلا :

ــ فأي موضع أحق بالسرور والله ما هي إلا أن تميل علينا هذه الطغاة بسيوفهم فنعانق الحور العين[1] .

ألم أقل لكم أنهم يمضون إلى عرس حقيقي؟!

وهكذا تسابقوا .. فبرز زهير وبرز مسلم بن عوسجة ، وغابت تلك الأقمار في نجيع دمائهـــا ومـــشى حبيب مع الإمام الحسين عليه السلام مؤبنا حتى وصلا إلى مصرع مسلم وبه رمق الحياة فدنا منه حبيب وقال:

ــ عز عليّ مصرعك يا مسلم ابشر الجنة .

فقال له مسلم بصوت ضعيف :

بشرك الله بخير.

فقال حبيب: لولا أعلم أن ي في أثرك لاحق بك من ساعتي هذه لأحببت ان توصيني بكل ما أهمك حتى أحفظك في كل ذلك بما أنت أهل له في القرابة والدين.

فقال مسلم : بل أنا أوصيك بهذا رحمك الله ــ وأشار بيده إلى الحسين ــأن تموت دونه.

---

[1] أعيان الشيعة ٥٥٤/٤ .

[1] تنقيح المقال ٢٥٢/١ .

و لم يكن حبيب بحاجة إلى هذه الوصية لتصنع فيه دافع النصرة وإن كان التواصي بذاته مطلوبا لتقوية القلوب على الهدى .

وحان وقت صلاة الظهر ، وأشار الحسين إلى أصحابه أن يسألوا جند عمر بن سعد أن يكفوا عنهم ليصلوا ، ففعلوا فقال لهم الحصين بن تميم : إنها لا تقبل.

فثارت الحمية الدينية في قلب حبيب ، وقال للحصين : زعمت أن الصلاة لا تقبل من آل رسول الله وتقبل منك يا حمار ؟.

وبقدر ما ثارت الحمية الدينية في قلب حبيب ، أخذت الحصين عزته بالإثم فحمل على حبيب الذي برز إليه وضرب وجه فرسه فشب به وألقاه فحمله أصحابه واستنقذوه .

ثم برز حبيب وهو يقول :

أنا حبيب وأبن مظهر	فارس هيجاء وحرب تسعر
أنتم أعد عدة وأكثر	ونحن أوفى منكم وأصبر
ونحن أعلى حجة وأظهر	حقا واتقى منكم وأعذر

وقاتل قتال الأبطال حتى قتل إثنين وستين رجلا ، وبينما هو يحمل ضربه بديل بن صريم بالسيف وطعنه آخر من بني تميم برمحه فوقع وأراد أن يقوم فضربه الحصين بن تميم بالسيف مرة أخرى ونزل التميمي إليه فاحتز رأسه .. ليزاد في عطائه مائة درهم !!.

الإمام السجاد (ع)

١- المختار الثقفي .

٢- يحيى ابن أم الطويل .

٣- سعيد بن جبير .

٤- جابر بن عبدالله النصاري .

٥- سليمان بن صرد الخزاعي .

علي بن الحسين زين العابدين

الإمام أبو محمد

٣٨- ٩٥ هـ

ولد الإمام علي بن الحسين (السجاد) سنة ٣٨ هـ وتولى الإمامة بعد شهادة أبيه سنة ٦١وعمره آنئذٍ ٢٣ سنة وكانت مدة إمامته ٣٤ سنة.

كان مع أبيه الحسين في كربلاء وشهد مصرعه، ولم يسمح له الإمام الحسين بالاشتراك في المعركة لئلا يقتل فينقطع نسل الإمامة.. وبعد شهادة أبيه عليه السلام كان على رأس قافلة أسرى أهل البيت، واستطاع من خلال ذلك إيقاظ حسّ الندم، والشعور بالتقصير، في المجتمع الكوفي بخطبه وكلماته، والتعريف بثورة أبيه وأهدافها، وموقع الحسين عليه السلام من الرسول صلى الله عليه وآله و سلّم في المجتمع الشامي. فكان عمله ذلك بحق ثورة أخرى حسينية.

استمر الإمام السجاد عليه السلام بعد عودته إلى المدينة بتذكير المسلمين بكربلاء وما ارتكب الأمويون فيها بالبكاء على أبيه وانتشر ذلك بين المسلمين حتى اضطر يزيد بن معاوية الحاكم الأموي إلى التنصل من مسؤولية قتل الإمام الحسين عليه السلام.

أثمرت أعمال الإمام السجاد في إيقاظ الشعور بالندم في المجتمع الكوفي، انتفاضة التوّابين بقيادة سليمان بن صرد الخزاعي سنة ٦٥ هـ حيث انطلقت مجاميع من شيعة أهل البيت من الكوفة بشعار يالثارات الحسين في عملية فدائية واجهت فيها جيوش الأمويين وهي وإن كانت عملية استشهادية لم تؤد إلى النصر الخارجي، إلاّ أنها كانت فتيل الثورات على الأمويين.

ما إن حلت سنة ٦٦ حتى بدأ المختار ابن أبي عبيدة الثقفي بثورة تحت نفس الشعار، واستطاع المختار السيطرة على الكوفة والاقتصاص من قتلة الإمام الحسين عليه السلام، وعلى رأسهم عبيد الله بن زياد، وعمر بن سعد، وشمر بن ذي الجوشن وأمثالهم.

لما كانت سياسة الأمويين تقوم على العنف والإفساد الخلقي، فقد تكفلت الثورات (الحسينية وامتداداتها) بمواجهة العنف بالشهادة، وواجه الإمام السجاد الافساد الخلقي بتوجيه الأمة إلى حقيقة العبودية لله، وفي هذا فقد خلّف الإمام السجاد تراثاً روحياً عظيماً، من الأدعية وطرق المناجاة، والتضرع إلى الله. أوقف- إلى حدّ كبير- مسيرة الانحدار الخلقي الذي أراده الأمويون للأمة.

اعتاد أن يشتري العبيد بماله، ويضعهم تحت رعايته وتربيته لمدة طويلة ثم يعتقهم، وكان هؤلاء أشبه بدم سليم، يضخ في جسم ذلك المجتمع الذي يعيشون فيه، وقد برز من هؤلاء علماء كان لهم دور في الأمة.

كان وجوده في المجتمع الإسلامي- بما كان يحمل من علم وخلق-يذكر الناس بسيرة آبائه الطاهرين وخلف تراثاً فكرياً مهماً سواء في العقائد أو في التنظيم الاجتماعي والحقوق، أو في الأخلاق والتربية.. وكانت شخصيته- وهو المجرد من عناصر القوة الظاهرية- أقوى من شخصية الخليفة وهو حاكم وقد تجلى ذلك في الطواف حول الكعبة.

عاصر من حكام بني أمية يزيد بن معاوية، ومروان بن الحكم، وعبد الملك بن مروان.

قضى نحبه عام ٩٥ ودفن في المدينة المنورة.

١– المختار بن أبي عبيدة الثقفي

شهيداً سنة ٦٧ هـ

(.. رحم الله أباك رحم الله أباك ما ترك لنا حقّاً عند أحد إلاّ طلبه قتل قتلتنا وطالب بدمائنا..)

الإمام الباقر (ع) لابن المختار

كان يقرأ كتاب الدنيا و الأحداث منذ حداثة سنه، صفحة اثر صفحة ولا يغادر سطراً إلاّ بعد مزيد من التأمّل، ذلك أن الله قد وهبه نباهة جيدة، وملاحظة حادة، وفوق ذلك طموحاً كبيراً.

ولقد عرف فيه أمير المؤمنين عليه السلام ذلك إذ كان يأتي به أبوه أبو عبيدة الثقفي الذي كان من أصحاب الإمام الخلّص واستشهد في معركة مع الفرس على شاطئ الفرات.. لذلك كان يحلو للإمام أن يداعبه قائلا: يا كيّس، يا كيّس.

ملاحظاته تلك تحوّلت مع الأحداث إلى رغبة جامحة في كتابة صفحة ناصعة في سجل التاريخ الذي ظلّ حكراً على خط السياسة الذي انتهى إلى أن أصبح معاوية الطليق.. خالاً (!) للمؤمنين، والحاكم على بلاد المسلمين!!.

و إذا كان دور المختار الثقفي أيام الإمام الحسن عليه السلام قد اتسم– كدور كثير من كبار الشيعة– بالمقاومة السلبية للحكم الأموي، واضطرّ أن يخرج إلى ضيعة له خارج الكوفة، ويبقى فيها فترة طويلة من حكم معاوية، إلاّ أن القدر كان يخبئ له تلك الصفحة التي شاء الله له أن يكتبها سيفه ولسانه، فظلت في سواد التاريخ الأموي إضاءة إرادة، و إشعاعة رفض.

فما أن ورد مسلم بن عقيل الكوفة سفيراً للحسين عليه السلام ورسولاً منه إلى الكوفة التي أعلن كبارها خلعهم ليزيد، ورغبتهم في البيعة للإمام الحسين عليه السلام، ما إن ورد مسلم حتى نزل بيت المختار الثقفي الذي تحوّل منذ تلك اللحظة إلى مقرّ عمليات لسفير الحسين، تجمع فيه الأموال وتؤخذ البيعة، وتجرى الاتصالات بسائر القوى والشخصيات منه لاستقطاب ولائها ونصرتها..

ولأسباب مختلفة– تحدثنا عن بعضها سابقاً– فقد أخفقت الكوفة في حماية وافد الحسين أمس وأميرها اليوم مسلم، واستطاع ابن زياد القادم من البصرة أن يسيطر على قصر الإمارة، كما استطاع أفراد الطابور الخامس وعبدة الأمويين أن يفرّقوا جمع الناس المحيطين بقصر الإمارة.. ليصفو الجو كاملاً لابن زياد.. بعد أن قتل مسلماً بن عقيل وهانئ بن عروة المرادي..

* * *

لم يبق أمام المختار من خيار مناسب أفضل من الالتحاق بالإمام الحسين عليه السلام في كربلاء. وهكذا انطلق متخفياً مع جماعة من أصحابه قاصدين كربلاء، إلاّ أن شرطة ابن زياد التي أغلقت كل الطرق كان من الهيّن عليها أن ترصد حركة هذا الجمع وبهذا وجد المختار نفسه في مجلس عبيد الله بن زياد.. الذي شتمه، ثم ضربه بعود كان في يده فشتر عينه، وأمر به إلى السجن، حيث رأى عدداً غير قليل من خلّص أصحاب أمير المؤمنين جيء بهم، وقد خرجوا أيضاً إلى كربلاء، وكانوا تحت المراقبة المشددة خوفاً من هربهم مرة أخرى إضافة إلى أنهم كانوا يعطون طعاما في يوم ويحرمونه في اليوم التالي.

وفي السجن يلتقي المختار بميثم التمار، الذي أُوتي من أمير المؤمنين علم المنايا والبلايا.. فيخبره بأنه سوف يخرج من السجن وسيطأ بقدمه على خد الطاغية ابن زياد.

كان من الممكن أن يعد هذا الكلام نوعاً من تعليل النفس بالأماني وهو كثير لدى من يكون في ظرف كالسجن.. إلاّ أن صدوره من ميثم، جعل المختار يراه كالشمس الضاحية..

* * *

لم يعرف المختار أخبار ثورة الحسين عليه السلام إلاّ بعد نهايتها، وبعد أن خرج من السجن، ليلتقي بالعائدين الذين نقلوا له تفاصيل الحدث.

كما لم يستطع الالتحاق بجماعة التوّابين الذين خرجوا بقيادة سليمان بن صرد الخزاعي، منادين بالثأر للحسين عليه السلام وقتال قتلته، وكان يعد نفسه لأن يقتل أولاً، ثم يقتل.

وعاد مرة أخرى إلى ساحته في الكوفة، وبدأ ينشر فضائل أهل البيت ويتحدث عن ضرورة الثورة على الحكم الأموي، والأخذ بثأر الحسين و يعد الناس بأنه المؤهل لهذا الدور.

فيما كانت حركة التوّابين قد انتهت بشهادة قادتها، وكبار رجالها، مشكلة بذلك الحلقة الأولى في سلسلة الثورات المتأثرة بهدي أهل البيت، وعاد من استطاع الانسحاب، بعد نهاية المعركة، في وقت أخذت دعوة المختار، و حركته تتعاظم وتكبر..

و إذا كان لكل شيء آفة، فإن آفة الحركات التغييرية الناشئة تشكيك الجمهور، و لم تسلم حركة المختار من هذه الآفة، لذلك قصد عدد من أشراف الكوفة، مدينة الرسول وقصدوا محمد بن الحنفية أخ الإمام الحسين عليه السلام وكان آنئذٍ أكبر من بقي من أبناء أمير المؤمنين، والشاخص البارز في البيت العلوي، وكان البعض يعتقد- لما يتمتع به محمد من مميزات- أنه الإمام بعد أخيه الحسين عليه السلام.. لذلك جاء هذا الوفد، سائلين عن المختار، وهل جاء من قبل أهل البيت؟! خصوصاً أنه دعا إلى كتاب الله وسنة رسوله والطلب بدماء أهل بيته.. (فإن أمرتنا باتباعه اتبعناه، وإن نهيتنا اجتنبناه..".

فقال لهم محمد بن الحنفية عندئذٍ: قوموا إلى إمامي و إمامكم علي بن الحسين عليه السلام.. فلما دخلوا عليه وأخبره بسؤلهم قال الإمام عليه السلام:

– يا عم لو أن عبدا زنجياً تعصّب لنا أهل البيت لوجب، على الناس مؤازرته.. وقد وليتك هذا الأمر فاصنع ما شئت.. [٧١] وكان هذا الجواب فوق ما يتوقعونه..

* * *

وما إن اضطرب حبل بني أمية بهلاك يزيد، وتمرّد عبد الله بن الزبير في مكة حتى عزلت الكوفة واليها من قبل عبيد الله بن زياد، عمرو بن حريث، وكان يتنازع الكوفة اتجاهان، أحدهما يمثل عبد الله بن الزبير الذي أرسل عبد الله بن مطيع العدوي والياً عليها، بينما كان اتجاه المختار يمثل الأكثرية الشيعية، التي لم تكن لتطمئن لابن الزبير بعدها اشتهر عنه من بغضه لأهل البيت عليهم السلام و امتناعه عن الصلاة على النبي في الخطبة الأمر الذي لم يصنعه حتى الأمويون، مضادة منه لأهل بيت النبي صلى الله عليه و آله و سلّم.

وفيما حشد عبد **الله** بن مطيع أنصار الأمويين من أهل الكوفة أمثال شبت بن ربعي، وعمر بن سعد، وحرملة بن كاهل الأسدي.. أعلن المختار تحرّكه بشعار: يا لثارات الحسين يا منصور أمت أمت، وكان قائد قوّاته إبراهيم بن مالك الأشتر.

وبعد جولات كثيرة من المواجهات المسلحة بين الطرفين استطاع المختار الثقفي وأنصاره السيطرة على الكوفة، ودخل قصر الإمارة. ثم خرج إلى المسجد، وبايعه الناس على " كتاب الله وسنّة رسول الله صلى الله عليه و آله وسلّم والطلب بدماء أهل البيت وجهاد المحلّين والدفع عن الضعفاء، وقتال من قاتلنا و سلم من سالمنا " [٧٢].

كانت المرحلة الأولى من حركة المختار قد انتهت بالسيطرة على الكوفة لتبدأ المرحلة الثانية وهي تصفية قتلة الحسين عليه السلام، خصوصاً أن هؤلاء كانوا العماد الرئيسي للخط الزبيري و (قوات احتياط) للخط الأموي دائماً، وبشكل أدق لخط مصلحتهم، أينما مال. وزاد خطر هؤلاء بعد أن جهز مروان بن الحكم الذي تغلب على الأمر في الشام بعد اعتزال معاوية بن يزيد، جيشاً عهد بقيادته إلى عبيد الله بن زياد ليفتح الكوفة وينهبها ثلاثاً (!)

ثم أكد موقع ابن زياد، عبد الملك الذي تولى الحكم بعد أبيه مروان.

---

[71] / بحار الأنوار ٤٥/ ٣٦٥.

[72] / كامل ابن الأثير ٤/ ٢٢٦

وهكذا بدأ المختار بتصفية من كان في الكوفة من قتلة الإمام الحسين وأنصاره.. فقد حمل إليه عبد الله بن أسيد الجهني ومالك بن بشير، وكانوا قد فروا إلى القادسية فلما رآهم قال:

– يا أعداء الله ورسوله! أين الحسين بن علي؟ أدوا إلى الحسين، قتلتم من أمرتم بالصلاة عليهم!!.

فقالوا: رحمك الله بعثنا كارهين فامنن علينا واستبقنا!.

قال: هلا مننتم على الحسين ابن بنت نبيكم فاستبقيتموه وسقيتموه؟! ثم أمر بهم فقتلوا..

ثم أرسل إلى خولى بن يزيد الأصبحي وهو صاحب رأس الحسين الذي جاء به، فاختفى في بيته، فدخل أصحاب المختار يفتشون عنه فخرجت زوجته واسمها العيوف بنت مالك وكانت تعاديه منذ جاء برأس الحسين، فقالت لهم: ما تريدون؟ قالوا لها: أين زوجك؟! قالت: لا أدري! وأشارت بيدها إلى مخبئه، فاخرجوه وقتلوه..

وهكذا قبض على حكيم بن الطفيل الطائي، فرماه أنصار المختار بالسهام حتى صير كالقنفذ وهلك، والأمر كذلك بالنسبة إلى زيد بن رقاد الجنبي، فقد رمي بالنبل والحجارة، ثم أحرق. وأيضاً فقد بعث في طلب شمر بن ذي الجوشن وكان قد هرب إلى البادية، فاحضر وضرب عنقه، وقبض على حرملة بن كاهل الأسدي فقطعت يداه ورجلاه ثم أحرق. و قتل عمر بن سعد وابنه.

و لم يبق من قتلة الحسين وأصحابه أحد يعرف إلاّ وأخذ أو هرب من الكوفة.. إلاّ أن هم المختار الأكبر كان عبيد الله بن زياد فليس هؤلاء القتلة الذين تتبعهم في الكوفة إلاّ سيئة من سيئاته..

لذلك بعث إبراهيم بن الأشتر لقتاله، فتلاقوا عند نهر الخازر بالموصل، فخطب إبراهيم في أصحابه قائلا:

يا أهل الحق وأنصار الدين! هذا ابن زياد قاتل حسين بن علي وأهل بيته قد أتاكم الله به وبحزبه حزب الشيطان، فقاتلوهم بنية وصبر لعلّ الله يقتله بأيديكم ويشفي صدوركم..

* * *

وبينما كان زين العابدين في المدينة على مائدة طعام وإذا بالباب يطرق.. ومع الطارق رأس عبيد الله بن زياد أرسله المختار إليه بعد أن قتله إبراهيم بن الأشتر في المعركة، قسمه– بضربة– نصفين ثم أحرقت جثته واحتز رأسه [٧٣].

لقد استطاع المختار أن يهزم– بقيادة إبراهيم بن الأشتر– جيش عبيد الله بن زياد وأن يقتله، وأن يتتبع من بقي من قتلة الإمام الحسين عليه السلام. وتفاقم أمره، وقوي سلطانه، وكان عبد الله بن الزبير

---

73 / كامل بن الأثير ٤/ ٢٦٤

يرقب كل ذلك بعين أضيق من سم الخياط حسداً، فإذا كان قد ترك الصلاة على الرسول عناداً لأهل بيته، وحسداً لهم، فما هو فاعل إذا نشأت دولة باسمهم في الكوفة وأخذت تتوسع؟!.

لقد عبر ابن الزبير عن ذلك بأن أخذ محمد بن الحنفية وعدداً من بني هاشم ممن كان في مكة، وسبعة عشر رجلاً من وجوه أهل الكوفة كانوا في مكة حينها من بينهم أبو الطفيل عامر بن واثلة، فأجبرهم على البيعة، ولما امتنعوا حبسهم بزمزم وتوعدهم بالإحراق!! وضرب لذلك أجلاً.. إلاّ أن المختار استطاع أن ينقذهم عندما بعث عدة سرايا إلى مكة، واستنقذوهم منه.

في مواجهة ذلك النفوذ الذي حصل للمختار بعث عبد الله بن الزبير أخاه مصعباً والياً على البصرة لينطلق منها بجيش لقتال المختار..

والتحم الجيشان في منطقة حروراء من أرض الجزيرة ، و لم يستطع الكوفيون الذين قد فرغوا لتوهم من معركة قاسية مع جيش ابن زياد، الصمود أمام جيش البصرة ذي العدد والعدة.. وأتى خبر الهزيمة المختار في الكوفة.. فنهض برجولة وقال: ما من الموت بد، وما من ميتة أموتها أحب إليّ من ميتة ابن شميط. (وكان ابن شميط من أصحابه قد واجه منفرداً عشرات من خيالة مصعب حتى استشهد).

وإذا كان يحلو لبعض القادة عندما يرون الريح في غير جهتهم أن يستسلموا وينهزموا، فإن المختار قد فعل فعل الرجال الصادقين، فقد تطيب وتحنط ونزل من القصر في تسعة عشر رجلاً وقد أحكم جيش مصعب الحصار حوله فقاتل عامة ليلته ثم استشهد...

وإذا كانت البطولة قد نضحت من إناء المختار فإن مصعباً كان يعبر بأفعاله عن اللقب الذي ارتضاه لنفسه (الجزار). "وأتى بحرم المختار فدعاهن إلى البراءة منه ففعلن إلاّ حرمتين له إحداهما بنت سمرة بن جندب الفزاري والثانية ابنة النعمان بن بشير الأنصاري، وقالت: كيف نتبرأ من رجل يقول ربي الله؟ كان صائم نهاره قائم ليله قد بذل دمه لله و لرسوله في طلب قتلة ابن بنت رسول الله صلى الله عليه و آله و سلّم وأهله وشيعته فأمكنه الله منهم حتى شفى النفوس؟ ".

فكتب مصعب إلى أخيه عبد الله يخبرهما وما قالتاه، فكتب إليه: إن هما رجعت عمّا هما عليه وتبرأتا منه و إلاّ فاقتلهما!!.

مرحى.. للبطولة والشجاعة والمروءة!!.

وعرضهما مصعب على السيف، فرجعت ابنة سمرة ولعنته وتبرأت منه وقالت:

– لو دعوتني إلى الكفر مع السيف لكفرت، أشهد أن المختار كافر.

وأبت ابنة النعمان بن بشير وقالت:

– شهادة أرزقها فأتركها؟ كلا! إنها موتة ثم الجنة والقدوم على الرسول وأهل بيته والله لا يكون، آتي مع ابن هند فأتبعه، وأترك ابن أبي طالب، اللهم اشهد إني متبعة لنبيك وابن بنته وأهل بيته وشيعته [٧٤].

ثم قدمها وأمر بقتلها، فضربت ثلاث ضربات بالسيف [٧٥] (!).

ففي ذلك يقول الشاعر:

إن من أعجب الأعاجيب عندي　　قتل بيضـــاء حرة عطـــبول

قتلوها ظلماً على غير جرم　　إن لله درهـــا من قتـــــيل

كتب القتـــل والقتـــــال علينا　　وعلى الغانيات جر الذيول

---

74 / مروج الذهب ٣/ ١٠٧.

75 / الكامل ٤/ ٢٧٥.

يحيى ابن أم الطويل المطعمي

قتله الحجاج الثقفي

كانت الفاجعة أكبر من القدرة على التحمل، وفصول المأساة عصية على الاستيعاب.. وكان السؤال الذي لون الأفق العام في الأمة: هل يمكن هذا؟!.

الحسين (ع) ابن بنت رسول **الله**، وسيد شباب أهل الجنة ريحانة الرسول، وإمام المسلمين، يذبح في نصف نهار مع خيرة أصحابه وأقاربه.. على يد (المسلمين)؟**!** ثم تعود حياة الناس إلى سابق عهدها وكأن شيئاً لم يكن؟!.

أين نصر **الله!!** وأين وعده الذي أوجب على نفسه (**إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد**) ومتى تتحقق (**ولينصرن الله من ينصره** إن **الله لقوي عزيز**)؟ ومن أولى من الحسين بدفاع الله عن الذين امنوا- (إن **الله يدافع عن الذين** آمنوا)؟!.

وإذا كان قد صنع بالحسين كل ذلك وهو من هو.. فماذا سيصنع بغيره من سائر الناس عند التحرك؟**!** وإذا.. فإن من الأفضل صيانة النفس، والاجتناب من موارد الهلكة..

مثل هذه الأسئلة و (الثقافة) كانت قد أعقبت شهادة الإمام الحسين في كربلاء، وانتشرت بسرعة، كونها تنسجم مع خط التخاذل في حياة الإنسان.

وثقافة التخاذل في نفس الإنسان أسرع من السيل إلى السفح، ويكفي أن يعطي عنوانا ليقرأ كتابا كاملا فيها.

وهكذا (**ارتد الناس** بعد مقتل الحسين (ع) إلا ثلاثة: أبو خالد الكابلي، ويحيى ابن أم الطويل وجبير بن مطعم، ثم إن الناس لحقوا **وكثروا..**) كما روى عن **الإمام الصادق** (ع).

لم تكن ردة دين**!** بل ردة ثقافية في فهمه.. ردة في النفوس بعد أن أفقدها المأساة تجلدها، جعلتها تشعر حيناً من الوقت أن سلطان بني أمية لا يقاوم ولا يواجه، والدليل على ذلك كربلاء.. وأي ردة أكبر من هذه في ميدان الثقافة والشجاعة**!!** إلاّ أن ذوي المعرفة بحقائق الحياة وسنن المجتمع لا يرسلون بصائرهم تبعاً للأحداث الصاخبة، ولا يقصرون إيمانهم على المجسدات والوقائع الظاهرية لأنهم (**يؤمنون بالغيب**) وبأيام الله القادمة من رحم اليأس تصنع النصر والعزة للمؤمنين، وبالرغم من أن غيرهم سيؤمن بها في المستقبل حين يراها عياناً، إلاّ أن هؤلاء يتميزون عن أولئك أنهم يرون المستقبل في الحاضر، ويعيشون الجنة في الدنيا (فهم والجنة كمن قد رآها فهم فيها منعمون)..

بقي هؤلاء وفي طليعتهم يحيى ابن أم الطويل مع إمامهم زين العابدين يصنعون من اليأس أملاً، ومن الردة النفسية عودة توّابين ، ومن القنوط رجاء رحمة.. ومن خلال ذلك وغيره (لحق الناس وكثروا).

بين الواقع والواجب، علاقة وثيقة، ذلك أن التشخيص الدقيق للواقع يجعل المرء قادرا على ممارسة الواجب المناسب له. بينما عند خطأ المرء في تشخيص واقعه المعاش لا شك ينتهي إلى القيام بواجب ، ولكن غير مناسب، أو غير مطلوب.

وإذا كان أثر التشخيص الخاطئ للمطلوب في الأحكام الشرعية يقتصر- عادة- على **الشخص** نفسه، فإن أثر التشخيص الخاطئ للمطلوب في الميادين الاجتماعية والسياسية- عادة- يعم حياة الفرد والمجتمع.

لقد كان المطلوب من المسلمين مناصرة الإمام الحسين (ع) والنهوض معه في ثورته، بينما اكتفى البعض- تعبداً فيما يزعم- بأن أغلق باب داره عليه ساجداً وراكعاً..

وهكذا فنحن إلى اليوم نعاني من سوء التشخيص للواقع وبالتالي الواجب المطلوب لهذا الواقع، فيما تحتاج الأمة إلى التنظيم يفكر البعض بالمظاهرات، أو تحتاج إلى كلمة حق عند سلطان جائر يعزفون على وتر التقية !!.

لقد عاش المسلمون آنئذ وضعاً خانقاً، استفاد الأمويون من نتائج معركة كربلاء تعميقه وتأكيده بعد أن فرضته سياسات معاوية بالتشريد والقتل ومنع العطاء ومطاردة ذكر أمير المؤمنين (ع) و (من اهمتموه بموالاة هؤلاء القوم فاهدموا داره وامنعوه عطاءه)..

فقد كان الوضع يحتاج إلى رجل من أتباع الأئمة يحمل روح كربلاء في البراءة من الظالمين، وتمزيق نسيج الخوف الذي ألبسه الأمويون للوضع الإسلامي.. ولو أدى ذلك إلى مقتله.

فإن تكن الأبدان للموت أنشئت فقتل امرء بالسيف في الله أفضل

وكان ذلك الرجل يحيى ابن أم الطويل، فقد كان يأتي ويقف بالكناسة (الكوفة) ثم ينادي بأعلى صوته:

- معشر أولياء الله.. أنا براء مما تسمعون، من سب علياً فعليه لعنة الله، ونحن براء من آل مروان وما يعبدون من دون الله.. ثم يخفض صوته فيقول:

- من سبّ أولياء **الله** فلا تقاعدوه، ومن شك فيما نحن عليه فلا تفاتحوه ومن احتاج إلى مسألتكم من إخوانكم فقد خنتموه ثم قرأ:(إنا **اعتدنا للظالمين ناراً أحاط بهم سرادقها وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفقا**) [٧٦].

[76] / أصول الكافي ٢/ ٣٨٠.

وكذلك كان شأنه في المدينة، فقد كان يدخل مسجد رسول الله حيث يجتمع القصاصون المرتزقة والوعاظ الكذبة الذين يشترون بسب أمير المؤمنين حطاماً قليلاً من دنيا بني أميـــة، مـــضللين بـــأقوالهم وأكاذيبهم تلك جموع الناس.. فيقول لهم (**كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء..**) [٧٧].
وإذا كان يحيى في خط البراءة صلب المواجهة شجاع النفس فقد كان في خط الولاية قوي الإيمان، فلـــم يكن ليدع الدعوة إلى خط أهل البيت، ما وسعه ذلك، فقد استطاع أن يؤثر على أبي خالد الكابلي، و لم يكن قبلئذ في خط الإمامة، حتى أدخله على زين العابدين، واختص به حتى أصبح من حوارييه المقربين.. ولنسمع ما يرويه أبو خالد عن كيفية اعتناقه مذهب **أهل البيت**:
لقيني يحيى ابن أم الطويل- رفع الله درجته- وهو ابن داية [٧٨] **زين العابدين** (ع) فأخذ **بيدي** وصـــرت معه إليه(ع) فرأيته جالسا **في** بيت مفروش بالمعصفر مكلس الحيطان عليه ثياب مصبغة فلم أطـــل عليـــه **الجلوس فلما** نهضت **قال لي**: صر إليّ في **غد** إن شاء **الله** تعالى فخرجت من عنده، وقلت ليحيى أدخلتني على رجل يلبس المصبغات وعزمت على أن لا أرجع إليه، ثم إني فكرت في أن رجوعي إليه غير ضـــائر فصرت إليه في غد، فوجدت الباب مفتوحا و لم أر أحدا فهممت بالرجوع فناداني مـــن داخـــل الـــدار، فظننت أنه يريد غيري، حتى صاح بي: يا كنكر ادخل.. وهذا اسم كانت أمي سمتني به ولا علم أحد به غيري، فدخلت إليه فوجدته جالسا في بيت مطيّن على حصير من البردي وعليه قميص كرابيس، وعنده يحيى (ابن أم الطويل) فقال لي : يا أبا خالد إني قريب العهد بعرس وأن الذي رأيت بالأمس مـــن رأي المرأة و لم أرد مخالفتها.. [٧٩].
ثم بدأ يبين له من علمه وكراماته ما كفاه دليلا على إمامته فتبعه وأصبح من خيرة أصحابه.. وكان ذلك بسعي يحيى وجهده في استقطاب أبي خالد لهذا التجمع.
حين انتخب يحيى ابن أم الطويل طريق أهل البيت كان قد اتخذ ليوم فاقته في الآخرة جلباباً، وفي ظلماتها ضياء ودليلا، وكان يعلم ثمن ذلك.. خصوصاً وأنه كان طلقة الرسالة التي مزقت رداء القمع الأمـــوي، وصوت الحق الذي كان يعلو فوق صوت الظالمين، الشاتمين لأمير المؤمنين (ع). **ولم** يكـــن في **ذلـــك** ليخاف لومة **لائم**..

---

[77] / معجم رجال الحديث ٢٠/ ٣٥

[78] / كانت أم زين العابدين قد ماتت في نفاسها به .

[79] /) بينا طريقة أهل البيت في حياتهم الزوجية بالتفصيل في كتابنا الحياة الشخصية عند أهـــل البيـــت- فليراجع.

و لم يزل معاوية وعمّاله دائبين على ذلك- شتم أمير المؤمنين (ع)-
" حتى تمرن عليه الصغير وهرم عليه الشيخ الكبير " ولعلّ في أوليات الأمر كان يوجد هناك من يمتنع عن القيام بهذه السبة المخزية وكان يسع لبعض النفوس الشريفة أن يتخلف عنها غير أن شدة معاوية الحليم (!) في إجراء أحدوثته وسطوة عمّاله الخصماء الألدّاء على أهل بيت الوحي وتهالكهم دون تدعيم تلك الإمرة الغاشمة، وتنفيذ تلك البدعة الملعونة، حكمت في البلاء حتى عمّت البلوى وخضعت إليها الرقاب وغالتها أيدي الجور تحت الذلّ والعدوان فكانت العادة مستمرة منذ شهادة أمير المؤمنين (ع) إلى نهي عمر بن عبد العزيز طيلة أربعين سنة على صهوات المنابر في الحواضر الإسلامية كلها من الشام إلى الري إلى الكوفة إلى البصرة إلى عاصمة الإسلام المدينة المشرفة إلى حرم أمن الله مكة المعظمة إلى شرق العالم الإسلامي وغربه، وعند مجتمعات المسلمين جمعاء.. قال ياقوت في معجم البلدان:لعن علي بن أبي **طالب** رضي الله عنه على منابر الشرق والغرب و لم يلعن على منبر سجستان إلاّ مرة وامتنعوا على بني أمية حتى زادوا في عهدهم: وأن لا يلعن على منبرهم أحد. وأي شرف أعظم من امتناعهم من لعن أخي رسول الله (ع) وهو يلعن على منابر الحرمين: **مكة والمدينة**..

وقد صارت سنة جارية ودعمت في أيام الأمويين.. سبعون ألف منبر يلعن فيها أمـــير المـــؤمنين (ع) واتخذوا ذلك كعقيدة راسخة أو فريضة ثابتة أو سنة متبعة ..)[٨٠] وكانت هذه السياسة تحتاج إلى رجل شجاع.. مثل يحيى الذي لم يتوقف فقد كان يظهر شخصه، ومذهبه، ويتصدى و (يظهر الفتوة)، فطلبه الحجاج بن يوسف الثقفي، وقال له: تلعن أبا تراب (يقصد أمير المؤمنين)، وكان الجواب معروفا سلفا، ذلك أن يحيى الذي كان يقصد الكوفة فيلعن على رؤوس الأشهاد من يشتم أمير المؤمنين، ويقصد المدينة فيصنع كذلك، كيف يمكن أن يستجيب؟!.

وهكذا قدمه الحجاج، وأمر بقطع يديه ورجليه فمضى شهيدا إلى **رحمة الله**.

---

[80] / الغدير ١٠/ ٢٩٦.

سعيد بن جبير

العمر: ٤٩ سنة

الوفاة: سنة (٩٤) قتلاً بيد الحجاج الثقفي

" فلمّا قتل التبس عقل الحجاج فجعل يقول: قيودنا قيودنا فظنوا أنه يريد القيود فقطعوا رجلي سعيد من أنصاف ساقيه وأخذوا القيود)

ابن الأثير

(ما لي ولسعيد بن جبير؟!).

ويفيق فزعا، بعد أن يرى سعيد بن جبير آخذاً بمجامع ثوبه يريد أن يخنقه.. ها هو يقترب، يضع كلتا يديه على حلقي، يضغط، ويضغط .. النجد ة، ال .. ن.. ج..

وينادي رئيس الحرّاس: عليك اللعنة أين الحرس؟!

- بأمرك يا مولاي!!

- كيف لم يروا هذا الداخل؟ ولماذا لم يمنعوه؟ ألم يسمعوا صوتي؟! لقد كان يخنقني!.

وينظر رئيس الحراس في أعين الموجودين مستعلماً، فلا يجد إلاّ الاستفهام.. عمن يتحدث الحجاج بن يوسف الثقفي؟! والي العراقين؟! أتراه في النزع يرى صورة ملك الموت، الموت الذي طالما بعثه على بيوت الآخرين.. وهل يمكن لأحد من الحراس أن يدفع عزرائيل؟!.

هل صحيح أن من أرى أمامي هو الحجاج الذي كان اسمه يثير الرعب في أعين الصغار والكبار؟! وهل هو الذي كان يرى (رؤوساً قد أينعت وحان قطافها وأنه لصاحبها)؟! لماذا يبدو هكذا مصفر اللون من الفزع غريق الوجه من العرق، تتلكأ الكلمات على شفتيه الذابلتين كأنها تعبر حقول ألغام؟!.

- لم يدخل أحد يا مولاي والحراس جميعا كانوا يقظين!!.

- بل دخل في حلة بيضاء، وكاد يخنقني!! ويلي من سعيد بن جبير..

وهكذا عاش الحجاج الثقفي الأشهر الستة الباقية من عمره بعد قتله سعيدا يتنقل من كابوس مزعج إلى آخر أشد إزعاجا، ولقد قتل في هذه الليالي بكوابيسها بعدد من قتل من خيرة الصالحين. وانتقم سعيد بن جبير لآلاف الضحايا والشهداء، من الحجاج في حياته قبل أن ينشر للحساب الإلهي.

ترى من هو سعيد بن جبير؟!.

سعيد بن جبير بن هشام الأسدي (ولاء)، مولى بني والبة بن الحارث. ولد في الكوفة فغرست في أرض قلبه أشجار حب أهل البيت (ع)، وتنقل لأخذ العلم بينها وبين مكة والمدينة، فأخذ عن الإمام

زين العابدين (ع) وكان يأتم به [81]، وأخذ علم التفسير عن ابن عباس فقال له: حدّث!.
فقال: أأحدث وأنت هنا؟!.
قال ابن عباس: أليس من نعمة الله عليك أن تحدث وأنا شاهد فإن أصبت فذاك وإن أخطأت علمتك[82].
ذلك الغرس وهذا التعلم، جاء على أرض صالحة، فنبغ سعيد حتى صار أجمع أقرانه لعلوم القرآن والفرائض، ورافق كل ذلك ولاء كبير لأهل بيت النبوة كان يعتمل في قلب سعيد حتى قيل إن الحجاج إنما قتله لتهالكه في ولاء آل الرسول، وكما كان يتقن فن (التولي لأولياء الله) باعتباره من فروع الدين والعقيدة، فقد كان أيضا (يتبرأ من أعداء الله) فقد كان يوجه قوارص نقده، ولواذع كلامه للحكم الأموي المتسلط، خصوصا لما كان ومعه سائر الناس يرون ويسمعون من تجاهر الحجاج واستهزائه بالمقدسات، أليس هو القائل: أخليفة أحدكم في أهله أكرم عليه أم رسوله في حاجته؟! قالوا: بل خليفته في أهله! قال: أمير المؤمنين عبد الملك خليفة الله، ومحمد رسول الله فأيهما أكرم؟! وأليس القائل وهو خارج عن العراق:- إني قد استعملت عليكم محمدا وبه الرغبة عنكم. وقد أوصيته **فيكم بخلاف وصية رسول الله بالأنصار فإنه أوصى أن يقبل من محسنهم** ويتجاوز عن سيئهم، وقد أوصيته أن لا يقبل من محسنكم ولا يتجاوز عن مسيئكم !! [83].
ولذلك كان سعيد بن جبير، يتبعه عدد كبير من القراء والفقهاء، من المبادرين للانضمام إلى ثورة عبد الرحمان بن محمد الأشعث، فقد وجدوا فيها إعلانا معارضة لسياسة بني أمية وشخص الحجاج الثقفي. ويبدو أن العنصر المشترك الذي كان يجمع كل هؤلاء الثائرين على اختلاف انتماءاتهم كان، معارضتهم لبني أمية وللحجاج. فها هو جبلة بن زحر ينادي في الثائرين:
(يا معشر القراء.. إن الفرار ليس بأحد من الناس بأقبح منه بكم، إني سمعت علي بن أبي طالب رفع الله درجته في الصالحين واتاه الله ثواب الصادقين والشهداء يقول يوم لقينا أهل الشام: أيها المؤمنون أنه من رأى عدوانا يعمل به ومنكرا يدعى إليه فأنكره بقلبه فقد سلم وبرئ، ومن أنكره بلسانه فقد أجر وهو أفضل من صاحبه ومن أنكره بالسيف لتكون كلمة الله هي العليا وكلمة الظالمين السفلى فذلك الذي

---

81 / أعيان الشيعة/ ٢٣٥.

82 / وفيات الأعيان/ ٣٧١.

83 / مروج الذهب ٣/ ١٥٤.

أصاب سبيل الهدى ونور في قلبه اليقين فقاتلوا هؤلاء المحلين المحدثين الذين جهلوا الحق فــلا يعرفونــه وعملوا بالعدوان فليس ينكرونه).

وقاتل حتى قتل.. وكان سعيد بن جبير وأبو البختري الطائي يحملان على أهل الشام حتى يخالطاهم[٨٤] .

وهكذا شهد سعيد صعود نجم الحجاج مرة أخرى، بقضائه على ثورة القراء والكــوفيين بقيــادة ابــن الأشعث، فتسلل إلى أصفهان فأقام بها حيناً، وجاءت غربان الشؤم للحجاج بخــبر وجــود ســعيد في أصفهان، فكتب إلى عاملها أن يأخذه ويرسله إليه، وبدلا من ذلك قام ذلك العامل بأخبار سعيد، بــأن يفارق أصفهان، ففارقها عائدا إلى مكة المكرمة حيث حرم الله الآمن، فكان هو فيهــا وأنــاس أمثالــه يستخفون فلا يخبرون أحداً **بأسمائهم** [٨٥]. **وهكذا بينما يأمن المنحرفون والمحلون، يعيش أوليــاء الله** في خوف وهجرة واختفاء!.

وولي خالد بن عبد الله القسري مكة المكرمة، وهو الذي بنى لأمه النصرانية كنيسة في قصره في مكة، فكانت تسمع صوت الناقوس بجوار المسجد الحرام، من بيت الوالي الأموي على مكة المكرمة؟! وهو الذي مليء قلبه بغضاً لعلي (ع) وأتباعه، حتى طلب من أحد النسابة أن يكتب **له عــن أنــساب قريش** شرط أن لا **يكون ذكر علي** (ع) في **هذا الكتاب!!. ولم يرق خالداً القسري أن تستمر حيــاة العالم العامل الموالي لأهل** البيت ابن جبير، كيف وهل يجتمع مع الظلمة نور؟! فأخذه وبعــث بــه إلى **الكوفة، حيث مقر الحجاج.**

وهكذا قدم سعيد يرسف في قيوده... ودخل على الحجاج.

- فقال له الحجاج: ما اسمك؟.

* قال: سعيد بن جبير.

- بل أنت شقي بن كسير.

* **بل كانت أمي أعلم باسمي منك.**

- شقيت أمك وشقيت أنت.

* الغيب يعلمه غيرك!.

- لأبدلنك بالدنيا ناراً تلظّى.

* لو علمت أن ذلك بيدك لاتخذتك إلها.

---

84 / الكامل لابن الأثير ٤/ ٤٨٠.

85 / المصدر / ٥٧٩

- فما قولك في محمد؟!.

* نبي الرحمة وإمام الهدى.

- فما قولك في علي؟ أهو في الجنة أم في النار؟.

* لو دخلتها وعرفت من فيها عرفت أهلها.

- فما قولك في الخلفاء؟.

* لست عليهم بوكيل.

- فأيهم أعجب إليك.

* أرضاهم لخالقي.

- فأيهم أرضى للخالق؟!.

* علم ذلك عند الذي يعلم سرهم ونجواهم.

- أحب أن تصدقني.

* إن لم أصدقك لن أكذبك.

- فما بالك لم تضحك؟!.

* وكيف يضحك مخلوق خلق من الطين والطين تأكله النار؟!.

- فما بالنا نضحك؟.

* لم تستو القلوب.

ثم أمر الحجاج باللؤلؤ والزبرجد والياقوت فجمعه بين يديه، فقال سعيد له: إن كنت جمعت هذا لتتقي به فزع يوم القيامة فصالح، و إلاّ ففزعة واحدة تذهل كل مرضعة عما أرضعت، ولا خير في شيء جمع للدنيا إلا ما طاب وزكا.

ثم دعا الحجاج بالعود والناي فلما ضرب بالعود ونفخ في الناي بكى سعيد، فقال الحجاج: ما يبكيك؟! هو اللعب! فقال سعيد: هو الحزن. أما النفخ فذكرني يوما عظيما يوم النفخ في الصور وأما العود فشجرة قطعت في غير حق، وأما الأوتار فمن الشاء تنبعث معها يوم القيامة.

قال الحجاج: ويلك يا سعيد !.

فقال سعيد: لا ويل لمن زحزح عن النار وأدخل الجنة.

- اختر يا سعيد أي قتلة أقتلك؟ ا.

* اختر لنفسك يا حجاج فوالله لا تقتلني قتلة إلاّ قتلك الله مثلها في الآخرة.

- أفتريد أن أعفو عنك ؟!.

* إن كان العفو فمن الله، وأما أنت فلا براءة لك ولا عذر.

- اذهبوا به فاقتلوه!!.

فلما خرج ضحك.. فأخبر الحجاج بذلك فأمر برده، فردّ فقال له الحجاج: ما أضحكك؟!.

قال سعيد: عجبت من جرأتك على الله وحلم الله عليك.

فأمر بالنطع فبسط وقال: اقتلوه.

فقال سعيد: (وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفاً **وما أنا من المشركين**).

- وجّهوا به لغير القبلة!!.

* (فأينما تولّوا فثم وجه الله).

- كبّوه لوجهه.

- (منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى).

- أذبحوه.

- أما إني أشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله خذها مني حتى تلقاني بها يوم القيامة.. ورفع يده بالدعاء: اللهم لا تسلطه على أحد يقتله بعدي.. [٨٦].

وتدحرج الرأس على النطع..

ولم يسلطه الله على أحد بعد سعيد إذ أن هلاكه كان بعد شهادة سعيد بفترة وجيزة..

" ورئي الحجاج في النوم بعد موته فقيل له: ما فعل **الله** بك؟. قال: قتلني بكل قتيل قتلته قتلة وقتلني بسعيد بن جبير سبعين قتلة ".

---

[86] / وفيات الأعيان، هامش ٢/ ٣٧٣.

٤- جابر بن عبدا لله الأنصاري

توفي سنة ٧٨ هـــ في المدينة المنورة

عمره ٩٤ سنة

منذ اليوم الأول الذي التقى فيه برسول الله صلى الله عليه و آله و سلم في العقبة مرافقـــاً لأبيه كان يجد منه اهتماماً خاصاً به، ومباركة، وكان هذا الإحساس يغمره بالرضا، والحـــب العميـــق للرسول صلى الله عليه و آله و سلم.

لو لم يكن لرسول الله إلاّ تلك الأخلاق العالية لكفى بها دليلاً على نبوته، واتصاله بالخالق، كيف وهو يحمل المعجزة الخالدة: القرآن الكريم، ويحمل عدداً آخر من المعاجز التي تكفي كل واحـــده منـــها لهداية من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

إن الشجرة اليابسة التي لم تر الماء منذ سنين، لتتحول بلمسة من أنامله إلى أخرى مثمرة خضراء، وأن القليل من الطعام الذي لا يكفي لعدة أشخاص يتحول بين يديه المباركتين إلى مائدة يصدر منـــها العسكر الكبير شباعاً. ففي الخندق شاهد جابر من بركات الرسول صلى الله عليه و آله وسلّم ما ينقله إلينا:

عملنا مع رسول **الله** صلى الله عليه وآله و سلّم في الخندق فكانت عندي شويهة غير جدّ سمينـــة فقلت: والله لو صنعناها لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم، فأمرت امرأتي فطحنت لنا شيئاً من شعير فصنعت لنا منه خبزاً وذبحت تلك الشاة فشويناها لرسول الله، فلما أمسينا وأراد رسول الله صـــلى الله عليه وآله وسلّم، الانصراف عن الخندق - وكنا نعمل فيه نهارنا فإذا أمسينا رجعنا إلى أهالينا- قلت: يا رسول الله إني صنعت لك شويهة كانت عندنا وصنعنا معها شيئاً من خبز هذا الشعير فأحب أن تنصرف معي إلى منزلي.. وإنما أريد أن ينصرف معي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم وحده.

فلما قلت له ذلك، أمر صارخاً فصرخ: أن انصرفوا مع رسول الله إلى بيت جابر بن عبد الله.

قلت: إنا لله و إنا إليه راجعون!.

فأقبل رسول الله وأقبل الناس معه فجلس وأخرجناها إليه فبرك وسمى ثم أكل وتواردها الناس كلمـــا فرغ قوم قاموا وجاء ناس حتى صدر أهل الخندق عنها [٨٧].

---

[87] / السيرة النبوية لابن هشام ٣/ ٢٢٩

و لم تكن هذه الحادثة الوحيدة. بل كان الرسول دأبه السؤال والتفقد لأحوال أصحابه فقد سبقها أخرى في غزوة ذات الرقاع..

يقول جابر:

خرجت مع رسول الله صلى الله عليه وآله و سلّم إلى غزوة ذات الرقاع من نخل على جمل لي ضعيف، فلما قفل رسول الله صلى الله عليه وآله و سلّم، جعلت الرفاق تمضي وجعلت أتخلف حتى أدركني رسول الله فقال:

- ما لك يا جابر؟.

- يا رسول الله أبطأ بي جملي هذا.

- انخه..

فأنخته وأناخ رسول **الله** صلى الله عليه و آله و سلّم ثم قال:

- اعطني هذا العصا من يدك أو اقطع لي عصا من شجرة.. ففعلت فأخذها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم، فنخسه بها نخسات، ثم قال: اركب ! فركبت فخرج- والذي بعثه بالحق- يواهق ناقته مواهقة.

وتحدثت مع رسول الله فقال لي:

- أتبيعني جملك؟!.

- بل أهبه لك يا رسول الله.

- لا. ولكن بعنيه.. فقلت:

- فسمنيه يا رسول الله.

- قد أخذته بدرهم.

- لا. إذن تغبنني يا رسول الله.

- فبدرهمين !.

- لا.. فلم يزل يرفع لي رسول الله في ثمنه حتى بلغ الأوقية (٤٠ درهماً).

فقلت: أفقد رضيت يا رسول الله؟.

قال: نعم.

- فهو لك. فقال: قد أخذته.

ثم قال لي: يا جابر: هل تزوجت بعد؟! قلت: نعم يا رسول الله!.

قال: أبكراً أم ثيباً ؟! قلت: لا. بل ثيباً.

قال: أفلا جارية تلاعبها وتلاعبك؟!.

قلت: إن أبي أصيب يوم أُحد وترك بنات له سبعاً فنكحت امرأة جامعة تجمع رؤوسهن وتقـــوم عليهن.

قال: أصبت إن شاء الله، أما أنا لو قد جئنا صراراً [٨٨] أمرنا بجزور فنحرت وأقمنا عليها يومنــــا ذاك وسمعت بنا فنفضت نمارقها.

قلت: يا رسول الله ما لنا من نمارق.

قال: إنها ستكون فإذا أنت قدمت فاعمل عملاً كيساً.

فلما جئنا صراراً أمر رسول الله صلى الله عليه وآله و سلّم بجزور فنحرت وأقمنا عليها ذلك اليـــوم، فلما أمس رسول الله صلى الله عليه و آله وسلّم دخل ودخلنا.. فحدثت المرأة الحديث ومـــا قـــال لي رسول الله قالت: فدونك فسمع وطاعة.

فلما أصبحت أخذت برأس الجمل فأقبلت به حتى أنخته على باب رسول الله صلى الله عليه وآلـــه وسلّم ثم جلست في المسجد قريباً منه. وخرج رسول الله فرأى الجمل، فقال ما هذا ؟! قالوا: يا رسول الله هذا جمل جاء به جابر. قال: فأين جابر؟.

فدعيت له. فقال: يا ابن أخي خذ برأس جملك فهو لك، ودعا بلالاً فقال: اذهب بجابر فاعطـــه أوقية، فذهبت معه فأعطاني أوقية وزادني شيئا يسيراً، فوالله مازال ينمي عندي ويرى مكانه من بيتنا حتى أصيب فيما أصيب يوم الحرة[٨٩] .

إنه صلى الله عليه وآله وسلّم يتفقد حال أصحابه ويسألهم عن أوضاعهم، ويسعفهم في ذلك ما وسعه قدرته.. وكم هو حبيب ذلك القائد الذي يتفقد أحوال أصحابه ويسألهم عن أمورهم الشخصية؟! فكيف إذا كان هذا المتفقد رسول الله وأعظم الأنبياء، إن مجرد سؤاله صلى الله عليه وآله و سلّم ليشبع جابراً بشعور الرضا حتى لو لم يصنع له شيئاً، فكيف إذا أضيف إلى هذا قضاء الرسول لحوائج جابر!! فلندع جابراً يتحدث- وقد عرف بين الرجاليين بصدقه وكثرة حديثه عن النبي صلى الله عليه و آله وسلّم-:

---

[88] / صرار: موضع على ثلاثة أميال من المدينة.

[89] / السيرة النبوية ٣/ ٢١٨.

لما انصرفنا راجعين- يعني من غزوة ذات الرقاع- فكنا بالسفرة قال لي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم: يا جابر ما فعل دين أبيك؟!.

قلت: يا رسول الله هو عليه.. انتظر أن نجذ نخله.

فقال: إذا جذذت فاحضرني، واعزل العجوة على حدتها وألوان التمر على حدتها.. ثم قال: من صاحب دين أبيك؟!.

قلت: أبو الشحم اليهودي له على أبي تبعة من تمر..

فجعلت الصيحاني على حدة وأمهات الحدادين على حدة، والعجوة على حدة ثم عدت إلى جماع من التمر على اختلاف أنواعه وهو أقل التمر فجعلته جبلاً واحداً، فلما نظر رسول الله إلى التمر مصنفاً، قال: اللهم بارك له. ثم انتهى إلى العجوة فمسها ومس أصناف التمر ثم قال: ادع غريمك! فجاء أبو الشحم فاكتال حقه كله جبل واحد وهو العجوة، فقال: يا جابر هل بقي على أبيك شيء.

قلت: لا.. و بقي سائر التمر فأكلنا منه دهراً وبعنا منه حتى أدركت الثمرة من قابل، ولقد كنت أقول لو بعت أصلها ما بلغت ما على أبي من الدين. فلقد رأيتني والنبي صلى الله عليه و آله وسلّم يقول لي: ما فعلت في دين أبيك؟ فقلت: قد قضاه الله فقال: اللهم اغفر لجابر، فاستغفر لي في ليلة خمساً وعشرين مرة [٩٠].

* * *

و تابع جابر بن عبد **الله** الأنصاري رسول الله صلى الله عليه و آله وسلّم في جميع مواقفه في حربه حيث جميع غزواته عدا بدر وأُحد حيث خلفه أبوه على النساء، وفي سلمه حيث أصبح من الملازمين للرسول والمتعلمين على يده، ولذلك فهو من (المكثرين الحفاظ للسنن)..

كان يرى أن عدداً من الصحابة قد ألهاهم الصفق في الأسواق، والتجارة عن متابعة حديث رسول الله، والاغتراف من معين علمه، وكان يرى أي حظ أضاعوه، أما هو فكان لا يترك مناسبة للانتفاع من حديث الرسول إلاّ واقتنصها.

بل أنه عندما توفي رسول الله صلى الله عليه و آله و سلّم كان يتتبع أحاديثه التي لم يسمعها مباشرة ويسافر إلى المناطق المختلفة لكي يحصل على حديث صحيح عن الرسول لم يسمعه.

---

90 / أعيان الشيعة ٤ /٤٨

مرافقته تلك للرسول وتتبعه لآثاره، جعله يحدد بشكل دقيق جهة المسار الصحيح بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم فأصبح من خلّص أصحاب أمير المؤمنين، الداعين إليه والناشرين لفضائله. فقد كان يمر على سكك المدينة ومجالسهم ويقول:

(علي خير البشر فمن أبى فقد كفر، معاشر الأنصار أدّبوا أولادكم على حب علي بن أبي طالب فمن أبى فلينظر في شأن أمه)[٩١] .

وحين يسأله أحدهم: أخبرني أي رجل كان علي بن أبي طالب؟!

يجيبه:

– ذلك خير البشر أما والله أن كنا لنعرف المنافقين على عهد رسول الله صلى الله عليه و آله و سلّم ببغضهم إياه .

و لم يكن جابر يفعل ذلك انطلاقاً من العواطف المجرّدة، وإنما كان يرى أن عليه مسؤولية توضيح الخط الرسالي الرشيد للأمة، والقادر على إنقاذها من الأخطاء، إذ أنه منذ سمع من رسول الله، تعيين الله لعلي عليه السلام وصيّاً للرسول.. فقد وجد مسؤوليته في تبليغ هذا الحديث، فقد قال جابر:

أتيت رسول الله فقلت: يارسول الله من وصيك؟!.

فأمسك عني عشراً لا يجيبني، ثم قال: يا جابر ألا أخبرك عمّا سألتني ؟!.

فقلت: بأبي وأمي أنت، أما والله لقد سكت عني حتى ظننت أنك وجدت (غضبت) عليّ.

فقال: ما وجدت عليك يا جابر ولكن كنت أنتظر ما يأتيني من السماء فأتاني جبرئيل عليه السلام، فقال: يا محمد إن ربك يقرئك السلام ويقول لك: إن علي بن أبي طالب وصيّك وخليفتك على أهلك وأمتك، والذائد عن حوضك وهر صاحب لوائك يقدمك إلى الجنة.

فقلت: يا نبي الله.. أرأيت من لا يؤمن بهذا أقاتله؟!.

قال: نعم يا جابر ما وضع هذا الموضع إلاّ ليتابع عليه فمن تابعه كان معي غداً ومن خالفه لم يرد عليّ الحوض أبداً[٩٢] .

ومن خلال هذا الفهم شارك جابر في حروب أمير المؤمنين عليه السلام. كان في مسألة التولي لأولياء الله قوياً صلباً، فكذلك في جانب التبري من أعداء الله، فقد وجه معاوية له — بعد شهادة أمير المؤمنين —

---

91 / أعيان الشيعة ٤/ ٤٦

92 / الأمالي للشيخ المفيد / ١٦٨

بستمائة دينار. وكانت هذه طريقة معاوية في شراء ضعفاء النفوس، والمنهزمين أمام المال والذهب حيث يتغير موقفهم تبعاً لضخامة الصرة المرسلة..

فلما جاء بها الرسول، ردّها وكتب إليه:

وإني لأختار القنوع على الغنى   وفي الناس من يقضي عليه ولا يقضي

وألبس أثواب الحياء وقد رأى   مكان الغنى أن لا أهين له عرضي

وقال لرسوله: قل له والله يا ابن آكلة الأكباد لا تجد في صفيحتك حسنة أنا سببها أبداً.

* * *

وإذا كان جابر قد كفّ بصره في أواخر عمره، فقد كان نافذ البصيرة، ولذلك تابع موقفه موالياً لأهل البيت على بيّنة من أمره، وهو وإن لم يشترك في معركة كربلاء لهذا السبب إلاّ أنه كان يرى نفسه- بما يلتزم به من فكر، وما يقوم به من دعوة لخط أهل البيت – أحد المشاركين في تلك المعركة.

فقد جاء جابر إلى كربلاء حيث وقعت تلك المعركة الدموية بين قلة الحق وغثاء الباطل، وانتصر فيها للحق والقيم أهل الحق، بينما راحت رؤوسهم على أطراف الرماح مؤكدة عمق الانحراف الحاصل في قيادة الأمة لإزاحة أهل البيت عنها..

لكن حزن جابر كان لا يعادله حزن، بينما كان يرى الحسين عليه السلام على صدر رسول الله مرة وعلى كتفه أخرى، يقبله ويداعبه، وإذا به يراه تحت التراب بعد أن طعمت منه السيوف والرماح..

ها هو عطية العوفي، صاحب جابر ودليله يحدثنا عن تلك الأحداث: خرجت مع جابر بن عبد الله الأنصاري رضي الله عنه زائراً قبر الحسين عليه السلام فلما وردنا كربلاء دنا جابر من شاطىء الفرات فاغتسل ثم اتزر بإزار وارتدى بآخر ثم فتح صرة فيها سعد فنثرها على بدنه ثم لم يخط خطوة إلاّ ذكر الله تعالى حتى إذا دنا من القبر قال: ألمسنيه فألمسته إياه فخرّ على القبر مغشياً عليه، فرششت عليه شيئاً من الماء فلما أفاق قال: يا حسين يا حسين- يا حسين.

حبيب لا يجيب حبيبه.. وأنّى لك بالجواب وقد شخبت أوداجك على أثباجك وفرق بين رأسك وبدنك. أشهد أنك ابن خير النبيين وابن سيد المؤمنين وابن حليف التقوى وسليل الهدى وخامس أصحاب الكساء وابن سيد النقباء وابن فاطمة سيدة النساء ومالك لا تكون هكذا وقد غذتك كف سيد المرسلين وربيت في حجر المتقين ورضعت من ثدي الإيمان وفطمت بالإسلام فطبت حيّاً وطبت ميتاً غير أن قلوب المؤمنين غير طيبة لفراقك ولا شاكة في حياتك فعليك سلام الله ورضوانه، وأشهد أنك مضيت على ما مضى عليه أخوك يحيى بن زكريا.

ثم جاء ببصره حول القبر وقال:

السلام عليكم أيتها الأرواح التي حلّت بفناء الحسين عليه السلام وأناخت برحله أشهد أنكم قد أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وأمرتم بالمعروف ونهيتم عن المنكر وجاهدتم الملحدين وعبدتم الله حتى أتاكم اليقين.. والذي بعث محمداً بالحق لقد شاركناكم فيما دخلتم فيه.

قال عطية.. فقلت لجابر: فكيف و لم نهبط وادياً و لم نعل جبلاً و لم نضرب بسيف والقوم قد فرق بين رؤوسهم وأبدانهم وأوتمت أولادهم وأرملت الأزواج ؟!.

فقال لي: يا عطية سمعت حبيبي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم يقول: من أحب قوماً حشر معهم ومن أحب عمل قوم أشرك في عملهم، والذي بعث محمداً بالحق أن نيتي ونية أصحابي على ما مضى عليه الحسين وأصحابه.

قال عطية: فبينما نحن كذلك و إذا بسواد قد طلع من ناحية الشام، فقلت: يا جابر هذا سواد قد طلع من ناحية الشام.

فقال جابر لعبده: انطلق إلى هذا السواد وائتنا بخبره فإن كانوا من أصحاب عمر بن سعد فارجع إلينا لعلّنا نلجأ إلى ملجأ وإن كان زين العابدين فأنت حرّ لوجه الله تعالى.

مضى العبد فما كان بأسرع من أن رجع وهو يقول:

يا جابر قم واستقبل حرم رسول الله، هذا زين العابدين قد جاء بعمّاته وأخواته.

فقام جابر يمشي حافي الأقدام مكشوف الرأس إلى أن دنا من زين العابدين عليه السلام فقال الإمام: أنت جابر؟.

- نعم يا ابن رسول الله.

- يا جابر ها هنا والله قتلت رجالنا وذبحت أطفالنا وسبيت نساؤنا وحرقت خيامنا [٩٣].

وعاد جابر كما عاد زين العابدين إلى المدينة المنورة، وكان يرى في زين العابدين صورة أخرى عن جده رسول الله وأمير المؤمنين عليه السلام، ويغدو عليه في كل يوم لينتهل من معين علمه، ويقتدي بحسن فعاله، وكان الإمام السجاد عليه السلام وقد رأى سيطرة البغي الأموي، ووحشيته في أسوأ صورها في كربلاء، كان يشهد صورة أخرى من انتهاك الأمويين لحرمة المدينة بعد انتهاك حرمة آل الرسول، وكان من الممكن أن تهتز صورة الإيمان في النفوس.

[93] / أعيان الشيعة ٤/ ٤٧

لهذا رأى عليه السلام أن إعادة التوازن للأمة والذي اختل بفعل الانتهاكات الأموية يجب أن يبدأ بترسيخ معاني العبادة وتوثيق علاقة العباد مع خالقهم.. فكان القدوة المثلى في هذا الأمر، فقد انقطع إلى العبادة والدعاء حتى حاز على لقب (زين العابدين) بلا منازع..

ولما نظرت فاطمة بنت الحسين إلى شدّة اجتهاد أخيها في العبادة خافت عليه من الهلاك فجاءت إلى جابر بن عبد الله فقالت له:

يا صاحب رسول الله إن لنا عليكم حقوقاً، من حقنا عليكم أنكم إذا رأيتم أحدنا يهلك نفسه اجتهاداً أن تذكّروه الله وتدعوه إلى البقيا على نفسه، وهذا علي بن الحسين بقية أبيه الحسين قد انخرم أنفه، وثفنت جبهته وركبتاه وراحتاه، إدءاباً منه لنفسه في العبادة ".

وجاء جابر إلى زين العابدين.. وكان في محرابه قد أنضته العبادة، فنهض له الإمام وسأله عن حاله سؤالا حفيّاً، فأقبل عليه جابر يقول: يا ابن رسول الله أما علمت أن **الله** تعالى إنما خلق الجنة لكم ولمن أحبكم، وخلق النار لمن أبغضكم وعاداكم؟ فما هذا الجهد الذي كلفته نفسك؟!.

فقال الإمام: يا صاحب رسول الله أما علمت أن جدي رسول الله قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فلم يدع الاجتهاد وتعبد- بأبي هو وأمي- حتى انتفخ الساق وورم القدم، وقيل له: أتفعل هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، قال: أفلا أكون عبداً شكوراً؟.

ولما رأى جابر ذلك من زين العابدين، ناشده بتوسل: يا ابن رسول الله! البقيا على نفسك فإنك من أسرة بهم يستدفع البلاء، ويستكشف اللأواء، وبهم يستمطر السماء!!.

فقال الإمام: يا جابر لا أزال على منهاج أبوي مؤتسياً بهما صلوات الله عليهما حتى ألقاهما.

وخرج جابر وهو يقول لمن رآه: والله ما أرى في أولاد الأنبياء بمثل علي بن الحسين إلاّ يوسف بن يعقوب، والله لذرية علي بن الحسين أفضل من ذرية يوسف بن يعقوب، إن منهم لمن يملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً [٩٤].

ولأن جابراً كان يعرف أئمة أهل البيت عليهم السلام واحداً بعد الآخر بنص الرسول لذلك كانت خطواته تتبع هؤلاء، وكان آخر من أدركه الإمام الباقر محمد بن علي بن الحسين عليه السلام.. فكان يأتي إليه ويتعلم منه بينما كان الناس يظنون أنه يعلّم الباقر عليه السلام، ولعلّ هذا اللقاء اليومي بين الإمام وجابر كان مفيداً من الطرفين ذلك أن عدداً ممن كانوا لا يؤمنون بالإمام الباقر، كان الإمام يسند أحاديثه وعلمه- أمامهم- إلى جابر، لأنهم لم يكونوا يستطيعون استيعاب فكرة كون علم الإمام

---

94 / بحار الأنوار ٤٦/ ٦١.

من علم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم.. ولذلك نجد أن عدداً من أحاديث الإمام البـــاقر عليـــه السلام تسند إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم من خلال جابر الأنصاري.

كل ذلك بينما كان جابر يتعلم من باقر علوم الأولين والآخرين ومن مخازن معرفته فقد ذهب الإمام الباقر عليه السلام لزيارته لما ابتلي في آخر عمره بالضعف والكبر، وسأله عن حاله، فقال جابر: أنـــا في حال.. الكبر أحبّ إليّ من الشباب والمرض أحبّ إليّ من العافية والموت أحب إليّ من الحياة.

فقال له الإمام الباقر عليه السلام: أما أنا فأحب إليّ الحالة التي يختارها الله لي من الشباب والكـــبر والمرض والعافية والحياة والموت.

فلما سمع جابر ذلك أخذ يد الباقر عليه السلام وقبّلها وقال: صدق رسول الله.

نعم.. صدق رسول الله فقد حمله رسالة وسلاماً إلى باقر علوم الأولين والآخرين.

٥ – سليمان بن صرد الخزاعي

الوفاة: سنة ٦٥ شهيداً ني عين الوردة

العمر: ٩٣ سنة

" عباد الله.. من أراد البكور إلى ربه والتوبة من ذنبه فإليّ.."

سليمان بن صرد

لئن أسدل الستار على " الحسين شهيداً"، في عصر يوم العاشر من محرم، فلايزال الكثير من فصول " الحسين ثائراً ".. ذلك أن تلك الشهادة، بما رافقها من مقدمات بطولية، ونتائج مأساوية، صنعت انفجاراً عنيفاً في ليل صمت الأمة، وهزة قوية لكل القلوب، التي راحت وهي في دهشة مما جرى، تبحث عن طريق لاستمرار النهج الحسيني، وهكذا بقيت فصول كثيرة من " الحسين ثائراً " تنتظر الظرف المناسب لكي تخرج إلى الأمة..

سرعان ما أفاقت جماهير الأمة على حقيقة أن لا حرمة لها، ولا شخصية لوجودها بعد قتل الإمام الحسين عليه السلام، وأن لا وجود حتى لقشر الإسلام لدى ولاتها الحاكمين، ولذلك لا بد لها من " يا لثارات الحسين".

وكان أول من أدرك هذا التحول سليمان بن صرد الخزاعي، صاحب سول اله الذي غير اسمه من" يسار " إلى "سليمان"، وصاحب أمير المؤمنين عليه السلام إذ شهد معه مشاهده، وصاحب الحسنين..

إن القدر كان يدّخره لهذا التحول وهذا الدور، لقد كان يحرص- بعد أن كاتب الإمام الحسين عليه السلام معلناً بيعته له ومن معه من شيعة الكوفة- كان يحرص على الالتحاق بالإمام في كربلاء، إلا أن سرعة مجيء عبيد الله بن زياد إلى الكوفة، وقيامه بسجن كبار القوم من شيعة أهل البيت، جعل سليمان في رأس قائمة المطلوبين، وهكذا وجد نفسه في سجن الكوفة، رهين حراسة مشددة، وتعليمات صارمة للسجانين، بأن يعطوا سجناءهم طعاماً يوماً، ويوماً يحرمونهم..

لقد كان يدخر ليوم آخر بالرغم من حرصه أن يشهد كربلاء، إلاّ أنه"**مانسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها** ".

ها هو يتقطع ألماً، وحزناً وهو يسمع من العائدين أخبار عاشوراء، وتفاصيل البطولة والمأساة..

وكان يعتمل تحت ذلك الألم شعوراً بضرورة الاستمرار في خط الثورة الحسيني، ويحتاج ذلك إلى رجل، قد أعطى ظهره للحياة، لا يرجو من حركته سوى أن يسمع الأعداء صوت الحسين من جديد.. ويعيد إلى الأذهان صورة الرؤوس المرفوعة على أطراف ا لأسنة، ومشاهد الشفاه الذابلة من العطش..

كان الوضع يحتاج إلى من يخترق مجرى الحياة العادية، حيث يتعايش القاتل والمقتول وينسى فيه الضحية المجرم، مع أن سيف الإجرام لايزال يقطر بالدماء الزاكية.

و لم يكن هناك أفضل من سليمان، فبالرغم من سنه التي قاربت التسعين إلاّ أن له همة تقصر عنها همم الشباب، وتضحية أقل ما تعطيه النفس..

إنه لا يستطيع أن يرى قتلة الحسين عليه السلام يسرحون ويمرحون في الكوفة، وكأنهم كانوا في رحلة قنص بري !! سوف يكون هذا العمل- لو تم- بادرة خيرة تحذر أهل الباطل من التمادي في غيهم.. وما الذي يؤخره عن هذه المهمة، فلا أنسب من هذا الوقت، ذلك أن ابن زياد عاد إلى البصرة، وقد وردت الأنباء بهلاك يزيد بن معاوية، وانتقض ما أبرمه معاوية، وثار عبد الله بن الزبير في الحجاز، وانتهت السلطة المركزية..

وكان الشعور بالذنب- بالرغم من كونهم لم يرتكبوه- والإحساس بفداحة الخسارة التي حلت بشهادة الحسين، لدى عدد كبير من شيعة أهل البيت في الكوفة.. وكان الجميع يفكر فيما يفكر فيه سليمان..

* * *

قد لا تستطيع أن تضيء العالم، ولكن بدلاً من لعن الظلاّم، بيأس أوقد شمعة فلا يكلف الله نفساً إلاّ وسعها، وحيث لا تستطيع أن تقاوم كل جنود الانحراف فـ **"قاتلوا الذين يلونكم من الكفار** ".

والذين يتعللون، بعدم القدرة تارة، وبضخامة عدة العدو وعدده، و" **يتسللون منكم لواذاً"** هؤلاء إنما " يخدعون أنفسهم ".. إن شمعة من هذا، وإضاءة من ذاك، وصرخة من ثالث، وانتفاضة من رابع، سوف تخلق تيار الوعي والحركة في عقل الأمة وروحها.

وكما أن جسم الأمة عندما يصيبه الضعف والمرض فهناك حاجة إلى طبيب يداوي، فإن روحها إذا أصيبت بمرض التراجع أو الاستسلام فإنها تحتاج إلى دم شهيد، ينفض عن روحها تلك الآثار، حيث لا يستطيع غير العمل البطولي الاستشهادي صنع ذلك..

لما قُتل الحسين ورجع ابن زياد من معسكره بالنُّخَيْلَة ودخل الكوفة تلاقت الشيعة بالتلاوم والتندُّم، ورأت أن قد أخطأت خطأً كبيراً بدعائهم الحسين وتركهم نصرته وإجابته حتى قُتل إلى جانبهم، ورأوا أنّه لا يغسل عارهم والإثم عليهم إلاّ قتل مَنْ قتله أو القتل فيهم، فاجتمعوا بالكوفة إلى خمسة نفر من رؤساء الشيعة: إلى سليمان بن صُرَد الخُزاعيّ، وكانت له صحبة، وإلى المُسيّب بن نَجَبة الفزاريّ، وكان من أصحاب عليّ، وإلى عبد الله بن سعد بن نُفَيْل الأزديّ، وإلى عبد الله بن وال التيميّ، تيم بكر بن

وائل، والى رفاعة بن شدّاد البَجَليّ، وكانوا من خيار أصحاب عليّ، فاجتمعوا في مترل سليمان بن صُرد الخزاعيّ، فبدأهم المسيّب بن نَجَبة فقال بعد حمد الله:

أما بعد فإنا ابتلينا بطول العمر والتعرض لأنواع الفتن ، فنرغب إلى ربنا أن لا يجعلنا ممن يقول عنه غدا (أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر) فإن أمير المؤمنين عليا قال : العمر الذي أعذر الله فيه إلى ابن آدم ستّون سنة، وليس فينا رجل الاّ وقد بلغه، وقد كنّا مغرمين بتزكية أنفسنا فوجدنا الله كاذبين في كلّ موطن من مواطن ابن بنت نبيّه، صلّى الله عليه وسلّم، وقد بلغنا قبل ذلك كتبه ورسله وأعذر إلينا فسألنا نصره عَوْداً وبدءاً وعلانيةً فبخلنا عنه بأنفسنا حتى قُتل إلى جانبنا لا نحن نصرناه بأيدينا ولا جادلنا عنه بألستنا ولا قوّيناه بأموالنا ولا طلبنا له النصرة إلى عشائرنا، فما عذرنا عند ربّنا وعند لقاء نبيّنا وقد قُتل فينا ولد حبيبه وذرّيّته ونسله؟ لا والله لا عذر دون أن تقتلوا قاتله والموالين عليه، أو تُقْتَلوا في طلب ذلك، فعسى ربّنا أن يرضى عنّا عند ذلك، ولا أنا بعد لقائه لعقوبته بآمن. أيّها القوم ولّوا عليكم رجلاً منكم فإنّه لا بدّ لكم من أمير تفزعون إليه وراية تحفّون بها.

وقام رِفاعة بن شدّاد وقال: أمّا بعدُ فإنّ **الله** قد هداك لأصوب القول وبدأت بأرشد الأمور بدعائك إلى جهاد الفاسقين وإلى التوبة من الذنب العظيم، فمسموع منك مستجاب إلى قولك، وقلتَ: ولّوا أمركم رجلاً تفزعون إليه وتحفّون برايته، وقد رأينا مثل الذي رأيتَ، فإن تكن أنتَ ذلك الرجل تكن عندنا مرضيّاً، وفينا منتصحاً، وفي جماعتنا محبوباً، وإن رأيتَ ورأى أصحابنا ذلك ولّينا هذا الأمر شيخ الشيعة وصاحب رسول الله، صلّى الله عليه وسلّم، وذا السابقة والقَدَم سليمان بن صرد الخزاعي، المحمود في بأسه ودينه، الموثوق بحزمه.

وتكلّم عبد الله بن سعد بنحو ذلك وأثنيا على المسيّب وسليمان. فقال المسيّب: قد أصبتم فولّوا أمركم سليمان بن صُرَد.

فتكلّم سليمان فقال بعد حمد الله: أمّا بعدُ فإنّي لخائف ألاّ يكون آخرنا إلى هذا الدهر الذي نكدتْ فيه المعيشة وعظمت فيه الرزيّة وشمل فيه الجورُ أولي الفضل من هذه الشيعة لما هو خير، إنّا كنّا نمدّ أعناقنا إلى قدوم آل بيت نبيّنا، صلّى الله عليه وسلّم، نمنّيهم النصر ونحثّهم على القدوم، فلمّا قدموا ونينا وعجزنا وأدهنّا وتربّصنا حتى قُتل فينا ولد نبيّنا وسلالته وعصارته وبَضْعة من لحمه ودمه إذ جعل يستصرخ ويسأل النَّصَف فلا يُعطى، اتّخذه الفاسقون غرضاً للنّبل ودريئة للرماح حتى أقصدوه، وعدوا عليه. فسلبوه. ألا انهضوا، فقد سخط عليكم ربّكم ولا ترجعوا إلى الحلائل والأبناء حتى يرض الله، والله ما أظنّه راضياً دون أن تناجزوا مَنْ قتله، ألاّ لا تهابوا الموت فما هابه أحد قط إلاّ ذلّ، وكونوا كبني

إسرائيل إذ قال لهم نبيهم: **(إنكم ظلمتم أنفسكم) (فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم)** ففعلوا وجثوا على الركب ومدّوا الأعناق حين علموا أهم لا ينجيهم من عظيم الذنب إلا القتل، فكيف بكم لو دعيتم إلى **ما** دعوا! أحدّوا السيوف وركبوا الأسنة**)** (**وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيــل**) حتى تُدعوا وتُستنفروا.

فكان أول ما ابتدأوا به أمرهم بعد قتل الحسين سنة إحدى وستين، فما زالوا بجمع آلة الحرب ودعــاء الناس في السرّ إلى الطلب بدم الحسين، فكان يجيبهم النفرُ، و لم يزالوا على ذلك إلى أن هلك يزيد بــن معاوية سنة أربع وستّين، فلما مات يزيد جاء إلى سليمان أصحابه فقالوا: قد هلك هذا الطاغية والأمــر ضعيف، فإن شئت وثبنا على عمرو بن حريث، وكان خليفة ابن زياد على الكوفة، ثمّ أظهرنا الطلــب بدم الحسين وتتبّعنا قتلته ودعونا الناس إلى أهل هذا البيت المستأثر عليهم المدفوعين عن حقهم.

فقال سليمان بن صرد: لا تعجّلوا، إني قد نظرت فيما ذكرتم فرأيت أن قتلة الحسين هم أشراف الكوفة وفرسان العرب وهم المطالبون بدمه، ومتى علموا ما تريدون كانوا أشد الناس عليكم، ونظرت فــيمن تبعني منكم فعلمت أهم لو خرجوا لم يدركوا ثأرهم و لم يشفوا نفوسهم وكانوا جَزَراً لعدوّهم، ولكــن بثّوا دُعاتكم وادعوا إلى أمركم. ففعلوا واستجاب لهم ناس كثير بعد هلاك يزيد.

استيقظت الكوفة سنة ٦٥ هــ على نداء هو الأول من نوعه، فقد أرسل سليمان اثنين مــن أصــحابه فناديا فيها: يا لثارات الحسين.. فكانا أول خلق الله دعوا بهذا الشعار..

وخرج مع سليمان أهل البصائر والعازمون على الشهادة وتبعهم عدد آخر لما سمعوا النداء في الكوفة.

ثم قام سليمان في أصحابه فقال: أيها الناس من كان خرج يريد بخروجه وجه الله والآخرة فذلك منــا ونحن منه فرحمة الله عليه حيّاً وميتا، ومن كان إنّما يريد الدنيا فوالله ما نأتي فيئًا نأخذه وغنيمة نغنمها ما خلا رضوان [الله]، وما معنا من ذهب ولا فضة ولا متاع، وما هي إلا سيوفنا على عواتقنا وزادٌ قــدر البُلغة، فمن كان ينوي غير هذا فلا يصحبنا. فتنادى أصحابه من كل جانب: إنا لا نطلب الدنيا وليس لها خرجنا إنما خرجنا نطلب التوبة والطلب بدم ابن بنت رسول الله نبينا.

ثم ساروا فانتهوا إلى قبر الحسين، فلمّا وصلوا صاحوا صيحة واحدة. فما رُئي أكثر باكياً من ذلك اليوم، فترحمّوا عليه وتابوا عنده من خذلانه وترك القتال معه وأقاموا عنده يوماً وليلــة يبكــون ويتــضرّعون ويترحّمون عليه وعلى أصحابه، وكان من قولهم عند ضريحه: اللهم ارحم حسيناً الشهيد ابن الــشهيد. المهديّ ابن المهديّ، الصّدّيق ابن الصّدّيق، اللهم إنا نشهدك أنا على دينهم وسبيلهم وأعــداء قــاتليهم وأولياء محبيهم، اللهم إنا خذلنا ابن بنت نبينا، صلّى الله عليه وسلّم، فاغفر لنا ما مضى منا وتب علينــا

وارحم حسينا وأصحابه الشهداء الصدّيقين، و إنا نشهدك أنا على دينهم وعلى ما قتلوا عليـــه، وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين.
ثم ساروا بعد أن كان الرجل يعود إلى ضريحه كالمودع له، فازدحم الناس عليه كازدحامهم على الحجر الأسود.

* * *

لم يكن مهرجان الولاء والعشق الحسيني الذي أقامه التوّابون، دموعاً تراق لتنفيس الغضب والعقد كمـــا يصنعه غير الواعين و لم يكن تعويضا عن العمل والفاعلية، إنما كان محطة تعبئة للروح وتأكيد على الهدف وتجديد للبيعة مع الخط الحسيني، لذلك ما أسرع أن تحول ذلك المهرجان إلى طاقة ثورية دافعة للشهادة.
وهكذا غادر التوّابون كربلاء إلى عين الوردة حيث سيواجهون عبيد الله بن زياد مع جنوده..
وأقبل أهل الشام في عساكرهم حتى كانوا من عين الوردة على مسيرة يوم وليلـــة، فقـــام ســـليمان في أصحابه وذكر الآخرة ورغب فيها ثمّ قال: أمّا بعد فقد أتاكم عدوّكم الذي دأبتم إليه في السير آناء الليل والنهار، فإذا لقيتموهم فاصدقوهم القتال واصبروا إن الله مع الصابرين، ولا يولّينّهم امرؤٌ دبره إلا متحرّفاً لقتال أو متحيّزاً إلى فئة، ولا تقتلوا مدبراً، ولا تجهزوا على جريح، ولا تقتلوا أسيرا من أهل دعوتكم إلا أن يقاتلكم بعد أن تأسروه، فإن هذه كانت سيرة عليّ في أهل هذه الدعوة.
ثم قال: إن أنا قتلت فأمير الناس مسيّب بن نَجَبة، فإن قتل فالأمير عبد الله بن سعد بن نُفَيل، فإن قتـــل فالأمير عبد الله بن وال، فإن قتل فالأمير رفاعة بن شداد، رحم الله امرأً صدق ما عاهد الله عليه.

ثمّ بعث المسيّب في أربعمائة فارس ثمّ قال: سر حتى تلقى أوّل عساكرهم فشنّ عليهم [الغـــارة]، فإن رأيت ما تحبّه و إلا رجعت، و إياك أن تنزل [أو تدع]، أحدا من أصحابك [ينزل]، أو يستقبل آخر ذلك، حتى لا تجد منه بدّاً فسار المسيب ومن معه مسرعين فأشرفوا عليهم وهم غـــارّون، فحملـــوا في جانب عسكرهم، فانهزم العسكر وأصاب المسيب منهم رجالاً، فأكثروا فيهم الجراح وأخذوا الـــدواب، وخلّى الشاميّون عسكرهم وانهزموا، فغنم منه أصحاب المسيب مـــا أرادوا ثمّ انـــصرفوا إلى ســـليمان موفورين.
وبلغ الخبر ابن زياد فسرح الحصين بن نمير مسرعا حتى نزل في اثني عشر ألفا، فخرج أصحاب ســـليمان إليه لأربع بقين من جمادى الأولى، وعلى ميمنتهم عبد الله بن سعد، وعلى ميسرتهم المسيب بن نجبـــة، وسليمان في القلب، وجعل الحصين على ميمنته جملة بن عبد الله، وعلى ميسرته ربيعة بـــن المخـــارق الغنويّ، فلمّا دنا بعضهم من بعض دعاهم أهل الشام إلى الجماعة على عبد الملك بن مروان، ودعـــاهم أصحاب سليمان إلى خلع عبد الملك وتسليم عبيد الله بن زياد إليهم وأنهم يخرجون مَن بـــالعراق مـــن

أصحاب ابن الزبير ثمّ يرد الأمر إلى أهل بيت النبي، صلى الله عليه وسلّم فأبى كل منهم، فحملت ميمنة سليمان على ميسرة الحصين، والميسرة أيضا على الميمنة، وحمل سليمان في القلب على جماعتهم، فانهزم أهل الشام إلى عسكرهم، ومازال الظفر لأصحاب سليمان إلى أن حجز بينهم الليل.

فلمّا كان الغد صبح الحصينَ جيشٌ مع ابن ذي الكلاع ثمانية آلاف، أمدّهم بهم عبيد الله بـــن زيـــاد، وخرج أصحاب سليمان فقاتلوهم قتالا لم يكن أشدّ منه جميع النهار لم يحجز بينهم إلا الصلاة، فلمّـــا أمسوا تحاجزوا وقد كثرت الجراح في الفريقين، وطاف القُصّاص على أصحاب سليمان يحرضونهم.

فلمّا أصبح أهل الشام أتاهم أدهم بن محرز الباهليّ في نحو من عشرة آلاف من ابن زياد، فاقتتلوا يـــوم الجمعة قتالا شديدا إلى ارتفاع الضحى، ثم إن أهل الشام كثروهم وتعطفوا عليهم من كل جانب، ورأى سليمان ما لقي أصحابه، فنزل ونادى: عباد الله من أراد البكور إلى ربه والتوبة من ذنبه فإليّ! ثمّ كـــسر جفنة سيفه ونزل معه ناس كثير وكسروا جفون سيوفهم ومشوا معه، فقاتلوهم، فقتل من أهل الـــشام مقتلة عظيمة وجرّحوا فيهم فكثروا الجراح. فلمّا رأى الحصين صبرهم وبأسهم بعث الرجّالـــة تـــرميهم بالنبل واكتنفتهم الخيل والرجال، فقتل سليمان، رحمه الله، رماه يزيد بن الحصين بسهم فوقع ثم وثب ثم وقع [95].

---

[95] / تم الاعتماد على ابن الأثير ج ٤ في نقل أحداث الثورة.